الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية

بقلم
السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي
أمين ندوة العلماء العام بلكهنؤ - الهند
وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق - سوريا



الناشر
الدار الكويتية
للطباعة والنشر والتوزيع

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمــود ديـــاب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية

في الأقطار الإسلامية

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية
في الأقطار الإسلامية

الطبعة الثانية

مزيدة منقحة

الناشر

الدار الكويتية

للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب ٢٠١٤٦ - الكويت

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي الكتاب

إن هناك صراعاً فكرياً ، بل معركة فكرية في عبارة أصح ، في جميع الأقطار الإسلامية في هذا الوقت ، نحن نستطيع أن نسميها صراعاً ومعركة بين الأفكار والقيم الإسلامية والأفكار والقيم الغربية ، وهي المعركة الحاسمة الحاسمة الحقيقية التي يخوضها العالم الإسلامي اليوم وهي التي ستقرر مصيره ، وهي معركة تتضاءل أمامها جميع المعارك التي يغالي في تصويرها أو تهويلها الكتّاب والمؤلفون ، فكل معركة – غير المعركة الكبرى التي ننوه بها – إما معركة محلية ، أو معركة فرعية ، أو معركة وهمية . إن تاريخ هذه الأقطار القديم وحب الشعوب المسلمة للإسلام وصلتها القوية العميقة به ، والاسم الذي قاتل دونه المقاتلون وتيسر به الظفر بالحرية أو المحافظة عليها إذا كانت من قبل ، كل هذه الحقائق تثبت أن هذه الأرض التي نشبت فيها هذه المعركة لا مكان فيها إلا للأفكار الإسلامية والقيم الإسلامية ، ولا يسمح فيها إلا لمنهج ونظام دعا إليهما الإسلام .

لكن الطبقة التي تملك زمام هذه البلاد إن عقليتها وثقافتها وتربيتها ومصالحها الشخصية والسياسية كل ذلك يقتضي أن تزدهر فيها القيم الغربية وأفكارها ، وأن تتبع هذه البلاد الدول الغربية شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وهي تغير مفاهيمها الدينية وتقاليدها القومية وقوانينها الإسلامية بالأوضاع

الغربية أو تطورها إذا عاكست هذا الهدف وحالت دون الوصول إلى هذه الغاية ، وفي عبارة وجيزة : تصهر هذه البلاد بتؤدة وأناة ولكن بوعي وإلحاح في بوتقة الحضارة الغربية .

ومن هذه الأقطار ما قـــد قطع أشواطاً بعيدة في هذه الرحلة ووصل إلى هدفه المنشود أو كاد ، ومنها ما وقف حائراً على مفترق الطرق ولكن يبدو أن موعده قريب .

إنني أعتقد أن ذلك أضخم مشكلة للأقطـــار الإسلامية ، وهي مشكلة حقيقية لا صلة لها بالأوهام والأحلام ، إن ضعف الأقطار الإسلامية الداخلي ونفوذ الحضارة الغربية واحتلالها واستيلاء الأفـكار الغربية المادي والسياسي يرسم في الأفق علامة استفهام واضحة ضخمة أمام الأقطار الإسلامية كلها ، ولا تستطيـع أن تتقدم خطوة واحدة بدون أن تجيب عليها جواباً حاسماً .

أي موقف تتخذه هذه البلاد نحو هذه الحضارة !؟

وأي منهج تسير عليه لتوفيق مجتمعها بالحيـــاة العصرية وتحقيق مطالب العصر الحديث !؟

وإلى أي مدى تثبت ذكاءها وشجاعتها الخلقية لمواجهة هذه المعضلة ؟

إن وضع الجواب على هذا السؤال هو الذي يحدد مكانـة هذه الشعوب في خريطة العالم ويعرف به مستقبل الإسلام في هذه البلاد ومدى وفائهـــا لرسالة الإسلام الخالدة العامة .

كنا نشعر بحاجة شديدة إلى استعراض هذه المسألة وما قام به العاملون الموجهون من جهود في اتجاهات مختلفة ، ودراستها دراسة مؤرخ محايد وباحث نزيه ، وتحليلها من غير بخل وإسراف ، والتنبيه إلى طريق سوي لنهضة المجتمع الإسلامي الذي لا يتحتم عليه التمسك بالعقائد والأخلاق ومنهج الحياة الإسلامية

فحسب ، بل تقع عليه مسؤولية الدعوة والتوجيه والقيادة والوصاية على العـالم أيضاً، ولا يتحتم عليه المسايرة لركب الحياة السريـع فحسب بل قيادته كذلك.

إن جميـع الأقطار الإسلامية وأخص منها ما تحررت حديثاً في حاجة إلى بحث عميق في هذا الموضوع لأن أدنى انحراف أو زلة قدم سوف تهوي بها إلى مكان سحيق وتبعدها عن هدفها الصحيح بعدة قرون وأجيال .

وبهذا الدافع كتبت مقالاً مسهباً في أوائل سنة ١٣٨٢ هـ لم يلبث أن تحول إلى كتاب نشر في شعبان سنة ١٣٨٢ هـ – فبراير ١٩٦٣ باسم « موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية » واعتنت به الأوساط العلمية والدينية في العالم العربي .

وقد أتيح لي السفر إلى أوربا بعد نشر الكتاب ورأيت مركز هذه الحضارة ومعقلها عن كثب ، وشاهدتها في بيتها وعقر دارها ، واستفدت من هذه الرحلة في الاطلاع على بعض المصادر العلمية الحديثة ، وزدت فيـه زيادات قيمة مهمة جاءت ضعف ما كان عليــه الكتاب حتى أصبح بذلك كتاباً جديداً ، وهو ينشر الآن تحت عنوان « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية » .

وأدعو الله أخيراً أن يوفق قادتنـــا وزعماءنا إلى فهم مسؤوليتهم الدقيقة الضخمة وأداء هذه المسؤولية بحول الله وقوته بأحسن ما يمكن .

وقد ساعد المؤلف في تأليف الكتاب ونقل بعض المواد إلى العربية الأساتذة سعيد الأعظمي ومحمد اجتباء الندوي ومحمد الحسني مساعدة غالية فلهم شكر المؤلف وتقديره ودعواته .

أبو الحسن علي الحسني الندوي
بستان نورولي – المدينة المنورة
١٣٨٥/١/٩ هـ ١٩٦٥/٥/١٠

الموقف الأول

من الحضارة الغربيّة

الموقف السلبي

الموقف الأول

العالم الاسلامي أمام مشكلة الحضارة الغربية :

واجه العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر المسيحي مشكلة في غاية الدقة والتعقد والخطورة ، وعلى الموقف الذي يتخذه تجاه هذه المشكلة الحاسمة يتوقف مستقبله كعالم له شخصيته وكيانه .

هي مشكلة الحضارة الغربية الفتية ، الدافقة بالحيـــاة والنشاط والطموح وقوة الانتشار والاستيلاء ، وهي من أقوى الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ ، والتي لم تكن إلا مظهراً من مظاهر العوامل التي تكونت واختمرت قديماً ، وظهرت في أوانها .

واجه العالم الإسلامي هـــذه المشكلة وجهاً لوجه ، لأنه هو زعيم الرسالة الدينيـة والخلقية ، وصاحب الوصاية على المجتمع البشري ، بعدمـا انسحبت الديانات القديمة من معترك الحيــاة ، وصاحب القوة الكبرى التي يحسب لهــا الحساب ، وصاحب الدول الواسعة في هذا القرن ، فكان تحدي هذه الحضارة المادية الآلية للعالم الإسلامي أعظم من تحدّيها لأي أمة ، ولأي حضارة ، ولأي مجتمع بطبيعة الحال .

المزيج الغريب :

وكانت هذه الحضارة — بمعناها الواسع — مجموع عقائد ومناهج فكرية ،

وفلسفات ونظم سياسية واقتصادية ، وعلوم طبيعية وعمرانية واجتماعية ، وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الأوربية التي تزعمت هذه الحضارة في رحلتها الطويلة ، وكانت مظهر تقدم العلم البشري وعلوم الطبيعة وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، ومجموع نتائج جهود علماء وباحثين عبر القرون .

فكانت مزيجاً غريباً من أجزاء لا يكون الحكم عليها واحداً متشابهاً ، كانت مزيجاً من السليم والسقيم ، ومن الصواب والخطأ ، في النتائج والأحكام . ومن البديهيات في العلم التي لا تقبل الجدال والشك ، ومن التخمينات والتحكمات في الآراء والدعاوى التي تقبل المناقشة الطويلة والجدال الكثير ، ومما هو خميرة من الاختبارات والبحوث الطويلة ، ومما هو فج لا يزال في دور التجربة والاختبار ، والنشوء والارتقاء ، ومما لا يختص بإقليم أو عنصر ، من علوم تطبيقية ، وبالعكس مما تجلت فيه الطبيعة الأوربية ، وأثّرت فيه البيئة الغربية ، وولّدته حوادث تاريخية خاصة اكتوت بنارها هذه الأمم ، ومما له صلة قوية عميقة بالدين والعقائد ، ومما لا صلة له بالدين مطلقاً ، وذلك الذي زاد في تعقد هذه المشكلة وخطورتها ، وأحرج مركز العالم الإسلامي ، وكان فيه بلاء ومحنة لذكاء قادته وزعمائه ، وأصحاب التوجيه فيه .

الموقف الأول السلبي :

وكانت هنالك ثلاثة مواقف يستطيع العالم الإسلامي أن يقفها أمام هذه المشكلة الطريفة ، لا أرى لهذه الثلاثة رابعاً .

كان الموقف الأول موقف السلبية ، وهو أن يرفض العالم الإسلامي هذه الحضارة وما جاءت به بتاتاً ، ويقف منها موقف المعارض الثائر ، أو موقف المعتزل الحائد ، لا يقتبس منها شيئاً ولا يسمح بدخول علم من العلوم التي كان للأوربيين فيها التفوق والاختصاص ، ولا ينتفع بتجارب الغرب في مجالات

الطبيعة والكيمياء والرياضة وعلم الميكانيكا ، ولا يستورد شيئاً من الآلات ، والصنائع والأجهزة ، وأدوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة .

حكم هذا الموقف طبيعياً وشرعياً ، ونتائجه :

وهذا لا بد ينتج التخلف الشديد عن ركب الحياة ، ويقطع صلة هذا الجزء عن باقي العالم ، ويكون جزيرة منقطعة لا مناعة لها ولا قيمة ، والبحر لا مكان فيه للجزر المنقطعة الصغيرة ، ولا حرب مع الطبيعة البشرية ، ومنطق الحوادث والحقائق ، وهو - بصرف النظر عن كل هذا - ضيق في العقل ، وتعطيل للقوى الفطرية ، وجناية على الإسلام ، وسوء تفسير للدين الذي يحث على استعمال العقل والتفكير في الكون [١] واقتباس الصالح النافع أينما كان مصدره [٢] ويأمر بإعداد القوة الممكنة للدفاع عن الدين وإرهاب العدو [٣] وينظر إلى الإنسان كخليفة الله في هذه الأرض [٤] سخّر له البحار والأنهار ، وسخّر له الشمس والقمر ، وسخر له الليل والنهار ، وآتاه من كل ما سأله بلسان المقال أو بلسان الحال [٥] وامتنّ على عباده بإنزال الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع

---

(١) « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب • الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » . (آل عمران ١٩٠ - ١٩١) .

(٢) « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » (الترمذي : أبواب العلم) .

(٣) « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » (الأنفال ٦٠) .

(٤) « إني جاعل في الأرض خليفة » (البقرة - ٢٠) .

(٥) « الله الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار * » (إبراهيم ٣٢ - ٣٣ - ٣٤) .

للنّاس [١] وضرب رسوله المثل لأمته باقتباس بعض أساليب الحرب والدفاع من غير المسلمين وغير العرب ، فحفر الخندق في الأحزاب كما كان يحفره الفرس . وعلى هذه السيرة سار أصحابه وفقهاء أمته من بعده ، فكانوا يسايرون الزمن ويجارون الأمم في الأساليب الحربية واتخاذ آلات الحرب ووسائل القوة ، وتعلّم العلوم النافعة ، ويسبقونها أحياناً .

ولو حاول قطر من الأقطار أن يطبق عينه وسمعه عن تحدي هذه الحضارة الصارخ ، أو أن يرفضها رفضاً باتّاً ، وصمّم على أن يعيش في عزلة عن العالم المعاصر ، منطوياً على نفسه ، لما استطاع ذلك ، ولواجه ثورات لا آخر لها ، وعصياناً وتمرداً في الداخل ، لأنه يعارض الفطرة الإنسانية الوثابة الطموح ، الولوع بالجديد ، الطالبة للمزيد ، الطامحة دائماً إلى المجد والقوة والتجديد ، ويعارض كذلك السنن الكونية وطبائع الأشياء ، ولو فعل ذلك قطر من الأقطار لتسربت هذه الحضارة إلى أمر هذا القطر وبيوته ، كما يتسرب الماء في القرية أو المدينة إذا أحاط بها السيل من كل جانب ، وطغى عليها الفيضان .

مصير الأقطار التي تعيش في عزلة عن العالم :

لقد كانت الفترة التي عاشت فيها بعض الأقطار الإسلامية بعيدة عن الحضارة الحديثة بخيرها وشرها ، زاهدة في مرافقها وأساليبها ، منطوية على نفسها ، لقد كانت هذه الفترة دائماً قصيرة مضطربة مهددة بالغزو الحضاري والثقافي من الخارج ، وموجات هذه المدنية العاتية التي تتغلغل إلى الجذور والأعماق ، وتذهب بالقيم والمفاهيم ومبادىء الأخلاق ، ويشك كل عاقل عرف قوة نفوذ هذه الحضارة وسعته ، وعرف ضعف هذه الأقطار الروحي والمادي ، وفقدها ما يقاوم هذه الحضارة من إيمان وقوة شخصية وثقة ، يشك في بقاء هذه الأقطار في

---

(١) « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع الناس » (الحديد ـ ٢٥) .

سلخها (١) وحصارها المدني والثقافي والاجتماعي ، ويشك في طول هذه الفترة ، – لأنها مع وجود هذا الضعف في الشخصية والفقر في القوة المعنوية– غير صالحة للطول والامتداد ، فضلا عن البقاء والاستمرار .

زار الاستاذ محمد أسد – الذي عاش في أوروبا وتجول في العالم الإسلامي – الجزيرة العربية الوادعة الهادئة في سنة ١٩٣٢م وهي لا تزال متمسكة بتقاليدها العربية الإسلامية أشبه بالماضي منها بالحاضر ، لم تجس خلالها الحضارة الغربية، ولم تقتحم سورها – الرملي – الأساليب الغربية والمصنوعات الحديثة ، فشك في طول حياة هذه العزلة ، والبعد عن تأثير الحضارة الغربية التي طوقت الجزيرة ، فقال :

« وعندما وصلت بتفكيري إلى هذا الحد ، سألت نفسي فجأة ، إلى متى يستطيع زيد (٢) وقوم زيد (العرب) أن يحتفظوا بتماسكهم الروحي في وجه الخطر الذي يطبق عليهم بكثير من الخداع والمكر وبصورة لا تعرف الرحمة ، أو اللين ؟ نحن نعيش في زمن لم يعد الشرق فيه يستطيع أن يبقى ساكناً سلبياً في وجه الغرب الآخذ بالإطباق عليه،إن آلافاً من القوى – السياسية والاجتماعية والاقتصادية – تطرق أبواب العالم الإسلامي، فهل يخضع هذا العالم ويستسلم إلى حضارة الغرب ويفقد خلال التفاعل لأشكاله وأنظمته التقليدية فحسب بل جذوره الروحية أيضاً » (٣) .

نعم لم تطل هذه الفترة فلم تلبث هذه البلاد المقدسة أن غزتها الحضارة الغربية وتدفق فيها سيل المصنوعات الحديثة ، والمستوردات الغربية ، وأكثر

---

(١) سلخ الحية ، قشرها .

(٢) البدوي العربي الذي كان مرافق محمد أسد فيمغامراته ورحلاته في صحراء العرب ، ودليله في هذه الرحلة .

(٣) الطريق إلى مكة ص ١٤٠ .

من أسباب الترف ومن « الكماليات » ، فشحنت الأسواق ، وملأت البيوت ، وقضت على التقشف في الحياة وصفات الفتوة والفروسية التي عرف بها العرب من قديم الزمان ، وكانت من أسباب قوتهم وانتصارهم ، وظهر اتصال الجزيرة بالغرب عن طريق الحضارة والثقافة والسياسة وعن طريق البترول ، وكان هذا الاتصال وهذا الاقتباس من الغرب في مجال الحضارة والتجارة والثقافة ، عن ارتجال وتهور ومن غير تفكير هادىء وتصميم سابق ، فأصبح هذا الاستسلام ، الذي تخوف منه الاستاذ محمد أسد أمراً واقعاً ، وأصبحت الجذور الروحية ــ فضلاً عن الأشكال والأنظمة التقليدية ــ مهددة .

ويشعر الأوروبيون بذلك ، ويتعجبون من هذا التحول ، والتطور الجذري وانتشار الاختراعات الغربية في صحارى جزيرة العرب الوادعة الصامتة الهادئة ، ووسائل الراحة والطمأنينة ، ووفرة وسائل العيش والترف والبذخ ، وارتفاع مستوى الحياة فجأة ، وتعقد الحياة العملية الساذجة البسيطة من قرون ، يقول مؤلف أميركي Don Leretz في كتابه (The Middle East - to day) : (الشرق الأوسط اليوم) .

وقد ضعفت وتضاءلت المؤثرات التقليدية بثروة الزيت (وساهمته عوامل القوى الغربية) بعد الحرب العالمية الثانية ، ويكاد ينقرض التراث الحضاري القديم المشترك الذي كان يربط الطبقات والأوساط المختلفة المتنوعة ، لأن أفراد أسر «الشيوخ» الشريفة النبيلة الذين أثروا بفضل الزيت والبترول بدأوا يخضعون للمخترعات الغربية والطرق الغربية الحديثة ، والتقاليد والعادات ، والذوق الغربي ، وأنشأ ذلك في المحيطات والطبقات السفلى اضطراباً وقلقاً ، لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا تلك الحياة المترفة الفخمة ، والتفت قبائل البدو حول المدن تاركين رعي الحيوانات واقتناءها مثلاً ، وانهم يوماً فيوماً يعطفون على الطبقة القلقة السفلى العامة الدهماء التي تسكن في هذه المدن ويناصرونها [١] ،

(١) The Middle East to day , P402

ويقول في موضع آخر :

« ومن ناحية أخرى ، إن تدفق الثروة الفجائية التي تجمعت وارتكزت في صندوق الأسرة السعودية ـ التي كانت تملك القوة الكبرى والسلطـان الهائل ـ ونشرت مع ذلك الرشاء والمحسوبية وعدم الشعور بالمسؤولية في الامور الماليـة بشكل عجيب ، وقـد أتلف قسم كبير من الثروة الضخمة الناشئة عن الزيت بالإسراف والتبذير ، وحظيت بها الأسرة الملكية التي لا تشمل الملك وأولاده من هذه الجماعة الكبيرة الواسعة فحسب بل إنها تشمل زوجاتهم وأصهارهم الذين يُعدّون بمئات ، كانوا ينالون المال رأساً من هذه الثروة،ولم تعد الأسرة السعودية حاكمة في الصحراء وشيخاً وهابياً فحسب كما كانت في القديم ، بل انهم يعيشون عيشة ملوكية شرقية بكل نوع من أنواع الراحة والعيش الرغيد الهنيء،واشترى عشرات من الأنجال الأمراء سيارات ثمينة ، وبنوا قصوراً عالية شامخـة تتحلى بوسائل الراحة والعيش الحديثة (كمكيفات للهواء وحوض ومسابح جديـــدة للاستحمام والغسل) [1] » .

ويزيد الكاتب فيقول :

« وقد تضاءل ذلك الحماس الذي دافعت به القبائل الوهابية عن العقـــائد والأسس الأساسية للإسلام ، وامّحت تلك الدعوة القوية إلى البساطة والتقشف، ولا ترتفع الآن أصوات التهديد والاحتجاج ضد وسائل الترف والبذخ الأجنبيّة، وهي لم تُقبل اليوم فحسب بل كل واحد من أعضاء المجتمع وطبقاته يتنافس في إحرازها والظفر بهـــا ، والقبائل التي كانت تقطن في الصحراء وتعيش عيشة ساذجة وحياة خشنة على غرار الحياة الوهابية قد هجرتها وأقامت حول منابع البترول وآبار الزيت ، واعتادوا بعد التحول إلى هذه الأمكنة تلك الأشيـــاء

(١) نفس المصدر ص ٤٠٦ — ٤٠٧ .

الغربية التي اختُرعت حديثاً ، يشترونها بالمرتبات الضخمة التي يتقاضونها من شركة « آرامكو » [١] .

فلا شك ان جزيرة العرب لم تكن تقع فريسة الغرب إلى هذا الحد لو قام قادة البلاد بمحاولات جدية لاكتفائها الذاتي والتخطيط والمشاريع ، وبذلوا لها مجهودات مخلصة نزيهة لترقيتها وتدعيمها وتنظيمها على خطط محكمة واضحة ، وتناولوا الحضارة بنقد جريء وتفكير أصيل وعملوا بالمبدأ الإسلامي القديم « خذ ما صفا ودع ما كدر »، لو كان ذلك لما تدفقت كسيل جارف عارم على مركز الإسلام، ولم تكن من نصيب هذه البلاد القشور الظاهرة والمظاهر الخلابة الجوفاء فحسب ، ولكن السلطات الحاكمة قد تجردت عن بعد النظر وعمق التفكير والصبر والجلد الذي يحتاج إليه من يقود هذه البلاد في هذا العصر ، وتلقي على ذلك بعضَ الضوء قصة يرويها محمد أسد في كتابه الشهير « الطريق إلى مكة » إنه يقول :

أذكر حديثاً مع الملك تبين فيه عدم تبصره وافتقاره إلى النظر الإداري ، كان ذلك في مكة عام ١٩٢٨ م ، عندما قام زعيم الحركة الاستقلالية السورية الشهيرة ، الأمير شكيب أرسلان ، بزيارة الملك ، وقد قدّمني ابن سعود إليه بهذه الكلمات : « هذا هو محمد أسد ، ولدنا ، لقد عاد الآن من المناطق الجنوبية ، انه يحب السفر بين البدو »، واستبد الفضول حالاً بالأمير شكيب،الذي لم يكن زعيماً سياسياً فحسب بل كان رجلاً متعدد جوانب الثقافة وعالماً واسع الاطلاع، لمعرفة انطباعاتي عندما علم أنني كنت رجلاً أوروبياً اعتنق الإسلام . ولقد وصفت له بعض وجوه رحلتي تلك إلى الجنوب وبخاصة اختباراتي في وادي البيشة الذي لم يزره قط رجل أوروبي قبلي ، وكنت قد رجوت خيراً كثيراً من امكانات تلك المنطقة الزراعية الكبرى وتربتها الخصبة ، وفي أثناء سردي

The Middle East to day P. 407 (١)

للرحلة وجهت الحديث إلى الملك وقلت :

« إنني واثق أيها الإمام ! من أن وادي بيشة يمكن أن يصبح بسهولة مصدراً عظيماً للحنطة وأن يمّون الحجاز كله بها ، بشرط أن يخطط ويعنى به عنـــاية كافية » .

وأرهف الملك أذنيه . ذلك ان مستوردات الحنطة لمقاطعـة الحجاز كانت تستهلك كثيراً من مداخيل البلاد ، وكان النقص في المداخيــل أهم ما يشغل بال الملك . وسألني قائلاً :

« وكم يقتضي من الوقت كي يصبح وادي بيشة كذلك ؟ » .

ولما لم أكن خبيراً ، فإني لم أستطع أن أقدم إلى الملك جواباً قاطعاً ولكني اقترحت أن تشرف بعثة من الخبراء الفنيين من الخارج على تخطيط المنطقة ، وأن تقدم اقتراحاتها العملية لتطويرها ، كذلك تجرّأت على القول بأنها يمكن أن يصبح الانتاج فيها كاملاً في مدة تتراوح بين خمس سنوات وعشر .

- « عشر سنوات » ! - كذلك هتف ابن سعود .

« إن عشر سنوات مدة طويلة من الزمن . نحن البدو لا نعرف إلاّ شيئـــاً واحداً : إن ما نحصل عليه بأيدينا نضعه في أفواهنا ونأكله ، أما أن نضع الخطط والمشاريـع قبل عشر سنوات فشيء يطول أمره علينا بأكثر مما ينبغي » .

وإذ سمع الأمير شكيب هذا الكلام المذهل حدق بي فاغراً فاه ، كأنمـا لم يصدق أذنيه ، ولم أستطع إلاّ أن أحدق به النظر .. »[1]

التقاليد والعادات لا تستطيع ان تقاوم الحضارة الجديدة :

ولن تطول هذه الفترة - السلبية - في أي قطر من أقطار الشرق لأن

---

(١) الطريق إلى مكة ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

التقاليد والعادات والجهاز الاجتماعي أو الاداري الذي ليس وراءه عقيدة راسخة قائمة على فقه وبصيرة ، وليس معه ذكاء وألمعية ، والمقدرة الكافية على تطبيق الحقائق والمبادىء الدينية الخالدة على الحياة المتطورة وحاجاتها الجديدة . والتمييز بين ما يصلح للاقتباس من الحضارة الجديدة ومنتجاتها وما لا يصلح ، لا يستطيع أن يقف طويلاً في وجه هذه الحضارة العارمة ، وكل قطر أو قيادة تمني نفسها بالاحتفاظ بالقديم ، والانحصار في دائرتها من غير هذه المقومات التي ذكرناها ومن غير إيمان جديد قوي وعقل واع منتج مهددة بالانهيار عاجلاً أو آجلاً .

وإذا لم يكن الاقتباس من الحضارة الغربية ومرافقها ومنتجاتها عن إرادة وتصميم ، وباختيار وتمييز ، وعن فقه وبصيرة ، هجمت على هذا القطر أو المجتمع غصباً ، وعلى الرغم من قادته وولاة الأمر فيه ، وعلى الرغم من العلماء وزعماء الدين ؛ ورحَّب بها أهل البلاد ، وفتحوا لها الأبواب ، والتهموها — بصالحها وفاسدها — في نهامة وجشع ، واكتسحت القيم الدينية والخلقية وغُلِب قادة البلاد أو ولاتهم على أمرهم ، وأفلت منهم الزمام إلى آخر الأبد .

لا بد من التخطيط وإصلاح الأوضاع :

لقد أصبحت الأقطار الشرقية — من غير استثناء تقريباً — فريسة الحضارة الغربية في الزمن الأخير ، وانجرفت في سيلها العارم من غير امتناع ومقاومة ، لفَقد العقل الراجح المتزن في القيادة وفَقد « عملية التمييز والاختيار المحكمة » في الوجهين ، وعدم وجود التصميم أو التخطيط الحكيم في نظام المعارف وتنظيم البلاد تنظيماً جديداً قائماً على التجارب الحديثة . وبسبب وجود نظم وأوضاع كانت نتيجة الانحراف عن التعاليم الاسلامية الصحيحة ، لا يقرها العقل والعدل ، ولا تصلح للبقاء في أي عصر من العصور فضلاً عن هذا العصر القلق الثائر .

وهذه قصة افغانستان التي ُعرفت في الشرق بشدة محافظتها وتمسكها بالقديم

والتقاليد الافغانية القديمة ، فقد استطاعت أن تعيش بعيدة عن تأثير الحضارة الغربية ، محتفظة بتراثها القديم من ثقافة واجتماع ، تزهّد في الجديد الصالح مدة طويلة من الزمان ، لقد كانت تقع بين روسيا والهند التي كانت تحت الحكم الانجليزي ، وكانت تقع على أكتافها مسؤولية عظيمة لوضعها الجغرافي والسياسي ، والإستراتيجي ، وتستهدف لأخطار عظيمة ، ولكنها – رغم كل ذلك – كانت بلداً متخلفاً في مجال التعليم والصنائع ، والقوة الحربية ، لقد كانت بمعزل في أوائل القرن العشرين ، وقد نشبت الحرب العالمية الأولى عن العلوم الحديثة ، والتنظيمات العصرية ، وعن كل مظهر من مظاهر التمدن الحديث ، وتقدم المدنية والتجارة في العالم الحديث ، وهنا نلتقط بعض المعلومات عن هذه البلاد التي كادت تكون مجهولة للعالم الحديث من رحلة لشاب هندي مثقف [1] ، قام بها سنة ١٩١٥ م ، وعاش فيها عدة سنوات كمواطن ، وخاض في سياستها وحركتها الاستقلالية ، تلقي بعض الضوء على تخلّف هذه البلاد ، وانعزالها عن العالم المتمدن ، يقول ظفر حسن :

« قد كانت افغانستان متأخرة جداً في مجال التعليم في هذه الفترة التي قضيناها في افغانستان ، لقد كانت نسبة المتعلمين في الشعب ، لا تزيد على اثنين في المائة ، وكان جلّ هؤلاء المعلمين قد تلقّوا ثقافتهم في المدارس الدينية القديمة ، والكتاتيب ، لعلّ الملوك في الزمن القديم ، كانوا يخافون أن يتعلّم أهل بلادهم فتتفتح عيونهم ، ويقودهم ذلك في بعض الأحيان إلى الثورة على حكمهم المطلق المستبدّ ، فلم يكن يوجد في عهد الأمير حبيب الله خان (الملقب بسراج الملة والدين) إلاّ ثانوية مدنية حكومية كانت تسمّى « مكتب حبيبيّة » ومدرسة حربية ابتدائية ،

---

(١) هو الاستاذ ظفر حسن ايبك ، أصله من كرنال الهند ، وكان من الشباب المرجوين اللامعين ، حمله العداء للإنجليز والحماسة الدينية على أن يهاجر من الهند ، فسافر إلى كابل ، وأقام هناك ثماني سنوات ، وحاز ثقة الملك نادرخان (القائد العام يومئذ) ثم سافر إلى روسيا . فتركيا ، وأصبح ضابطاً للمدفعية في الجيش التركي . ولا يزال هناك ، وصدرت مذكراته حديثاً في باكستان .

كانت تسمّى « مكتب حربية » ، وكانت هذه هي الخطوة الأولى التي قام بها الأمير حبيب الله خان في عهده والذي يستحق أن يعتبر المؤسس الأول للنهضة التعليمية في البلاد ، فقد كانت افغانستان في عهد والده (ضياء الملة والدين عبد الرحمن خان) لا تعرف شيئاً من ذلك [١] » .

ويقول في موضع آخر :

« ولم تكن توجد في غير كابل من المدن مدرسة جديدة ، كان الناس يقرؤن القرآن الكريم في الكتاتيب ، أما الكتّاب الذين يشتغلون في الإدارات ، والذين كانوا يعرفون في افغانستان بلقب مرزا ، فقد تلقّوا ثقافتهم بأنفسهم واجتهادهم وكانت ثقافتهم محدودة جداً ، وقد دخل التعليم الحديث في افغانستان بعدما زار الأمير حبيب الله خان الهند في سنة ١٩٠٥ م ، وكان لا يزال هذا النظام في دور الطفولة » [٢] .

ويعرف مدى تأخر البلاد في المدنية ، ووسائل الثقافة ممّا ذكره المؤلف المذكور استطراداً ، يقول :

« خرجنا نبحث في جلال آباد عن الورق الذي نكتب عليه الرسائل ، والظروف التي نغلّفها فيها ، فعرفنا أنه لا يوجد في البلد دكان يباع فيه القلم والدواة ، أو المرسم ، أما الورق فيباع في دكان الجزّار ، أما القلم والدواة فلا وجود لهما في السوق » [٣] .

أما المصنوعات والبضائع التجارية التي لا يستغني عنها بلد ، فقد كانت البلاد فقيرة فيها ، يدل على ذلك ما ذكره المؤلف ، يقول :

« كان في كابل مصنع وحيد للأحذية الجديدة ، كان يسُدّ في غالب الأحيان

---

(١) مذكرات ظفر حسن إيبك الجزء الأول ـ ٥٤ ـ ٥٥ .
(٢) أيضاً ٨٠ . (٣) أيضاً ٦٧ ـ ٦٨ .

حاجة الجيش ، وكان لأهل البلاد نصيب ضئيل فيه ، وكانت الأحذية التي توجد في أسواق كابل من صنع الهند أو انكلترا ، وكانت لا توجد غالباً إلاّ المنسوجات الوطنية من صنع اليد ، أو ما صُنع في المغازل البلدية ، أما الصوف ، فكانت له مصانع لا بأس بها في « هرات » . كانت صناعة السجاجيد الصوفية راقية » .

أما المواصلات ، فيتحدث عنها الكاتب ، فيقول :

« لم تعرف افغانستان في ذلك العهد الخط الحديدي ، وكانت الشوارع قليلة وبدائية ، أما الطرق المرصوفة ، فكانت محدودة في مدينة كابل وحواليها ، ولم تكن القناطر على جانب كبير من الإحكام والمتانة ، وكانت تتضرّر في أيام المطر ، وكان الإعتماد الغالب في الحمل والنقل على الخيل والبغال والجمال ، وكانت المركبات والعربات محدودة في كابل وجلال آباد ، أما السيارات فكانت مخصوصة للأمير حبيب الله خان ، وكان الأمراء والوزراء يركبون الخيل غالباً ، فكانت عندهم الجياد العتاق في اصطبلاتهم .

وكان نظام البريد بدائياً في البلاد ، وكان يستخدم غالباً في نقل المراسيم والبلاغات إلى حكّام الولايات والمديريات ، وكان الناس يحملون الرسائل إلى أصدقائهم وإخوانهم إذا سافروا من مكان إلى مكان ، فكان الناس لا يلتجئون إلى مركز البريد إلاّ في النادر ، وكان البريد يأتي من الهند مرتين في الأسبوع أيام الصيف ، ومرة في الأسبوع في فصل الشتاء ، وكان هذا البريد يحمل بعض الجرائد ، وكان بين كابل وجلال آباد خط تليفوني واحد ، كان يشتغل جيداً أيام إقامة سموّ الأمير في جلال آباد ، وكان مقصوراً على الأغراض الحكومية ، أما التلغراف ، فلم يكن له وجود في البلاد » [١] .

أما ما كانت عليه البلاد من استعداد للحرب ، وما كانت تملكه من ذخائر ومعدّات حربية ، وسلاح حديث ، فيظهر ذلك من وصف الكاتب لوضع البلاد

---

(١) مذكرات ظفر حسن ايبك الجزء الأول ٥٦ - ٥٧ .

في هذه الأيام العصيبة التي كان العالم يواجه فيها حرباً عالمية كبرى ، وكان يمتد لهيبها إلى أفغانستان ، يقول ظفر حسن :

« كان سلاح الجيش الافغاني في دور بدائي جداً ، وكانت الفيالق في العاصمة وحدها ، هي التي تحمل البنادق من الطراز الحديث ، وكانت عند الجيش رشاشات محدودة ، وعدد من المدافع الحديثة ، وكان أكثر المدافع من الطراز القديم الذي يُشعل فيه الفتيلة ، ولم تعد تستخدم في بلد راقٍ متمدن ، ولم تعرف البلاد بعد نظام « إدارة الميرة للجيش » ، فكان أفراد الجيش يأخذون مرتبات شهرية لم تكن تكفي لأسرهم وعائلاتهم ، وكانوا مضطرين إلى أن يشتروا الدقيق ويطبخوا الخبز ، ويهيئوا الإدام ، ويجلبوا الحطب ، ويضيعوا الشيء الكثير من أوقاتهم في الطبخ وتهيئة الطعام » (١) .

أما العناية بالصحة والعلاج ، والوقاية من الأمراض والاوبئة ، فيعرف ذلك من الحقائق التالية :

« لم يكن يوجد في طول البلاد وعرضها إلا مستشفيان في كابل ، أحدهما مستشفى مدني ، والآخر مستشفى عسكري ، يُشرف على الاول طبيب تركي ، وعلى الثاني طبيب هندي من لا هور » (٢) .

وفيما قدمنا كفاية لمعرفة تخلف هذه البلاد في المدنية ، وعن ركب الحياة في العالم المعاصر .

وقد كانت هذه الحال في افغانستان حين طفرت طفرة واسعة إلى الحضارة الغربية ، ورفعت الحجاب بينها وبين الحضارة أخيراً ، وبدأت تهجم على الحضارة الغربية وعاداتها وتأخذها بنهامة وشغف .

وقد حدثت هناك ثورة في الاوضاع في خلال ٣٢ سنة ، فالمجتمع الافغاني الذي ثار على أمان الله خان الامير العريق في الملك والشرف لأجل اصلاحات وتطويرات قام بها ، اضطرته تلك الثورة إلى التنازل عن العرش والجلاء

---

(١) أيضاً : ٥٩ (٢) أيضاً : ٦٣ .

الدائم ، أصبح هذا المجتمع الأفغاني يُقبل إلى المدنية الحديثة وأوضاعها المخالفة للتقاليد الإسلامية الافغانية بخُطى سريعة واسعة ،وأصبحت أفغانستان المحافظة المصونة تتطور تطوراً سريعاً لا يعرف أحد مداه ونهايته ، ويستطيع الإنسان أن يقدّر ذلك بما نقدمه من تقرير لأحـد الصحفيين الأوربيين ، يقول المراسل الأوربي الشهير Ritchie Colder للصحيفة الهندية الانجليزية Times of India وقد حضر عيد الاستقلال الأفغاني في عام ١٩٦٣ م في عددها الصادر — ٢٨ يوليو ١٩٦٣ م — :

« إن الألعاب النارية الواسعة النطاق (التي لم أرها في أفغانستان من ذي قبل) كانت تثير هتافات وتصفيقات نصف مليون متفرج ، وهكذا كانت أفغانستان تحتفل بأسبوع عيد استقلالهـا ، وقال لي وزير خارجية أفغانستان (الذي كان يجواري علىالمقاعد الملكية على شاطىء البحيرة حيث كانت الألعاب النارية متواصلة مستمرة) : إنك لم تحسن اختيار الوقت الذي تزور فيه هذه البلاد ، نحن نحتفـل الآن بعيد الاستقلال ونحن في متعة وفرح لا نستطيع أن نتحدث معك عن تفاصيل مشاريعنا التقدميّة لخمس سنوات .

قلت له: « لا يا صاحب المعالي ! إنها فرصة حسنة لائقة وهي أفضل مناسبة لاختبار مآثر بلادٍ ومدى تقدمها ، اني أُريـــد أن أرى السيدات الأفغانيات باسمات » وهنالك تقدمت إلينا فتاة أفغانية جميلة وابتسمت .

إن ذلك يلقي ضوءاً على مدى التطور الذي نشأ في أفغانستان أقوى من الأضواء التي تنير كابل ، بالتخطيط الكهربائي ، ومن مبانيها كلها والصناعات الحديثة ومن الرقي المادي كله .

كانت نساؤها متمسكات بالحجاب قبل ثلاث سنوات ، وإن سمح لهن أن يخرجن لمثل هذه المناسبات ، فكن يأتين إليها متغطيات بالملاءة والأردية التي

تغطيهن من الأرجل إلى الرؤوس ، ويخفي وجوههن القناع الذي فتحت فيه ثقوب للنظر .

ولكن الآن تغير كل شيء، ويشاهد اليوم عدد كبير من النساء اللواتي يشهدن الحفل مستترات بالأقنعة التي تميزهن ولم يتعودن إلى الآن أن يكشفن وجوههن بحرية وانطلاق ، ولكن الأغلبية الساحقة من النساء أصبحن سافرات .

يعسر على الذين يسكنون خارج افغانستان أن يقدروا مدى تأثير هـذا التطور على نساء الأفغان، قد خلع العلماء الملك أمان الله خان وحرم عرش آبائه قبل ٣٢ عاماً لأنه سمح لعقيلته بأن تخرج سافرة .

ويصح أن يقال أن إلغاء الحجاب السائد في المجتمع إنما جاء عن طريق نظام القابلات ودور الولادة الطبية ، عندمـــا حلّت الدكتورة اينا ميريا جيد (Anna Maria gada) (وهي الآن رئيسة المركز الإقليمي لدائرة الصحـة الدولية بدهلي) افغانستان من الدانمرك قبل عشر سنين، ولم تكن هناك في ذلك الحين طبيبة للتوليد ، وكان في افغانستان كلها مئة وعشرون طبيباً وكلهم كانوا رجالاً ولم يسمح لطبيب أن يفحص النساء ، ولم تكن القابلات المحليـــة يعرفن بتاتاً طرق المعالجة الحديثة .

بدأت الدكتورة جيد تربي النساء وتعلمهن القبـــالة ، وكانت تشترك معها سيدات الأسرة الملكية أيضاً ، وأُقيمت مراكز التوليد والصحة، وبدأت تتردد عليها النساء المحجبات كثيراً ولم يتمتعن هناك بفوائد جسمية وصحية فحسب ، بل نشأ بذلك تطور ثوري وتغير جذري في التفكير وأساليب الفكر والنظر ، بل عرفن بعد الاجتماع مع الطبيبات والقابلات أن النساء يستطعن أن يكسبن أرزاقهن أيضاً بهذه المهنة كالرجال ، واسترعت هـــذه المراكز الطبية انتباه المريضات إلى خطورة شخصياتهن، وشعرن انهن لسن من أثاث المنازل الذي يبقى

في زوايا البيت ولا يرى ضوء الشمس .

وقد أسست اليوم مستشفيات راقية ممتازة لهؤلاء النساء وألقيت مسؤولياتها وإدارتها على كواهل نساء أحرزن شهادات عالية ، يتمسكن بقوانين الصحة وأسسها القوية الحسنة وبغاية من النظافة والأناقة ، ويراعين تلك التقاليد التي تركتها الدكتورة (جيد) ويرتبطن بها ارتباطاً وثيقاً .

بدأت نساء الأفغان يخرجن سافرات من آب (أغسطس) عام ١٩٥٩ م إثر منشور ملكي سمح للنساء بالسفور ولم يفرض ذلك عليهن فرضاً، سألت السيدة معصومة الكاظمي وكانت قد تخرجت من جامعة كابل لشهادة الليسانس الداخلية في الطب وكانت صورة حية للظرف وخفة الروح مليئة بالحياة، ماذا فعلت بعد صدور هذا المنشور ؟..

قالت : إنني وأختي طرحنا الملاءة وأردية القناع في التنور وسجرناها وحلفنا أننا لا نرجع إليها أبداً ، إن معصومة وأختها فيروزة ابنتا صاحب مصرف وانهما ستكملان دراستها الطبية وتحرزان شهادة الدكتوراه في سنة ١٩٦٥ م ، وسيتخرج الفوج الأول للطبيبات بعد إنهاء مناهج الطب لسبع سنوات عام ١٩٦٤ م .

ويوجد التعليم المختلط في جامعة أفغانستان اليوم ، وكانت الطالبات في السابق ، يأتين متغطيات بالأردية والملاءة الساترة ويدرسن في الصفوف المستقلة المنقطعة عن الطلاب ، والدراسة والتربية في الجامعة مجّانية ، تدفع الحكومة الرسوم الجامعية والكتب والملابس والأطعمة، وسيتخرج عدد كبير من الطالبات من الجامعة ويُعيّنّ معلمات في الجامعة، والجامعة الآن في حاجة ماسة ملحة إلى الأساتذة الرجال والنساء ، لأن الدراسة في الجامعة تعتمد إلى حد كبير على

الأساتذة الأجانب (١) .

وتكاد تكون هذه قصة اليمن ، وجميع الأقطار الإسلامية التي أقامت حولها سوراً عالياً يمنع من دخول كل جديد ، من العلوم المفيدة والتنظيمات الصالحة ، والوسائل البريئة وطرق ترفيه الشعب ، وتقوية البلاد عسكرياً وصناعياً وتموينياً .

وتستطيع أن تقدّر إلى حد ما حالة اليمن ، ومشاريعها التقدمية ونظمها الادارية الداخلية وعلاقاتها الدولية ، وسيرها في مضمار الحياة الراقية الحديثة إلى عام ١٩٥٥ م ، من المعلومات التالية التي التقطها المشرف على ركن الشؤون العربية في مجلة « روز اليوسف » الاسبوعية المصرية « الاستاذ ممدوح رضا » في مقابلة صحفية مع نائب وزير خارجية اليمن السيد محمد عبدالله العمري ، ونشرتها الصحيفة في عددها الصادر في ٧ من فبراير (شباط) سنة ١٩٥٥ م محادثة جرت بينهما ، ونصل منها إلى حقائق تالية :

لم يجر في اليمن إحصاء عام منظم إلى عام ١٩٥٥ م وكانت وسائل الدخل مقصورة على الضرائب والجمرك ، وكانت الزراعة وحدها وسيلة العيش والحياة لسكانها ، للريّ طريقان اثنان فحسب : الأمطار والآبار ، وكانت ميزانية البلاد السنوية خمسة عشر مليون ، وكان رصيد البلاد وثروة الإمام الخاصة لا تتجاوز ٨٠ مليون جنيه .

ولم تكن في البلاد شوارع عامة ، وفتح شارع طويل يمتد ١٢٠ كم بين البلدين « مخا » و « تعز » قبل زمن يسير ، ولم يكن تاماً مبلطاً إلى سنة ١٩٥٥ م .

---

(١) Times of India, 28 July 1963

وكان ستمائة كتّاب في البلاد ، وكانت مدارس ابتدائية في جميع المدن ماعدا هذه الكتاتيب، والمدارس الثانوية في تعز ومخا والحُديدة ، وكانت للجيش أنواع ثلاثة ، والعسكر الذي كان يؤدي خدماته يتكون من ستة ضباط ، والعسكر الثاني الذي ترك بعد التدريب للاحتياط والأعمال العرفية ، كان يتكون من ١٤ ضابطاً، وكان عشرون ألف جندي من القبائل المختلفة، والحيوانات هي وسيلة المواصلات ، وكانت بعض السيارات الخاصة في البلاد ولم تكن أية طائرة عسكرية ، وكانت إحدى عشر طائرة فحسب ، بينها ثلاث طائرات من قسم « داكوتا » ولم يكن فندق ولا مطعم في البلاد ، ولا معمل ولا الشرطة ، وقد اتفقت الحكومة مع بعض الشركات الاوربية للتنقيب عن الفحم والبترول والزيت » .

إن هذا الانحطاط والتخلف للبلاد وظروف الدنيا المحيطة بها ونهضة البلدان المجاورة لها اضطرت الحكومة إلى أن تأخذ ببعض أسباب الرقي والتطوير والإصلاح ، وكان لذلك سبيل واحد هو المساعدات من البلاد الراقية ، فاتفقت حكومة اليمن مع الاتحاد السوفيتي وجمهورية الصين الشعبية بمعاهدات مختلفة ، ومنحت تلك الدول حكومة اليمن قروضاً ضخمة ، تولت مسؤوليات بعض المشاريع الإنمائية الخطيرة ، ولذلك قبلت الصين عام ١٩٥٨ م على إثر معاهدة أن تدفع لليمن سبعين مليوناً من الفرنك السويسري، بدون الربا والمنافع، وتنفق في المشاريع التالية :

١ – فتح شارع بمسافة ٥٠٠ كم ، يصل الحُديدة بصنعاء .
٢ – تأسيس معمل للسكر . ٣ – معمل للأسماك المجففة .
٤ – تأسيس معمل للأقمشة . ٥ – تأسيس معمل للزجاج [١] .

---

(١) اليمن – للاستاذ امين سعيد ص ٢٨١ .

لم يكن مصير هـــذا التخلف والبعد عن الركب النشيط المتحرك السائر (الذى لم يكن مؤسساً على المشروع والتخطيط المحكم ولا منبعثاً من الثقـــة والعاطفة الدينية ، ولكن من الكسل والفتور والجهل الذي خيم على هذه البلاد المنجبة الغنية زمناً طويلاً) إلا أن يفتح هذا الباب المغلق على مصراعيه بفعل العواصف والتيارات الجارفة ، فلا يميز بين الصالح والطالح والحابل والنابل وبين القشور واللباب ، ويجرف تيار الحضارة الحديثة والنظم الجديدة بمحاسن النظام القديم والأفكار الصالحـــة والقيم السليمة ، ويصاب اليمن (الذي كان يسمّى « اليمن الميمون » وشهد بقوة إيمان أهلها ، وحكمتهم الدينيـــة ، اللسان النبوي الصادق بكلمات يغبط عليها اليمن كل قطر وكل بلد إسلامي ، فقـــال في مناسبة قدوم وفد من اليمن : « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية »[1]) يصاب هذا البلد العريق في الإيمان والحكمة والعلوم الدينيـــة ، بالاضطراب الفكري والخلقي والسياسي ، ويصبح ضحية الاشتراكية ، والحروب الطاحنة والثورات المتوالية[2] .

وقد أبدى مؤلف هذا الكتاب قبل أن تحدث هذه الثورة في أوضاع اليمن بإحدى عشرة سنة تخوّفه وإشفاقه من هذا المصير الذي سار إليه اليمن أخيراً ، في حديث جرى بينه وبـــين سيادة القاضي محمد عبد الله العمري وكيل وزارة الخارجية اليمنية ، وذكر له الطريق المتزن المتوسط الذي يجب أن يسلكه اليمن

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) ويخوض اليمن الآن معركة مصيرية من أشد المعارك غموضاً وقسوة في هـــذا العصر ، وفقدت فيها نحو نصف مليون نسمة ، كلهم مسلمون وكلهم عرب ، وقد تحكم في هذا الشعب الوادع البريء ، المفصول عن العالم جشع القيادة ، وأنانية الزعامة الفرعونية حتى أصبح كرة قدم بين اللاعبين ، ولحماً على وضم بين الجزارين ، وإذا أسفرت هذه المعركة عن انتصار الشيوعية في هذه البقعة ، فستفقد البلاد كل شيء ، ويكون الأ ر كما كان في بعض الأقطار الشرقية (لا دين . لا كرامة .. لا حرية .. لا خبز) وبعبارة وجيزة مركّزة « لا دنيا ولا دين » .

في الاقتباس من الحضارة الغربية ، الذي يستطيع وحده أن ينقذ البلاد من التطرف المتهور الذي وقعت فيه الأقطار الإسلامية الأخرى، وكان هذا الحديث في فندق « قصر الجزيرة » في القاهرة، وهنا ننقل قطعة من كتاب « مذكرات سائح في الشرق العربي » للمؤلف :

يقول الكاتب في مذكرة يوم الثلاثاء ٧٠/٥/٧ هـ ٥١/٢/١٣ م بعد ما يذكر لقاء لسعادة وكيل وزارة الخارجية اليمنية وما جرى بينهما من تحية واحتفاء وحديث تمهيدي :

« قلت لسعادته : إن الأقطار العربية قد أصبحت لا تملك من أمرها شيئاً فهي مندفعة مع التيار الغربي وليس لها الخيار ، أما اليمن فلا يزال على اختياره ولا يزال يملك أمره، فأرجو أن لا يستعجل ولا يتهور في الاقتطاف من الحضارة الغربية ونظم تعليمها ومنهج حياتها ولا يتساقط عليها تساقط الظمآن على الماء ، أو الفراش على النور ، فيختار منها ما يوافق حياته ودينه وطبعه ورسالته ، ويدع فضولها وشرورها ، وقد عاش اليمن في العزلة عن العالم وهو يعتقد أنه تخلف عن الركب ، فأخاف أن يستعجل السير ليلحق بالقافلة فيعثر أو يضل الطريق ، ويقع ما لا يمكن تداركه ولا تقال عثرته .

قلت : ودعامة الحياة الصحيحة عندي في البلاد الإسلامية وجود الشعور الديني الصحيح القوي في الشعوب ، ولا يكون هذا إلاّ عن طريق الدعوة العامة والاتصال بالشعب وتربيته الدينية ، وإيجاد الوعي في طبقاته .

والدعامة الثانية : منهاج التعليم الصحيح ، والجمع بين العلم المأخوذ من الوحي والنبوة الذي لا يتطرق إليه الخطأ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو علم كل عصر وأساس كل حياة ومدنية فاضلة ، وبين العلوم الطبيعية والمعلومات العصرية ، والتجارب والاكتشافات التي سبق إليها الغرب وانتصر

بها على الشرق .

وأرجو أن يوفق اليمن للجمع بين هاتين القوتين ، وإذن نرجو أن يكون له شأن غير شأن الأقطار العربية الأخرى التي أصبحت لا إسلامية ولا أوربية (١) » .

وقد أبدى مثل هذه الانطباعات مؤلف غربي W. Erichbethmann في كتابه « اليمن على العتبة » (Yeman on the threshold) وقد زار هذا المؤلف اليمن في عام ١٩٥٩ م في عهد الإمام أحمد عندما كانت أبوابها مغلقة للنهضات الجديدة ، وقد أعرب هذا المؤلف عن فرحه وتخوفه بالكلمة التالية :

« – إن الناس هنا يبدون فرحين مستبشرين رغم أنهم لا يملكون كثيراً من مرافق الحياة ووسائل الترفيه ، ولا يحنّون إليها كذلك ، وقد حاول المرحوم الإمام يحيى والإمام أحمد الحالي (٢) أن يظل الباب مغلقاً لكل جديد مع شعورهما بأن تيارات العصر الحاضر الجارفة ستحدث في حياة اليمن – التي اعتادتها – كثيراً من التطوير الذي يأتي بنتائج خطرة ، ونجحا فيه إلى حد كبير ، ولكن يُشك في أن تبقى هذه الأوضاع إلى مدة طويلة .

إن العصر الحديث يقرع أبواب اليمن ، وقد دخلت الطائرات والسيارات ، والهاتف والإذاعة والأضواء الكهربائية في البلاد ، وستصلها الأشياء الأخرى على إثرها وسيحدث هذا الاصطدام تبلبلاً عظيماً وستدخل مرحلة انتقالية ، ولا ندري أن هذه المرحلة ستمر بدون اضطراب ، أم تنشىء في البلاد الفوضى والقلق ؟ يعتمد ذلك إلى حد كبير على السبيل التي يختارها ، والخطوة التي يخطوها

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي ٧٠ و ٧٢ .

(٢) قد توفي أيضاً رحمه الله .

اليمن لتأليف حكومة على طراز جديد ، تكون مؤسسة على التنظيم الاقتصادي العصري ! يجب أن تقطع هذه المرحلة الانتقالية تدريجياً ، وتحتاج إلى حكمة بليغة وبصيرة نافذة ، وأن تكون الخطوات البدائية متزنة والطرق التي تتخذ لتقدم البلاد سليمة مستقيمة [١] » .

وبعدما ذكر المؤلف المشاريع والنظم والتطورات الجديدة الرئيسية الهامة التي يتخذها لتدعيم البلاد ، ويتحدث عن الخبراء الفنيين الذين يستطيعون أن يقدموا لبناء البلاد القويم المحكم وترقيتها اقتراحات صحيحة مخلصة ، يدعو إلى الانسجام السليم بين المادية والروحية ونهضة البلاد المقتصدة ، الذي كان متوقعاً من مفكر مسلم شرقي أكثر من عالم غربي ، فيقول :

« – لا ريب ان اليمن سيحاول للرفاهة والسعادة في نطاق الاقتصاد محاولة جادة ، ولكن يجب أن يكون ذلك مع المحافظة على التراث الديني والروحي القيم ، ولا يستطيع الرقي المادي وحده أن يداوي الأمراض الإنسانية ، وأن يمنح الإنسان السرور والطمأنينة بسرعة ، تجرب ذلك البلاد التي وصلت إلى القمة في الرقي والنهضة كل يوم بكل أسف وحزن ، وحينما يحافظ على القيم الإنسانية الأساسية ويحتل التراث الديني والروحي مكانة مرموقة في ضمائر الأفراد (الذين تتألف منهم الأمة) يصبح الرقي المادي نعمة كبرى ، وتثري كل ناحية من نواحي الحياة .

إن اليمن يصبح « جنة عدن » لبلاد العرب التي يعيش فيها الناس بكل طمأنينة وهدوء إذا احتفظ بحكمته البليغة وبتراثه الروحي الثمين واقتناء قدر

---

(١) Yeman on the threshold p. 71

من الرقي المادي الذي يحتاج إليه وينسجم مع حياته وظروفه ، ويستطيع أن يساهم اليمن بهذا الانسجام الحسن بين الحكمة والنهضة مساهمة مقتصدة ليس في ترقية العالم الإسلامي فحسب ، بل في ترقية العالم كله على الجملة [١] » .

ولقد كان الوعي الإسلامي كافياً وكافلاً لإصلاح هذه الأوضاع ولكنه كان ضعيفاً أو مغلوباً على أمره ، حتى جاءت هذه الحضارة المادية الثائرة تنادي في شيء كثير من الغلو والإسراف بالحرية والمساواة ، وتدعو إلى قلب الأوضاع القديمة مهما كانت ، فتفشى القلق والتذمر في هذا المجتمع، وقوي الشعور وتضخم بفساد هذه الأوضاع وعدم صلاحيتها للبقاء، وجاشت النفوس بالكراهة والثورة على الأوضاع القائمة مهما كانت عاقبتها ، وهذا سر ظهور الثورات العسكرية في الأقطار الإسلامية ثورة بعد ثورة وحكم عسكري على أثر حكم عسكري آخر .

سبب حدوث الثورات في العالم الاسلامي وعلاجه :

ولعل العالم الإسلامي كان أكثر استعداداً وتهيؤاً لهذه الثورات لوجود الوعي الديني ، الذي يبعث على القلق والإنكار في هذه البلاد أكثر من عالم آخر أو مجتمع آخر ، أو لفساد الأوضاع فيه أكثر من أي ناحية ، وما دام التخلف في الحياة والقوة ، وما دام الفقر المدقع في بعض الطبقات الذي لا يجد معه صاحبه ما يقيم الصلب ويكسو العورة ، ويمسك الرمق ، وما دام الثراء الفاحش ، والاكتناز المجرم ، والعبث بالأموال إلى حد السفاهة والجنون ، وما دام الترف

---

(١) Yeman on the threshold p. 74

والفجور والاستهتار في طبقات الأمراء والأغنياء تروى قصصه المضحكة المبكية في كل ناد وكل صحيفة ، وما دام الجهل ضارباً أطنابه على الشعب ، وما دام العلماء وزعماء الدين يتقاصرون عن أداء واجبهم الديني ، وإزجاء كلمة الحق أمام الأقوياء والأغنياء ، ويتنافسون في المناصب والوظائف، ويتصارعون على التافه من الخلافيات ، والخسيس من المادة ، وحكاياتهم تروى وتتناقل ، وما دامت التربية الدينية والأمثلة العملية — في الورع والزهادة وسمو النفس والشجاعة الدينية — مفقودة أو نادرة في حكم المعدوم ، وما دامت الدعايات والدعوات تتسرب إلى المجتمع وتجد مرتعاً خصباً في النفوس ، وأدلة ومؤيدات في الأوضاع، وما دام هذا الوضع غير الطبيعي وغير الإسلامي سائداً في هذه الأقطار الإسلامية .

وكان وضع كثير من الأقطار الإسلامية كما صوّره شاعر تركيا الإسلامي الكبير محمد عاكف في إحدى قصائده وهو قوله :

« ـ يسألني الناس : إنك كنت في الشرق مدة طويلة ، فما الذى شهدت يا ترى ! وماذا عسى أن يكون جوابي ؟ إنني أقول لهم :

إنني رأيت الشرق من أقصاه إلى أقصاه ، فما رأيت إلاّ قرى مقفرة ، وشعوباً لا راعي لها ، وجسوراً متهدمة ، وأنهاراً معطلة ، وشوارع موحشة ، إنما رأيت وجوهاً هزيلة متجعدة ، وظهوراً منحنية ، ورؤوساً فارغة ، وقلوباً جامدة ، وعقولاً منحرفة ، رأيت الظلم والعبودية ، والبؤس والشقاء ، والرياء والفواحش المنكرة المكروهة ، والأمراض الفاشية الكثيرة ، والغابات المحرقة، والمواقد المنطفئة الباردة ، والحقول السبخة القاحلة ، والصور القذرة ، والأيادي المعطلة ، والأرجل المشلولة،رأيت أئمة لا تابع لهم ورأيت أخاً يعادي

أخاه ، ورأيت نهاراً لا غاية له ولا هدف، ورأيت ليالي حالكة طويلة لا يعقبها صباح مسفر ونهار مشرق » .

فإنها مهددة ـ لا محالة ـ بالفوضى الخلقية والسياسية ، معرضة للثورات العسكرية أو الشعبية ، واقفة على فوهة بركان ، متهيىء للانفجار في أي وقت كان .

ولا يمنع من ذلك سلطة قوية أو عقاب صارم ، أو محاسبة دقيقة ، أو مراقبة تحاسب الناس على الأنفاس ، وتتبع الخواطر والهواجس ، ولا دعايات صحفية أو إذاعية ، ولا بذل أموال طائلة على أصحاب الأغراض والمطامع ، ولا مآدب سخية في السفارات ، ولا مشروعات ترضي أصحاب العاطفة الدينية . إنما سبيله مواجهة الحقائق بشجاعة وعلم ، وإصلاح الأوضاع بإخلاص وصدق ، وإزالة ما يجب إزالته من الفساد . وتحقيق ما يجب تحقيقه من المطالب . وتحقيق العدالة الاجتماعية كما أمر بها الإسلام وثبت في صريح القرآن وصحيح السنة . والسعي الحثيث لرخاء الشعب . وان يجد كل فرد من أفراد الشعب ـ بقدر الإمكان ـ قوته ومنع البذخ الذي يحول بين الشعب وقوته و « حاجياته » . وأن يسبك نظام المعارف سبكاً جديداً يتفق مع عقيدة هذه البلاد ورسالتها . ومع تطور العصر الحديث وعلومه الجديدة . ويخلق في الجيل الجديد الإيمان والخلق والاستقامة والثقة بالنفس . والاعتزاز بالدين والحماسة في سبيله . ويخلق فيه روح الابتكار والاستقلال الفكري . والعصامية ومواجهة الغرب بشجاعة وذكاء . وإعادة الروح الدينية والإيمان القوي . والشعور الخلقي والوعي الإسلامي في الشعب . وإزالة القلق والتذمر بإزالة أسبابها ودواعيها . وبإصلاح الأوضاع والسير والاقتباس من الغرب ما يصلح لشعب إسلامي . ويتفق مع عقيدته

السمحة . وما له قيمة عملية إيجابية . وما يقوي الشعب وينفعه في كفاح الحياة والمجد والدعوة إلى الله .

هذا هو السبيل الوحيد لإقرار الأمن والسلام في هذه المناطق الشرقية الإسلامية . وبقاء هذه الشعوب على إسلاميتها وعقيدتها وسيرتها الدينيـــة . وبعبارة علمية مركزة « إن العالم الإسلامي وأقطاره في حاجة إلى بناء مجتمع إسلامي تقدمي عادل تستطيع فيه الطريقة الاسلامية في الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً وثقافياً [١] » .

---

(١) استفدنا في هذا التعبير من بعض ما جـــاء في كتاب « الطريق إلى مكة » للأستاذ محمد أسد ص ٢٢٠ .

الموقف الثاني

حركة التغريب و«التقدمية» في العالم الإسلامي

أنصارها ومنتقدوها

الموقف الثاني موقف الاستسلام والتقليد :

والموقف الثاني ، موقف الإستسلام والخضوع الكامل ، موقف المقلد ، المؤمن المتحمس ، والتلميذ البار الصغير الذي لم يبلغ بعد سن التمييز ، وهو أن يقبل العالم الإسلامي ـ أو جزء منه ـ هـــذه الحضارة ـ المادية الآلية ذات الطبيعة الخاصة بجذافيرها ، يقبلها بعقائدها الأساسية ، ومناهجها الفكرية ، وفلسفاتها المادية ، ونظمها الاقتصادية والسياسية ، التي نشأت واختمرت في بيئة بعيدة عن بيئة هذه الأقطار تحت ضغط عوامل وحوادث خاصة ، وبتوجيهها ، ويحاول تطبيقها في هذا البلد الإسلامي برمتهـــا ، ويتحمل في سبيل ذلك كل صعوبة وعنت ، ويدفع له أعظم ثمن ، وأبهظ قيمة .

حركة « التغريب » في تركيا ، وأسبابها :

وقد سبقت ـ إلى هذا الأسلوب من التفكير والمنهج من العمـــل ـ تركيا الإسلامية ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لعوامل كثيرة ، ورحلة طويلة ، فقـد حاربت أوربا مدة طويلة من غير أن تستعد لهذه الحرب، وتتسلح بسلاح عدوها العلمي والصناعي ، وفرّطت في اقتباس العلوم المفيـــدة من أوربا والصناعات والفنون الحربية والتنظيم الإداري تفريطاً مجرماً ، وأبدى العلماء وزعماء الدين ضعفاً وقصوراً في توجيه الأمة والبلاد توجيهاً علمياً وفكرياً ، وفي الاشراف على اتجاهاتها التي يفرضها الزمان والمكان ، وتغيّر الأحوال في العـالم كله ، وتقرير الصالح منها ، وتزييف الطالح، ووقفوا على ما وقف عليه العلم والمعرفة والتفكير في القرن الثامن عشر ، وفوق كل ذلك فقد استغلّ السلاطين ـ إلاّ من عصم

ربك ـ اسم الدين واسم الخلافة لصيانة مصالحهم الخاصة ، وتحقيق رغباتهم ، وكانوا من أسباب تأخر البلاد ، والهزائم والانتكاسات التي تحققت بالأمـــة ، ومُمالأة الأعداء في أحيان .

إن هذه الجوانب وإن كانت شخصية أو فردية ولكنها لم تكن سراً مكتوماً وكانت تثير السخط والكراهـــة في نفوس الشباب والحريصين على سلامة البلاد ومجدها .

المرحلة الدقيقة العسيرة :

إن المحنة التي كانت تواجهها تركيا في أواخر القرن التاسع عشر مع أنهـــا كانت أول تجربة لبلد إسلامي من نوعها ، وكان قـد مر المجتمع الاسلامي من قبل بنوعين من التجارب :

كانت التجربة الأولى التي مرّ بها المجتمع الاسلامي في القرنين الأول والثاني، هي أن المجتمع الاسلامي كان قوياً فتياً دافقاً بالحيوية وصلاحية التقدم ، وكانت ترافقه حركة لا تزال في سبيل الغزو والانتصار ، وكانت بإزائه الحضارتان القديمتان العظيمتان ، إحداهما: الحضارة الرومية واليونانية في الغرب ، والثانية: الحضارة الايرانية في الشرق ـ وكانت الحضارتان غنيتين في العلوم والصناعات والثقافة والأدب والنظم الفلسفية ، وفي أرقى أساليب المدنيـــة والاجتماع ، والمجتمع الاسلامي الذي كان بعيداً عن كل نوع من أنواع « مركب النقص » وحافلاً بالثقة والاعتداد بالنفس ، اقتطف من هذه الذخائر ما يلائمه ، وينسجم مع طبيعته ويفي بحاجته ، بدون أن يصاب بالرق الفكري والدهشة والخضوع الزائد ، أخذ جمـع ما يناسبه ويجدر به ، والذي رآه غير جدير به صاغه في قالبه أولاً ثم وضعه في مكانه ، ولم يجن هذا الاقتطاف المحدود والتلقي على روح ذلك المجتمع ونزعاته الخلقية لاستقلاله وسيادته .

والتجربة الثانية هي التي مرّ بها هذا المجتمع الاسلامي في القرن السابع عندما استولى التتار على قلب العالم الإسلامي ومركزه، وأصبح المسلمون خاضعين لهم ومفتوحين سياسياً ، وواجه المجتمع الإسلامي في ذلك الحين فاتحاً كان فقيراً قليل البضاعة في الحضارة والمدنية والعلم والصناعة والقانون والتشريع . لم تكن لديه حضارة ولا فلسفة للحياة . وكان من الناحية المدنيـة والاجتماعية والرقي الفكري في حالة بدائية شأن الأمم الوحشية وسكان الصحارى . لذلك لم يكن هناك أيّ معنى للخضوع والتلمذة وانصهار المجتمع الإسلامي المفتوح في حضارة الفاتح ومدنيته وفلسفة حياته وأفكاره وقيمه ، بالعكس من ذلك بدأت الأمة الفاتحة تتأثّر يوماً فيوماً بالأمة المفتوحة . تتأثّر شيئاً فشيئاً بحضارتها ومدنيتها وعلومها وصناعتهاوطرق حياتها الراقية وآدابها الجميلة الواسعة وعقائدها الدينية السامية وأفكارها النبيلة . وأخيراً اعتنقت تماماً دين الأمة المفتوحة وحضارتها. وصارت بعد أن اصطبغت بصبغتها حامية للإسلام ورفعت رايته بحماسة وتفان.

ولكن الوضع الذي واجهه الأتراك العثمانيون في أواسط القرن التاسع عشر كان يختلف عن التجربتين السابقتين ، إنهم وإن كانوا يحكمون مملكة حرة واسعة الارجاء ، ولكنهم فقدوا ــ إلى حد ــ روح الثقة بالنفس وعرفان الذات ، بمر العصور وكر الليالي والدهور، لم يكن فيهم حماس القرون الأولى ولا قوة الإيمان واليقين ، وإزاء ذلك كانت الحضارة الغربية فائضة بالروح الجديدة والطاقـــات الجديدة وممتلئة بالحماس الجديد والآمال الجديدة ، كانت قد حملت معهـا ثورة صناعية وعلمية وفكرية كانت تتوسع آفاقها ونطاقها يوماً فيوماً ، ولم يكن يستطيع الأتراك أن يغمضوا أعينهم عنهاوكان مركز حكومتهم في قلب أوروبا، ولم يكن لهم سابق لمثل هذه التجربة في التاريخ الاسلامي الماضي ، ولا يجدون توجيهاً للتغلب على هذه المشكلة من تجارب الأمة الماضية وتاريخها الطويل ، فإن الوضع الذي كانوا يواجهونه كان بدعاً وكان وليد ظروف وعوامل خاصة وزمن خاص ، ولا يساعدهم في ذلك العالم الاسلامي المعاصر الذي لم يجرب هذه المحنة

من قبل ، وكانت أنظار قادته متجهة إلى تركيا ، كيف تخرج من هذه المحنة وكيف تتغلب على هذه المشكلة وأي طريق تختاره ؟

وكان الخروج من هذه المرحلة الدقيقة بنجاح يحتاج إلى ذكاء وقاد ومعرفة صحيحة عميقة للإسلام والحضارة الغربية في وقت واحد ، وشجاعة أدبية وبطولة ، وكان ذلك عملاً عملاقاً في الواقع ، وكان لا بد لتركيا أن تعمله وكان العالم الإسلامي كله على استعداد تام لاتباعها والسير في ركابها ، وكان يرتبط به مستقبل العالم الإسلامي الحضاري والفكري ، الديني والسياسي، إلى حد كبير، ولم يكن ذلك يقبل أي تأجيل أو إهمال ، ولا يمكن أن تمر به تركيا مراً خاطفاً سريعاً .

الطائفتان القديمة والجديدة :

وكانت هذه المهمة الدقيقة إما تنوء بها الطائفة القديمة أو الطائفة الجديدة ، فقد كانت تركيا موزعة بين هاتين الطائفتين وهما اللتان تتوزعان القيادة والمسؤولية ، أما الطائفة القديمة فقد كانت مؤلفة من العلماء القدامى ، الذين لا يعرفون مع الأسف المقتضيات الجديدة والتطورات الحديثة إلى حد كبير ، ولم تكن تعرف خطورة الموقف وضخامة الخطر الذي نشأ لتركيا بتأثير القوة الناهضة من أوروبا ، وكانت هذه الطائفة قد عارضت التنظيمات العسكرية والاصلاحات الجديدة التي قام بها السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧م) وخليفته السلطان محمود (١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) لتؤهل تركيا لمجاراة الشعوب الاوروبية عسكرياً وعلمياً ولمسايرة العصر الحديث .

أما الجيل الجديد ، الذي كان قد تلقى ثقافته في عواصم أوروبا أو في بعض الكليات العصرية في تركيا ، فقد نشأ على الاستهانة بقيمة الدين واليأس من مستقبله ، وكراهة رجاله واحتقارهم ، وعلى تقديس الحضارة الغربية ، وفقد

في هذا الجيل العقل النابغ المتعمق الذي يقدر على نقد فلسفة الحياة الغربيـــة ومعرفة جوانب الضعف فيها ، وجوانب الافراط والتطرف ، ومعرفة ما يصلح لتركيا الزعيمة للعالم الاسلامي اقتباسه والافادة منه ، وما لا يصلح ولا يتفق مع طبيعتها وتاريخها ومكانتها في العالم ومركزها في الشرق الاسلامي ، وأكثرهم من نوع « العسكريين » والمعلمين الذين لم تكن ثقافتهم واسعة ولا عميقـــة ولا حرة [١] أو الذين انتهت بهم تجارب حياتهم الخاصة ، وما لقوا من العلمـــاء و « المحافظين » من تثبيط أو عدم تشجيع ، وما جرّبوه فيهم من جمود وضيق تفكير ، وما رأوه في الجيل المسلم القديم ، وزعمائه من النفـاق ، يقولون ما لا يفعلون ، وينهون عن شيء ويأتونه ، أو ما شاهدوه في البلاد من تأخر وضعف انتهى بهم كل ذلك إلى الثورة على كل قديم ، وعلى كل موجود ، وإلى التصميم على « تغريب » تركيا .

ضياء كوك ألب وفلسفته :

ضياء كوك ألب ولد في ديار بكر بعام ١٨٧٥ م أو ١٨٧٦ م وكانت أسرته مرتبطة بوظائف رسمية رفيعة ، التحق بالمدرسة الثانوية لديار بكر بعد أن تخرج من المدرسة الثانوية العسكرية ، وكان له ولع خاص وشغف زائد بالأدب

---

(١) تقول الفاضلة خالدة أديب خانم في كتابها « الصراع في تركيا بين الغرب والشرق » : كان أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الشبان من صغار الموظفين الرسميين ، أو ضباطاً في الجيش ، ولم يكن فيهم في أول الأمر فرد واحد ، حائزاً على مكانة علمية سامية ، ويفهم الفرق بين العصر القديم والعصر الحديث في ضوء التحليل والنقد العلمي . ولكن هؤلاء الشباب كانوا أقرب إلى الشعب وكانوا انتاجاً وطنياً خالصاً ، وكان معظمهم من أهل مقدونية الذين اشتهروا بحب الواقعية والقسوة ، ولا يتحاشون عن شيء في سبيل الوصول إلى غـــايتهم . لذلك رغم أنهم كانوا يهدفون إلى غاية نبيلة ، فقدكانوا يستخدمون جميع الوسائل للوصول إلى غرضهم من غير احتشام وتورع .

Conflict between East anb West in Turkey P 78 - 79 .

والرياضيات ، وكان على معرفة جيدة بالتاريخ ، وتلقـّى في المدرسة نفسها اللغة الفرنسية والعلوم الشرقية ودرس بإشراف عمه الفاضل وتعاونه مفكري الاسلام: الغزالي والرومي وابن عربي وابن رشد وابن سينا والفارابي وغيرهم ، وقد أُعجب بكتاب « المنقذ من الضلال » للإمام الغزالي لأنه أيضاً كان يعاني صراعاً فكرياً ، وكانت الأفكار التي قامت عليها الثورة الفرنسية تسيطر على كثير من الشباب المثقف وتحرك ساكنهم ، وكان مدير المعهد الذي يدرس فيه ضياء يحمل أفكاراً حرة ويحب الحرية الفكرية والعملية ، وكانت ديار بكر في ذلك الحين مركز جماعة من الزعماء ومحبي الحرية الأتراك الذين نفوا عن البلاد ، وارتبط معهـا ضياء بوشائج وثيقـة متينة ، وهناك قرأ ضياء مقالات لنامق كمال وضياء باشا وأحمد مدحت أفندي وغيرهم وازداد ارتباطه بالحركة السرية بعد قدوم عبدالله جودت ، وكان دكتوراً كردياً ملحداً ، وكان معجباً بهيجل (Haeckel) وبشنر (Buchner) واسبنسر (Spencer) ولي بون (Le Bon) إعجاباً كبيراً ، وقد حدث لديه في ذلك الزمن صراع العقيدة والعقلية بتأثير من أستاذ يوناني وأراد أن يطمئن ويخفف من قلقه بالفلسفة والتصوف الاسلامي ولكنه كما يقول : لم ينجح فيه ، ووقع في ارتياب وشك (Agnosticism) سافر في سنة ١٨٩٦م الى قسطنطينية ، ولم يجد منحة إلا في كلية البيطرة (Veterinory College) ولكنه كان يشتغل بالسياسة أكثر من الثقافة والتعليم ، لذلك انتخب عضواً لجمعية الاتحاد والترقي التي كانت تعمل في السر كالماسونية ، وقد أُقصي من المدرسة لبعض مقالاته الثورية وأُلقي القبض عليه ، وفرضت عليه إقامـة جبرية في ديار بكر بعد إطلاق سراحه ، ودرس في هذه المدة دراسة عميقة ، وكان له شغف وعناية خاصة بالفلسفة الغربية والفرنسية خاصة وعلم النفس وعلوم العمران ، وأصبح بسرعة شخصية قوية رئيسية لجماعـة أحرار ديار بكر ومحبي الانطلاق والحرية ، وثارت هذه الجماعة في عام ١٩٠٦ م ضد النظام الجائر والسلطـات الإدارية يقودها ضياء ، وبعد أن خُلع السلطان عبد الحميد خان في عام ١٩٠٩ م وجد ضياء وزملاؤه فرصة سانحة للعمل ، وأصدر جريدتين « بيام » و « Decle ».

وعندما آثر ضياء سالونيكا بالإقامة المستقلة ، صار زعيماً وطنياً لتركيا ووجد هنا في ثغور تركيا الغربيـة فرصة اللقاء والتودد إلى المتنورين الأتراك ، والأفاضل الغربيين ، وترعرعت فيه فكرة الوحدة والتنظيم على أساس القومية التركية التي لم يكن الإسلام فيها عنصراً أساسياً (Factor) وقد انفصلت عن الحكومة التركية بعض الأقطار الإسلامية (ألبانية في عام ١٩١٢م والحجاز بعام ١٩١٦ م على أثر حرب البلقان ١٩١٢م . وظهر بذلك أن الحركة القوميـة والطورانية هي أقرب إلى الواقعية والعملية وكسبت أنصاراً أكثر ، وقـد قوي وتوسع نطاق التأثير الفكري لكوك ألب في الجيل التركي الجديد عندمـا عيّن الأستاذ الأول لعـلم الاجتماع بجامعة استانبول عام ١٩١٥ م (وذلك بمواهبه الشخصية وكتابته مقالات بلا شهـادة عالية أو تخرج في جامعة) وقد اضطر عام ١٩١٨ م كالزعماء الوطنيين الأتراك إلى أن يغادر استنبول ، ولمـا انتصر مصطفى كمال في عام ١٩٢١ م على اليونان أُفرج عنه ، وعُيِّن بسنة ١٩٢٢ م رئيساً للجنة التأليف والترجمة ، وكان يؤيد مصطفى كمال بقوة وحماس ، وقد لعب دوراً كبيراً في المعركة الانتخابية ، مع أن الأواصر الشخصية بينهما لم تكن عميقة قط ، ولما انتخب البرلمان في سنة ١٩٢٢ م كان نائب ديار بكر ، وقد مرض بعام ١٩٢٤ م ، وأراد كمال أتاتورك أن يتكفل جميع تكاليف علاجه في أوروبا ، ولكن كوك ألب اعتذر عن ذلك وطلب العنـاية بأسرته والعطف عليها ، وتهيئة وسائل لنشر كتابه عن الحضارة التركية ، وقـد توفي ضياء في ٢٥ من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ م في الثـامنة والاربعين أو التاسعة والاربعين من عمره ودفن بمقبرة السلطان محمود [١] .

إن ضياء كوك ألب دعا بكل قوة وصراحة إلى سلخ تركيا من ماضيهـا القريب ، وتكوينها تكويناً غربياً قومياً خالصاً ، وإيثار الحضارة الغربية على

---

(١) استفيد من كتاب: Fondations of Turkish Nationalism
لمؤلفه : (Heyd U.) .

أساس أنها امتداد للحضارة القديمة التي ساهم الاتراك – على زعمه – في تكوينها وحراستها ، يقول في مقالة له :

« إن الحضارة الغربية امتداد لحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط القديمة ، وكان مؤسسو هذه الحضارة – التي نسميها بحضارة البحر الابيض المتوسط – من الاتراك ، مثل السومريين ، والفينيقيين ، والرعاة ، لقد كان في التاريخ عصر طوراني قبل العصور القديمة ، لأن سكان آسيا الوسطى القدامى كانوا أجدادنا ، وفي زمن متأخر جداً رقى الاتراك المسلمون هذه الحضارة ونقلوها إلى الاوروبيين. وبتحطيم الامبراطوريتين الرومانيتين الغربية والشرقية ، أحدث الاتراك انقلاباً في تاريخ أوروبا . لذلك نحن جزء من الحضارة الغربية ولنا سهم فيها » (١) .

ويذكر موجبات اعتناق الحضارة الغربية وما يحدث ذلك من انقلاب . وما يفيض من قوة وروح جديدة ، ومركز في العالم . وأنه لا يستلزم الانسلاخ من الدين القويم . فيقول :

« حين تقطع أمة شأواً بعيداً في نشوئها ، ترى من الواجب أن تغير حضارتها أيضاً . لما كان الاتراك قبائل رحالة في آسيا الوسطى دانوا بحضارة الشرق الأقصى . ولما انتهوا إلى عصر « السلطنة » دخلوا في مساحة الحضارة البزنطية . والآن في طور انتقالهم إلى الحكومة الشعبية ، هم مصممون على قبول حضارة الغرب » (٢) .

« إن شعوباً تدين بديانات مختلفة يمكن أن تدين بحضارة واحدة . إن اليابانيين واليهود يشاركون الاوروبيين في حضارة واحدة » (٣) . وبعبارة

---

(١) Turkish Nationalism and western Civilisation P. 297

(٢) أيضاً : P. 261

(٣) أيضاً : P. 269 - 270

أخرى فالدين والحضارة عنده شيئان مختلفان . لذلك من المغالطة أن تسمى « حضارة إسلامية » كما لا يصح ان تسمى « حضارة مسيحية »، الدين محدود في العقيدة والطقوس التي لا صلة للفنون والعلوم بها، يقول:

« ليست هنالك مؤسسة مشتركة بين الأحزاب والجماعات التي ترتبط بالأديان المختلفة، فما كان الواقع أن الدين اسم لمجموعة من المؤسسات المقدسة والعقائد والتقاليد فحسب، فالمؤسسات التي لا تحمل قدساً وتمجيداً دينياً (كالافكار العلمية التطبيقية والأدوات الصناعية ومُثُل الجمال) تؤلف نظاماً مستقلاً يخرج عن نطاق الدين ، والعلوم الإيجابية كالرياضيات والعلوم الطبيعية وعلم الحياة وعلم النفس والاجتماع والطرق الصناعية والفنون الجميلة لا تمتّ بصلة الى الدين ، لذلك لا يصح أي ارتباط لحضارة بالدين ، ليست هناك حضارة مسيحية ولا حضارة إسلامية ، فكما أنه لا يصح أن تسمى الحضارة الغربية حضارة مسيحية هكذا بالضبط لا يصح أن تسمى الحضارة الشرقية حضارة إسلامية » [١] .

ويضرب لهذه الخطوة الثائرة مثلا لروسيا التي احتضنت الحضارة الغربية الراقية ، رغم خضوعها للكنيسة المسيحية المتصلبة المحافظة الأرثوذكسية ورغم تمسكها بحضارة من الطابع الشرقي ، واستطاعت أن تقف بجوار الشعوب الغربيه القوية الحُرة :

« لما حرر الغربيون أنفسهم من رواسب القرون الوسطى كان المسيحيون الخاضعون للكنيسة الارثوذكسية في روسيا لا يزالون عبيداً لها ، وقد عانى بطرس العظيم صعوبات شديدة في كفاحه لتحرير الشعب الروسي من سيطرة الحضارة البزنطية ، وتقديمه إلى الحضارة الغربية ، ولكي يعرف الإنسان ما هي

Turkish Nationalism and Western Civilisation · P, 271 . 272 (١)

الوسائل والأساليب التي يجب أن تستخدم لتغريب البلاد وطبعها بطابع الغرب يكفي أن يدرس تاريخ إصلاحات بطرس ، وكان الناس يعتقدون إلى ذلك الحين ان الروسيين لا يصلحون للتقدم ، ولكنهم بعد الثورة بدأوا يتقدمون بسرعة زائدة ، ويقطعون شوطاً بعيداً في ميدان النهضة ، وهذه الحقيقة التاريخية تكفي لإثبات أن الحضارة الغربية هي الشارع الوحيد إلى التقدم (١)».

ثم هو يقرر أنه لا بد للحرية والمحافظة على المجد القومي من امتلاك ناصية الحضارة الغربية والسيطرة عليها فيقول :

« علينا أن نختار إحدى الطريقين ، إما أن نقبل الحضارة الغربية أو نظل مستعبدين لقوى الغرب ، لا بد أن نختار أحد الأمرين ، يجب علينا أن نسيطر على الحضارة الغربية لندافع عن حريتنا واستقلالنا (٢) » .

يَحتلّ ضياء كوك الب مكانة خطيرة بين المؤسسين الفكريين لتركيا الجديدة ، إنه قدم الأساس الفكري والفكرة الجديدة التي تأسست عليها الدولة الجديدة والمجتمع الجديد من الناحية الفكرية والأساسية ، وقد ذكر ذلك الأستاذ نيازي بركس في مقدمة مجموعة مقالاته المختارة التي نشرها ، وقال إنه لا تزال تسيطر فكرته على أسس الإصلاحات الجديدة في تركيا ، هو يقول :

« ورغم أن ضياء كوك الب توفي في المرحلة البدائية لتطوير أتاتورك الثوري ، ولكن توجد في كتاباته أفكار تعتبر أسساً لتلك الإصلاحات وأن أفكاره في موضوع الاصلاح الاسلامي قد جنت عليها العلمانية المتطرفة في العهد الذي بدأ بعد وفاته . مع ذلك أعتقد أنه لو عاش لاستطاع أن يرضي نفسه بسياسة أتاتورك وموقفه لأن تصوراته عن الخلافة كانت تختلف عن نتائج فكرته القومية

---

(١) ص ٢٧٥ .
(٢) ص ٢٦٦ Turki

المنطقية ، وكان يتخيل القومية التركية كأساس دولي عالمي ويرى فيها عوضاً عن الخلافة الاسلامية ، ونحن نعلم أن نقاط العلمانيـة وحرية الارادة والضمير وحرية الفكر في الدستور كانت من تفكيره وقلمه ، لأن اللجنة التي ألفت في سنة ١٩٢٤ م لوضع الدستور الأساسي كان هو عضواً فيها ، ولعلته لم يستطع أن ينسجم مع السياسة الثورية للإصلاح المثالي التي اتخذها كمال أتاتورك ، ... ورغم أنه كان هنالك بعض انحراف عن أفكاره في العمل والتطبيق مع ذلـك لا تزال مبادئه تسيطر على النقاط الأساسية لإصلاحات تركيا الجديدة [١] » .

ويزيد المؤلف المذكور فيذكر أعمال ضياء كوك الب وأفكاره العلمية ويقرر أهميته كقائد مفكر ومؤسس مدرسة فكرية : —

« ومع أن دراساته عن الاجتماع والمدنية الشعبية والتاريخ ليست لها قيمة علمية كبيرة إذا قورنت بمؤلفات علماء تركيا الحاضرة وغيرها ولكنه لا يستهان بقيمته كزعيم لهذا الاتجاه ومؤسس هذه المدرسة ، ولو أن بعض مفاهيمه تسيت أو أغفلت في تركيا الجديدة أو أنها تعتبر اليوم تافهة ولا يلاحظ فيها ابتكار وطرافة ، مع أنها كانت تبدو في عصره جديدة ومبتكرة فذلك لأنها أصبحت الآن حقائق ، ويتجلى من ذلك عمق تأثيره وسعة أفقه ونظره [٢] » .

دور تركيا التقليدي :

إن قادة هذا الفكر والدعوة التي يتزعمها ضياء كوك الب ، كانوا يستحقون إعجاباً كبيراً من المؤرخين المنصفين ، ورجال الفكر الاحرار في العالم الإسلامي ، وإن تركيا كانت تحتل مركزاً خطيراً في خريطة العالم السياسية ، والثقافية ،

---

(١) - Berkes Niyozi Turkish Nationlism and Western Civil - ization (Cokalpziya) P. 13, 14

(٢) نفس المصدر ص ٣٠ و ٣١

والاجتماعية ، وقد تـُغير مجرى التاريخ إذا سيطرت على الحضارة الغربيـة ، وامتلكت ناصيتها، تقودها وتسير بها إلى غاية مرسومة، وتتصرف فيها تصرف القائد الحر ، الذي يملك إرادته ، والعالم المجتهد الذي يفكر بعقله ، وكانت القدوة الحسنة للشعوب الشرقية الإسلامية التي تعـاني الصراع المخيف ، بين الشرق والغرب ، وتواجه تحدي الحضارة الحديثة السافر ، وتنظر الى تركيا كزعيم وإمام ، وأول من اكتوى من الشعوب الاسلامية بنار هذا الصراع بين الغرب والشرق وواجه زحف الحضارة الغربية وفلسفة الحياة الحديثة .

ولكن ذلك — مع الأسف — لم يتحقق ، إن الذي تحقق هو تقليد تركيا للحضارة الغربية وتمسكها ببعض شعاراتها ومظاهرها السطحية ،والاصلاحات السطحية التي لا تقدم ولا تؤخر في حياة الشعوب والأمم والمجتمعات والمدنيات ، ولا صلة لها بالقوة الحقيقية والعظمة السياسية ، والتي فصلت تركيا عن ماضيها القريب،وعن التراث العلمي الفني الذي ساهمت في تكوينه الأجيال الكثيرة والعقول الكبيرة،وفصلت تركيا— زعيمة العالم الإسلامي بالأمس — عن العالم الاسلامي، وأحدثت فجوة عميقة بين رجال الحكم والتوجيه،وبين الشعب المسلم القوي،الفائض بالحب والإيمان والعاطفة الدينية ، الذي ملأ قلوب العالم مهابة وإجلالا لقوة هذه العاطفة وتدفقها ، واستطاع أن يقف في وجه أوربا وغاراتها الساحقـة ، ومؤامراتها الدقيقة المستمرة، التي لم تنقطع ولم تقف يوماً واحداً ، والتي لا قِبَل لأمة عادية بها ، رغم الضعف الشديد المستمر في الطبقة الحاكمة ، والخيانة في الضباط ، وأفقد الشعب النشاط والثقة والحماسة التي كانت من أبرز مزايا هذا الشعب المسلم الخالد ، وأحدثت اضطرابا في المجتمع وفتوراً في إجابة الدعوات التي تصدر من القيادة ومركز الحكم ، واحتاجت الحكومات المختلفة إلى كبت هذا الشعور وكبح هذه العاطفة ، وتحويل الأمة الى المادية والقومية والحضارة الغربية ، والانحصار في دائرة التفكير الضيقـة والمساحة المحدودة ، كل ذلك بعنف وقسوة لا نظير لها ، ذهب ضحيتها رجال كان فيهم الغناء الكبير للأمة ،

والخير الكثير للبلاد ، ولا يزال الصراع قائماً بين العقلية الحاكمة وعقلية الشعب المغلوب على أمره ، ولا تزال الشرارة – الإيمانية – كامنة في النفوس والقلب ، مستعدة للالتهاب بأدنى حركة وأضعف إشارة (١) .

إن دور الشعب التركي في اقتباس الحضارة الغربية كان دوراً تقليدياً يخلو من كل « أصالة » ومن كل ابتكار ، ومن كل عصامية ، ومن كل انتاج ، فلم تعمل شيئاً جدياً للسيطرة على هذه الحضارة التي انطلقت من الغرب المادي، السيطرة التي دعا اليها ، وحلم بها ، ضياء كوك الب ، في مقالته السابقة ، ولم تعمل شيئاً لامتلاك ناصيتها والتغلب على قيادتها ، إنما كان دورها دور الاستيراد ودور الاستعارة ودور التطبيق ، لا أقل ولا أكثر، ولم ينبغ فيها في هذه الفترة نابغة، في العلوم التطبيقية ، ولا عملاق في العلوم والآداب ، ولا مؤسس مدرسة جديدة من مدارس الفكر والفلسفة ، ولا من يمدّ هذه الحضارة بشيء أصيل له قيمته العلمية ، ولذلك بقيت شعباً متوسطاً يعيش على حاشية الشعوب الأوربية ، ولم يكن هذا قيمة ما ضحى به هذا الشعب من السطوة السياسية والحماسة الدينية ، والدوافع الخلقية ، والزعامة في العالم الاسلامي .

نامق كمال :

ولد نامق كمال في (Rhobosto) في عام ١٨٤٠ م وكان ينتمي الى أسرة

---

(١) وقد تحقق ذلك تدريجياً في الفترة التي حكم فيها الحزب الديموقراطي الذي كان يقوده عدنان مندريس ، وأزيل هذا الحزب بتدخل الجيش في سنة (١٩٦٠ م) وشنق عدنان (١٩٦١ م) ولكن الشعب لم يهدأ ، ولم يرض بالحكم اللاديني الدكتاتوري ، وأسفرت الانتخابات الاخيرة (١٩٦٨ م) عن انتصار « حزب العدالة » بأغلبية ساحقة ، وأثبت الشعب التركي وفاءه للإسلام ، وحنينه الى العهد الذي كان يتمتع فيه بممارسة أحكام الاسلام ، ويقود العالم الاسلامي باسم الخلافة ، وحماية الاسلام .

ثرية ذات اليسار والغنى ، درس في بيته اللغة العربية والفارسية والفرنسية ، وتولى وظيفة رسمية في السابعة عشرة من عمره ، وقد أعجب في شبابه بالزعيم التركي الوطني والمفكر الشهير إبراهيم شيناسي (١٨٢٦ – ١٨٧١ م) وانضم الى رئاسة تحرير مجلته الشهيرة « تصوير أفكار » ولما التجأ شيناسي إلى فرنسا في سنة ١٨٦٥ م أصبح مسؤولاً عن تحرير المجلة ، واشتهر ككاتب وصحفي سياسي ، واضطر أن يغادر الوطن عام ١٨٦٧ م لمقالاته وأفكاره الجريئة المتحمسة ، وقد قضى ثلاث سنوات من نفيه في لندن وباريس وفينا ، ودرس هناك وطالع القانون الجديد والاقتصاد ، وعاد في ١٨٧١ م إلى تركيا ، ونفي مرة ثانية إلى قبرص من جرّاء التمثيلية الطائرة الصيت التي كتبها وسمّاها « الوطن » والتي بعثت في قلوب الناس الحماس الوطني ، وعاد في سنة ١٨٧٦ م بعد أن خلع السلطان عبد العزيز ، ولكن نقمت عليه الحكومة بعد مدة يسيرة ، وتوفي في عام ١٨٨٨ م بعد أن قضى عامه الأخير من حياته في النفي .

ويقول برنارد لويس Bernard Lewis في كتابه : (The emerge of Modern Turkey) « كان نامق كمال مسلماً صادقاً متحمساً مع حماسته الوطنية وفكره ، إن الوطن (تركيا) الذي يتغنى به في مقالاته وإن كان أساسه على الاقليم ولكنه عنده وطن إسلامي خالص ، كما أن الدولة العثمانية عنده دولة إسلامية خالصة ، وقد ظل مرتبطاً طول حياته بكل قوة وإخلاص بقيم المسلمين وعقائدهم الموروثة ، وقد انتقد زعماء التنظيمات انتقاداً لاذعاً في كثير من الأحيان وعاب عليهم أنهم أخفقوا في الحفاظ على التقاليد الاسلامية القديمة ، وأنهم استوردوا من أوربا الأفكار « والمؤسسات » الجديدة .

وقد حمل نامق كمال لواء القيم الاسلامية وقد انتصر للإسلام وأبرز فضله ومآثره رداً على أولئك المؤلفين الذين كان لا يزال ديدنهم الحط من شأن الاسلام وقدّم فكرة الاتحاد الاسلامي العالمي في قيادة العثمانيين الأتراك ، لأنه كان يعتقد أن هذه الحركة إذا انتشرت في آسيا وإفريقيا ووجدت أنصاراً أصبحت كتلة

قوية إزاء الكتلة الغربية ، فيحدث بذلك توازن القوى في العالم .

وكانت دعوة نامق كمال الذي سبق ضياء كوك ألب إلى الافادة من الحضارة الغربية والعلوم الغربية ، وتفسيره للعلاقة التي يجب أن تقوم بين تركيا والغرب الجديد أكثر اتزاناً وأكبر عمقاً ، من دعوة ضياء كوك ألب وأنصاره ، فقد دعا نامق أمته وبلاده إلى الافادة من الغرب في المجالات التي يرجع إليها الفضل في تقدم الشعوب الغربية وفي رخائها وسيادتها ، وكانت السبب المباشر لتفوق الغرب ومكانته في العالم .

يقول الأستاذ نيازي في مقدمته على « مجموع مقالات ضياء كوك ألب » .

إن الرجل الذي وفق في وصف الوضع الحاضر وتحديد ضعفه وعلته واعتبره عرقلة كبيرة في تأسيس دولة جديدة كان ذلك نامق كمال (١٨٤٠ – ١٨٨٨ م) إنه حاول أن يعرض صورة مثالية « للمؤسسات » الدينية والأخلاقية والقانونية التي تنسب الى الاسلام ، وعرض صوراً مثالية أصيلة للمؤسسات السياسية أيام ازدهار التقاليد العثمانية القديمة وأبرز نواحي الحضارة الغربية التي تدين لهـا الشعوب الأوروبية في تقدمها ورخائهـا وسيادتها ، ووصل بعد دراسة هذه العوامل الثلاثة الى أنه لا يوجد بينها خلاف أساسي ، إنـه يعتقد أن الاسلام يهيىء الأسس الخلقية والقانونية للمجتمع ، وكان يرى أن أفضل طريق لتركيا الحديثة أن تتخذ التقليد العثماني وسياسة التسامح الواسع التي كان يعامل بهـا العثمانيون القوميات المختلفة والديانات المختلفة كأساس ودعامة للجهاز السياسي ، وأن تأخذ من الغرب المناهج والأساليب المادية التطبيقية التي تمنح هذا النظام قوة ومناعة في العالم المعاصر الذي يقوم على التقدم الاقتصادي .

هكذا أفرز نامق كمال عوامل تركيا الثلاثة في القرن التاسع عشر وبيّن حدودها ومعالمها ، وكان العامل الأكبر لاخفاق التنظيمات في رأيه هو

الاضطراب الفكري في موضوع العوامل الثلاثة هذه ، فقد هجرت الشريعة أي القانون الاسلامي مثلاً لأجل اقتباس القانون الفرنسي ، مع أنها لم تقتبس الأساليب والطرق الغربية للتعليم والحكومة والعلوم والاقتصاد والزراعة .

وقد خضع دعاة الاصلاح الذين كانوا ينتمون الى « تنظيمات » في أمانيهم الصبيانية لتحويل الدولة التركية دولة جديدة للحكوماتالغربية وحملوا مِنّتها في دائرة الاقتصاد والسياسة من غير حاجة إلى ذلك ، وقد فقدت بذلك الدولة العثمانية حرّيتها وسلامتها ، لم يطبّق هؤلاء الدعاة أي مبدأ من مبادىء النظم الديموقراطية الجديدة في مجال الإدارة والتنظيم ، مع أنه لم يكن شيء في المؤسسات السياسية العثمانية القديمة ولا في التشريع الإسلامي ، ما يستحيل انسجامه مع الديموقراطية أو التقدم أو العلوم التطبيقية (١) » .

ولكن من الاعجاب العام بنامق كال والتأثير العميق الذي تركه في الجيل التركي الجديد وفي ضياء كوك ألب نفسه ومعاصريه ، الذي اعترفت به (خالدة أديب خانم) بهذه الكلمات :

« كان نامق كمال يتمتع بأكبر إعجاب وإجلال في تركيا ، إنه لم يُتغن بأحد في تاريخ الأفكار والسياسات التركية مثل ما تُغني به ولم يهم الهائمون بأحد مثل ما هاموا به (٢) » .

لم تؤثر دعوته المعتدلة وفكره القويم في تكوين تركيا الحديث ولم تلعب دورها مثل ما فعلت دعوة ضياء كوك ألب المتحمسة المتطرفة لاعتناق الحضارة الغربية وأسس سياستها، وكان ذلك لأنه وجدت لفلسفة ضياء وفكره ولتنفيذه

---

(١) Berkes Niyazi Turkish Nationalism and Westeren Civilization, (Gokalap Ziya) P. 17, 18.

(٢) Halide Edib Turkey Faces West, p. 84.

شخصية قوية إيجابية في تركيا ، حققت أكثر ما أراده ودعا اليه ضياء كوك ألب وصممت على سبك تركيا الإسلامية في الغرب العلماني اللاديني ، كانت هذه شخصية كمال أتاترك .

كمال أتاترك ، نموه الفكري ، طبيعته وعقليته وخصائصه الطبيعية :

ولد مصطفى كمال باشا بن علي رضا بك بمدينة سلانيك سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١م ، وأصل أسرته من قرية بالأناضول ، والتحق بمدرسة ابتدائيـــة تسير على النهج الأوربي الحديث ، ثم بمدرسة أهلية ثانوية فمكث بها سنة ثم تركهـــا ودخل مدرسة حربية ، ثم انتقل إلى المدرسة الحربية باستانبول وتخرج منها ضابطاً ، وكان ذلك في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، ودخل في بعض المؤامرات ضده ، فقبض عليه ونفي إلى دمشق وهرب منها إلى سلانيك ، والتحق بجمعيـــة « الاتحاد والترقي » والتحق بالجيش ، وعهد اليه بالإشراف على سكة حديـــد مقدونية ، وخُلع السلطان عبد الحميد ١٣٢٧ هـ — ١٩٠٩ م .

سافر عام ١٩١٠ م إلى فرنسا كملحق عسكري لمهمة عسكرية ، وقد جعله هذا السفر لا يطمئن إلى ما حققته تركيا من التقـــدم والازدهار ، واضطرب لازدياد نفوذ ألمانيا ، وكان يحكم تركيا في ذلك الوقت أربعة أشخاص فعلاً وهم : أنور وطلعت وجاويد وجمال ، وكان معهم مصطفى كمال على خلاف شديد ، ولم يكن له شغف ولا هم بالأهداف الدولية ولا في توسع نطاق الحكومة العثمانية في خارج تركيا ، وكان يرى هذه السياسة للبلاد خطراً ، وكان أنور يكرهـه بدوره ، ونشبت حرب بلقان في سنة ١٩١٢ م ، وقد تأثر بشقاء فئات اللاجئين والمهاجرين الأتراك من المدن البلقانية وبؤسهم تأثراً كبـــيراً ، واسترد الأتراك أدرنه لخلاف نشأ بين الأقاليم البلقانية ، وعين أنور وزير الحربية وقد بلغ قمة الرقي والمجد ، وكان أنور يسعى لجمع المسلمين كلهم تحت لواء خليفة المسلمين ، وقد فوض أنور مسؤولية تنظيم الأمور العسكرية إلى الالمان ، وكان مصطفى

كمال يكره ذلك كرهاً شديداً ، ونشبت الحرب العالمية الكبرى عام ١٩١٤ م وحالفت تركيا ألمانيا تحت ضغط أنور وزملائه وخاضت الحرب ، وكان كمال يرى أن تلتزم تركيا الحياد وتستفيد من الكتلة التي تفوز في هـــذه الحرب ، وحارب كمال في جوار زملائه وقواده بشجاعة وبطولة على رغم اتجاهه ورأيه في هذه الحرب ، وكان له موقف عظيم في معركة نابيولي سنة ١٩١٥ م فذاعت به شهرته ، وأرسل في سنة ١٩١٦ م إلى جبهة قفقاس ، وفوضت اليه قيادة الجيش في الحجاز في بداية عام ١٩١٧م ، ولكن تخلت الجيوش العثمانية عن الحجاز قبل أن يستلم كمال مركزه ، ومنح في هذا العام رتبة اللواء وأرسل إلى ديار بكر نائب القائد .

وانتهت الحرب سنة ١٩١٨ م بهزيمة ألمانيـــا وتركيا ، واحتلت انجلترا وحلفاؤها استانبول ، واضطرب الأمن في بلاد الأناضول ، فاختير كمال ليقوم بحفظ النظام سنة ١٩١٩ م وأعلن الحرب على اليونان الذين استولوا على أزمير وانتصر عليهم سنة ١٩٢١ م في معركة سقارية ولقّب بالغـــازي ، وأقام في أنقرة حكومة مستقلة ، وألغى الخلافة وسلطنة آل عثمان ، وأقـــام حكومة جمهورية علمانية كان أول رئيس لها سنة ١٩٢٤ م ، واستمر على ذلك حتى توفي سنة ١٩٣٤ م .

إن العلمانية والثورة على الماضي والتغرب المتطرف والدكتاتورية العسكرية التي آلت إليها تركيا لا تُفهم العوامل التي ساعدت عليها والدوافع التي دفعت اليها في زعامة كمال أتاترك إلاّ بمعرفة طبيعة زعيم هذه الحركة الأكبر ونشأته الفكرية وتطورها وطبيعته وميوله ، لأن البلاد التي تخضع لدكتاتور عسكري تصبح مرآة لشخصيته وطبيعته ، وظلاً وامتداداً لميوله وعقائـده مع الدعاوي البرّاقة للشعبية والجمهورية ، ويحتاج لفهم نظمهـــا الجديدة فهم العناصر التي تتكون بها شخصية هؤلاء الأنانيين والدكتاتوريين ، وبهذه المناسبة نقتصر على

أن نقدم قطعاً من كتاب « أتاترك [١] » (لعرفان أوركا) الذي ألفـــه عن إخلاص وإعجاب بشخصية كمال وهي تصوره تصويراً لا مبالغة فيه ولا تشويه :

« – كان قليل الاختلاط ، غير محبب بين الاصدقاء في حياته المدرسية ، كان أصدقاؤه قليلين جداً ، كان يثور ويهيج بسرعة ، وكان في صفه طالباً مثاليـاً ذكياً مجتهداً متواضعاً ، وكان شديد الغرام بالإناث ، يجذبه هذا الجنس (Sex كالمغناطيس .

وكان يتسلى بالخمر ويشغل نفسه بها فانه لا يجد ما يسلي به نفسه وروحه ، كالإيمان بالله واليوم الآخر لأنه كان لا يؤمن بهما [٢] » .

« وكان يشعر بفرح وسرور حين يعتدي على الآخر ويسطو به ، وكانت هذه طبيعته التي فطر عليها ، وقد تجلت هذه الطبيعة في تصرفاته .

ولم يكن يعترف بعواطف غيره لأنه لا يرى أحداً يوازيه ، وكان مفطوراً على حب التغلب على الآخرين وإخضاعهم لإرادته وهواه ، وكان يحب أن يبقى على القمة دائماً ، وقد اطلع على كتابات والتر ، وروسو ، في مناستر التي بعثت فيه روح الثورة وأيقظت فيه عواطفها الخامدة [٣] » .

« – وقد هضم في شبابه مع أفكاره الثورية تعاليم ضياء كوك ألب هضماً جيداً ، وقد كافح ضياء كوك ألب للتنور والحرية الدينية ، وكان رائد التنور الفكري الغربي ، وقد تكهن في سنة ١٩٠٠ م بانقراض الدولة العثمانية واضطراب

---

(١) Irfan Orga Margarete ; « Ataturk » (Michael Joseth Ltd, London) 1962

(٢) P. 251

(٣) P. 246

حبلها ، وأنه واقع لا محالة لأنها عضت بالنواجذ على أسس الحكومة الفردية ، وكان يقول في أكثر الأحيان « إن الحكومة الدينية حليفة وفية للحكومة الفردية دائماً »، وقد انتصر للتحرر عن السلطة الدينية انتصاراً قوياً ، وكان يرى أن تحدد سلطات العلماء ويجب أن تحدد الجماعات الدينية المختلفة ، ويُحظر على الاحزاب المتحمسة للدين ويُضيق الخناق عليها لأنها (كما يقول) تقع فريسة الشيطان فتهتف بالجهاد ، وقد دعا بقوة إلى إلغاء الشريعة وإقصاء قضاة المحاكم الدينية الذين هم يشرحون القانون الإسلامي ويفسّرونه ، وكان يرى أن تقام المحاكم الحديثة والمحاكم المدنية — »[1] .

ويقول متحدثاً عن ما كان يضمره ويعتقده كمال عن الدين عامة ، وعن الإسلام بصفة خاصة وعن وجهة نظره في كل ذلك :

« — قد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجهه الى الدين ، فإنه منافسه الأكبر ، وكان يعتقد من صغره أنه لا حاجة إلى الله ، إنه اسم غامض خدّاع مجرد عن كل حقيقة، وكان لا يؤمن إلاّ بالمشاهد المحسوس[2] ، وكان يرى أن الإسلام إنما ظل عاملاً هداماً في الماضي ، وأنه قد جنى على تركيا جناية كبيرة وألحق بها خسائر فادحة ، وقد تناسى أن الإسلام وحده هو الذي أسس الإمبراطورية العثمانية الواسعة ، وكان يرى أن النّاس قد أصبحوا فريسة الاوهام والجمود بتأثير الإسلام ، وكان يبغض الرجل الذي يخضع للقضاء والقدر ويقول : « هكذا أراد الله » « وهذا الذي قدّر لي » وكان يعتقد أنه لا وجود للإله ، والإنسان يصنع قدره ، وكان يقول في أكثر الاحيان : إن قوة العقل وقوة الإرادة تتغلبان على « قسوة » الإله ، ولكن يقول المتدينون : « الله يمهل ولا

---

(١) P. 251

(٢) وقد ذكر المؤلف في كتابه أن كمال في آخر عهده كان يرفع قبضته ويشير بها إلى السماء ساخراً مهدداً .

يهمل » كان يقول : ألم يطلع هؤلاء المتدينون على الطاقة الكهربائية التي تشتغل بسرعة ؟ » وكان مصمماً على سن القانون لتحريم الدين في تركيا ، ولو احتاج ذلك إلى استخدام القوة وإلى الخدعة والتضليل – » [١]

ويقول في موضع آخر : –

« – ولم يكن لديه معنى لمبادىء علم النفس والنظريات والفلسفات ، لذلك لم يمنعه شيء عن أن يعتبر الدين غير لازم لتركيا وشيئاً لا حاجة اليه ، ولكن الذي أعطاه للأمة التركية عوضاً عن الدين هو « الاله الجديد » أي الحضارة الغربية ، وليس من الغريب أن الامة قد حاربت لروحها وقد تعلم درساً من تاريخ المدنيات الاخرى أن الآلهة القديمة تموت بصعوبة وعسر (لذلك لا تخرج عقيدة الاله من قلب الأمة التركية إلا بعد مدة طويلة) – [٢] » .

ويقول في موضع آخر :

« – وكان يبغض الاسلام والعقيدة الصحيحة الراسخة بغضاً شديداً ، وكان يقول: يجب أن نكون رجالاً من كل ناحية ، قد قاسينا خطوباً ومصائب عظيمة وكان السبب في ذلك أننا عشنا في عزلة عن الحياة ولم نحاول معرفة اتجاه العالم ويجب أن لا نحتفل بما يقول الناس ، نحن في طريق الحضارة والمدنية ، ويجب أن نعتز بذلك ونفتخر ، انظر الى المسلمين في نواحي العالم الاسلامي ماذا يعانون من المصائب والنوازل والدمار ، لماذا ؟ لأنهم لم يستطيعوا أن يستخدموا عقولهم للانسجام مع هذه الحضارة السامية المشرقة ، وهذا سبب بقائنا مدة طويلة في الحضيض ، ووراء الركب ، وتردينا الآن في الهوة السحيقة ، وإن استطعنا في

---

(١) P. 237 - 238

(٢) p. 246

السنوات الماضية أن تنجح إلى حد في إنقاذ أنفسنا فذلك لأن عقلياتنا قد تطورت ، ولكننا لا نقف على مكان ، بل إننا نهضنا لنتقدم ونواصل السير الى الأمام فليحدث ما يحدث ، ليست لنا الآن طريق أخرى ، ويجب أن تعلم الأمة أن الحضارة نار ملتهبة تحرق جميع من يخضع لها (١) .

ويذكر بغضه وعداءه للدين في موضع آخر ، فيقول :

« – لم يكن ذلك سراً أن مصطفى كمال لا يدين بدين ، لذلك كان شائعاً بين الناس أن الخلافة ستلغى قريباً ، وقد فزع الناس حين شاع ان مصطفى كمال رمى المصحف على رأس شيخ الاسلام الذي كان من كبار علماء الاسلام وشخصية محترمة ، ولم يكن جزاء ذلك إلا أن يلقى حتفه لساعته ، ولكن ذلك لم يحدث ، ويدل ذلك على أن الزمن قد تطور كثيراً (٢) » .

ويذكر المؤلف حبه وهيامه بالحضارة الغربية وما كان لها في نظره من القدس والحرمة وكيف كانت تسيطر على عواطفه وتتغلغل في عروقه ودمه ، فيقول :

« إن مصطفى كمال كان يتمسك إلى حد كبير بما يلقن ويقول ويأمر به الناس ، وكان يعبد هذا الاله الجديد (الحضارة الحديثة) بحماس ولهفة وكان له عابداً وفياً ، وقد نشر هذه الكلمة « الحضارة » من أقصى البلاد إلى أقصاها ، وعندما يتحدث عن هذه الحضارة تتقد عيناه لمعاً وإشراقاً ، ويظهر على وجهه إشراق كإشراق الصوفية عند مراقبة الجنة (٣) » .

---

(١) P. 297

(٢) P. 239

(٣) P. 273

ماذا كانت فكرته عن الحضارة وكيف كان يريد أن يرى الأمة التركية ؟ يُقدّر ذلك من الكلمات التالية التي يذكرها المؤلف :

« – يقول مصطفى كال لشعبه يجب علينا أن نلبس ملابس الشعوب المتحضرة الراقية ، وعلينا أن نبرهن للعالم أننا أمة كبيرة راقية ، ولا نسمح لمن يجهلنا في الشعوب الأخرى بالضحك علينا وعلى موضتنا القديمة البالية ، نريد أن نسير مع التيار والزمن [١] – »

« – كان يتصور تركيا متطورة مصوغة في صياغة جديدة ، ولكن المواد الخامة الانسانية التي رزقها (الشعب التركي) كانت مجموعة بشرية تتسم بالتشاؤم والكآبة ولم تتناولها يد صناع حاذق شأن الأغمار الذين يدخلون في الخدمة العسكرية جديداً ، بدأ يشتغل وحيداً وهو دافق بالحياة لا يثق إلاّ بنفسه ، لا يهدأ ولا يستريح ، وقد أصبح التدخل في شئون غيره عادة وهواية له ، وكان ممتلئاً بالحيوية والقوة الفكرية [٢] – »

وقد قرر منع الطربوش وغطاء الرأس ، وألزم لبس القبعة على الرأس عوضاً عنه ولك لكي ينصبغ الشعب التركي بصبغة الامم الغربية بأسرع ما يمكن ، ويندمج بها اندماجاً كلياً ، ولا تبقى ميزة يمتاز بها الشعب التركي عنها .

استعمل القسوة النادرة والعنف البالغ في تحقيق هذا الغرض كأنه لا إصلاح أكبر وأهم من هذا ، وكأن سعادة الشعب كانت تتوقف على ذلك ، وكأنه الشرط الأساسي لمجد تركيا وكرامتها ، إن حرب القبعة الدموية تحولت إلى حروب صليبية ، يذكر مؤلف سيرته التركي هذه المعركة ويقول :

---

(١) P. 260

(٢) P. 244

« وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيـــا ، حتى أصدرت الحكومة أمرها لبارجة بالبقـــاء في ميناء البحر الأسود ، وأُقيمت المحاكم في كل ناحية وصوب وفي أمكنة مختلفة للبلاد ، وبدأت تشتغل وتحكم ، إن هذه الأحكام أهاجت الثوار أكثر من ذي قبل ، وأُعدم رجال الطبقـــة الدينية الذين نفخوا في قلوب الناس روح المقاومة والحماس الديني القوي ، أو اضطروا لأن يختفوا عن الأنظار ، ولم يستعمل رفقـــاً ورحمةً ومسامحةً في مناسبة ، وقرر مصطفى كمال تنفيذ المشروع وإتمامه ، ولم يكن يحتفل بالوسائل والطرق التي يستخدمها في هذا الشأن ، يلقي القبض على الناس وكانوا يشنقون لمجرد أنهم وجـــدوا يسخرون من هذه الأحكام واستهدف لذلك الأبرياء والمجرمون سواء .

ان كمال لم يؤنب المحاكم على اجراءاتها العنيفة ولم يتوقف في تحطـــيم ارادة الشعب .

وكان يقول في ذلك الحين في فخار وكبرياء : « أنا تركيا ، هزيمتي هزيمة تركيا » وقد أثارت هذه الأنانية الجنونية أولئك الذين كانوا يعدونه منقـــذ تركيا ، وقد كسبت معركة القبعة أخيراً ، وفازت المحاكم واعترف الجمهور والشعب بهزيمتهم ، وقد أرسل مصطفى كمال مندوباً من قبله من أعضاء البرلمان أديب ثروت الى المؤتمر الاسلامي بمكة المكرمة (١٩٢٧) ليثبت للعالم نجاحه وانتصاره ، وكان أديب ثروت المسلم الوحيـــد الذي حضر المؤتمر وهو لابس قبعة ، وقد استقبله الممثلون المسلمون الآخرون بانقباض وعلى غضاضة — » (١)

ويذكر المؤلف — على كل حال — مميزات أتاترك الطبيعية وأخلاقه وصنائعه ويلقي ضوءاً على حياته بإيجاز ويقول : —

---

(١) P. 265

« — إنه جرب في حياته أحزاناً ويأساً ، وقل ما حظي بالفرح والسرور ، كان يحب الفقراء ويكره الأغنياء ويخشى العلماء والمفكرين لأنهم يفوقونه في القوة والكفاية ، كان يعشق الخمر والنساء والموسيقى ، وكان يكره كل أولئك الذين يختلفون معه ، وإن كان هو يستغلهم لأهدافه وغاياته ، وكانت قد بلغت به قوة عزمه وعناده وتصلبه وصفاء عقله وفكره إلى قمة المجد ، وقد التقت طبيعته وعصره ، وتقدما جواراً بجوار وبلغا الأوج ، وكان سر عظمته أنه كانت أهدافه محدودة ومعينة : تأسيس دولة على طراز عصري في حدود معينة واضحة ، وكانت له ميزة بارزة وهي أنه كان لا يعدل عن فكرته في أحلك ساعة وأدقها —[١] »

إصلاحات أتاترك وخطواته الثورية :

لم يكن كال أتاترك كما تجلى من تاريخه الذي أوجزناه عالماً واسع الثقافة ، أو مفكراً عميق النظر ، إنما كان زعيماً قومياً قوي الإرادة ، وحاكماً قوياً شديد التنفيذ ، يوجز وصفه مؤرخه الانجليزي الشهير ، فيقول :

« في مواهبه وكفايته كان جندياً ، وفي غريزته كان معلم ثانوية ،وفي اتجاهه كان سياسياً[٢]»

ومأثرته التاريخية أو بطولته — كقائد وزعيم — مقصورة على « عملية النقل والتحويل » التي قام بها ونجح فيها أكثر من غيره ، يقول المؤرخ السابق ملخصاً دوره العظيم الذي مثّله في تاريخ تركيا الأخير :

---

(١) p. 296 - 297

(٢) H.C.Armstrong : Creywoolf p. 294.

« انطلق « كمال أتاتورك » يكمل عمل التحطيم الشامل الذي شرع فيه ، وقد قرر أنه يجب عليه أن يفصل تركيا عن ماضيها المتعفن الفاسد ، يجب عليه أن يزيل جميع الأنقاض التي تحيط بها ، هو حطم فعلاً النسيج السياسي القديم ، ونقل السلطنة إلى (ديمقراطية) وحوّل الامبراطورية إلى قطر فحسب ، وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية .

إنه طرد السلطان (الخليفة) ، وقطع جميع الصلات عن الامبراطورية العثمانية ، وقد بدأ الآن في تغيير عقلية الشعب بكاملها ، وتصوراته القديمة وعاداته ولباسه وأخلاقه وتقاليده ، وأساليب الحديث ، ومناهج الحياة المنزلية التي تربطه بالماضي ، وبالبيئة الشرقية ، لقد كان ذلك أصعب بكثير من تكوين الجهاز السياسي من جديد ، وكان يشعر بصعوبة هذه العملية ، فقد قال مرة : « انتصرت على العدو ، وفتحت البلاد ، هل أستطيع أن أنتصر على الشعب [١] » .

إنه انتصر على الشعب حقاً ، فقد جعل الدولة علمانية ، ليس الإسلام دينها الرسمي ، وأحدث الفصل بين الدين والسياسة ، وقرر أن الدين قضية شخصية ، لكل فرد أن يختار له ديناً ويدين به ، من غير أن يكون له دخل في السياسة والإدارة ، وألغى الخلافة ، وألغى المحاكم الشرعية ، وقانون الشريعة الإسلامية ، وقرّر العمل بالقانون المدني السويسري ، والقانون الجنائي الإيطالي ، والقانون التجاري الألماني ، وأدخل الاحوال الشخصية في القانون المدني الأوروبي ، ومنع التعليم الديني ، وعطّل مراكزه ، ومنع الحجاب ، وقرّر السفور والتعليم المختلط ، وألغى الحروف العربية وأبدلها بالحروف اللاتينية ، ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية ، وغيّر اللباس ، وألزم لبس القبّعة ، وبعبارة موجزة :

---

(١) Grey woolf P. 287

« قد حطم الأساس الديني ، وغيّر وجهـــة نظر الشعب التركي والحكومة التركية (١) » .

إن « عرفان أوركا » بعد تقديم خلاصة المحاضرة التي ألقاها « كمال أتاترك » في البرلمان حينما قدم إليه مشروع تحويل الدولة علمانية يقول :

« – قدم مصطفى كمال في ٣/آذار (مارس) ١٩٢٤ م مشروعاً تحولت به الدولة التركية دولة علمانية (Secular)، وألغى منصب الخليفة وقـــد كان مصطفى كمال صريحاً وجريئاً في حديثه عن هذا الموضوع ، فقال : « إن الامبراطورية العثمانية قامت على أُسس الإسلام ، إن الإسلام بطبيعته ووضعه عربي وتصوراته عربية ، وهو ينظم الحياة – من ولادة الإنسان إلى وفاته – ويصوغها صياغة خاصة ، ويخنق الطموح في نفوس أتباعه ، ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتحام ، والدولة لا تزال في خطر ما دام الإسلام دينها الرسمي (٢) » .

ويقول المؤلف متحدثاً عن التأثير العميق الذي أحدثه ما انتهت إليـــه الحكومة الجديدة وما قررته من إصلاحات حديثة :

« – كل ما قرره البرلمان لم يسترع الانتباه إلاّ قليلاً ، كان ذلك في الواقع ضربة قاضية على الإسلام، وأصابه في المقتل، وقد كان تأثير قرار توحيد المعارف بعيداً في نظام الثقافة والتعليم، فقد استحوذت بذلك وزارة المعارف العمومية على الجهاز التعليمي كله في حدود الجمهورية ووضعت يدها عليه ، وقد شل هذا التطوير نشاط المدارس وحرية الأساتـذة والمعلمين الذين كانوا يباشرون التدريس فيها .

---

(٢) P. 190

(٢) P. 241,

والخطوة التالية هي تأسيس إدارة الشؤون الدينية التي كانت تحت إشراف مدير رسمي ، وقد كانت تخلف وزارة الشريعة والأوقاف القديمة ، وكانت هذه الوزارة تتولى الأمور الدينية أو المقاصد الخيرية ورعاية المساجد ودار الأيتام ، ولكنها كانت تسيء تطبيق النظام والإدارة إساءة فاضحة(١) .

وقد كان إحداث الحروف اللاتينية وحده كفيلا بحدوث ثورة في حياة الشعب التركي وإنشاء جيل جديد تنقطع كل صلة له عن الحضارة القديمة والثقافة الماضية ، وقد كان طبيعياً أن تخضع العلوم والآداب كلها لهذا الحادث الخطير ، وقد تحدث المؤرخ الكبير آرنولد توئنبي (Arnold Toynbee) في كتابه (A Study of History) ببلاغة عن مدى التأثير الذي أحدثه تغيير الحروف في تركيا وذكاء كال أتاتورك في اختيار أفضل الطرق لذلك ، يقول :

« قد شاع في الناس أن مكتبة الاسكندرية التي كانت تضم ذخائر أكثر من تسعة قرون علمية سجر بها التنور لتسخين الماء للحمامات(٢) ».

وقد قام هتلر في عصرنا بكل وسيلة بإتلاف الذخائر العلمية التي تعارض فكرته ، وبإبادتها وقد جعل حدوث المطابع نجاح هذه العملية شبه المستحيل.

وقد كان مصطفى كال معاصر هتلر أكثر توفيقاً وذكاء في إيثار الطريقة التي تضمن نجاحه ، وكان دكتاتور تركيا يريد أن يحرّر مواطنيه وعقلياتهم من

---

(١) p. 242

(٢) يشير الى قصة حرق مكتبة الاسكندرية وأسطورتها التي خلاصتها أنه أحرقت هذه الذخائر العلمية بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وقد تحقق تاريخياً أن هذه الرواية أسطورة لا أصل لها ، بل كانت هذه المكتبة قد أحرقت قبل الفتح الاسلامي من مدة طويلة، وقد اثبت العلامة شبلي النعماني عليه رحمة الله في كتابه العظيم «مكتبة الاسكندرية» أنها لا أساس لها من الصحة ، وهو من خير البحوث التي تتناول هذا الموضوع .

أجواء المدنية الإيرانية التي ورثوها ودرجوا عليها ويصوغهم بقوة في صياغة الحضارة الغربية، وقد اقتصر على تحويل حروف الهجاء مكان إحراق الكتب، وقد استغنى بذلك عن تقليد امبراطور الصين أو الخليفة العربي، وقد أصبحت الذخائر الكلاسيكية للكتب الفارسية والعربية والتركية لا تتناولها أيديهم، وأصبحت أجنبية لا تبلغها مداركهم، وأصبح إحراق الكتب عملا لا لزوم له، لأن حروف الهجاء قد أُلغيت، وقد كانت مفتاح هذا النتاج العلمي والإفادة منه، وبذلك ستظل هذه الذخائر مقفلة في الدواليب ينسج عليها العنكبوت ولا يطمع في قراءتها إلا بعض الشيوخ المسنين من العلماء[١]» .

« إن « أتاتورك » نجح نجاحاً باهراً في إقصاء العنصر الإسلامي والعربي من الحياة التركية، ولا يدري أحد هل كان هذا الانتصار موقتاً تقضي عليه ثورة الشعب التركي المسلم، وانتفاضته الإيمانية، أم تطول مدته ؟ وعلى كل فقد كان تغييراً شاملا عميقاً .

تأثير أتاتورك في العالم الاسلامي :

وهكذا كانت تركيا – مع الأسف – طليعة حركة التجديد – وبعبارة أصح، – التجدد وطليعة « التغريب » وقدوة الزعماء « التقدميين » في الدول والحكومات والأقطار الإسلامية، وكان كال أتاتورك رمز التقدم و « الثورة » في كل بلد ناهض، وفي كل مجتمع متحرر في العالم الإسلامي، والمثل الأعلى للقادة والسياسيين والمفكرين المسلمين على اختلاف أجناسهم وبيئآتهم، ولا نعرف زعيما – على فقره في النبوغ العقلي والتعمق – من زعماء البلاد الإسلامية أثر في العقول والنفوس، وأثار الإعجاب بشخصيته وأعماله وأثار الرغبة في

---

(١) Toynbee : A Study of History p. 618, 19

تقليده والاحتذاء به ، مثل ما فعل « كمال أتاتورك » في الزمن الاخير .

وكان السبب الأكبر في ذلك ما اشتهر أنه أنقذ تركيا من الخطر المحدق بها، الآخذ بالخناق ، وأسس حكومة قوية ، وكسب احترام الحكومات الأوربية والزعماء السياسيين في أوربا ، وكان المسلمون في الشرق متعطشين إلى القوة السياسية والمجد والاستقلال ، يخضعون بالإجلال لكل من يتسم بذلك أو يسعى إليه ، فخضعوا لأتاتورك ودانوا له بالحب العميق والتقديس المفرط ، ونسوا في تقديسهم له ما للشعب التركي المؤمن الشجاع من سهم ومن فضل في هذه الثورة ، وفي التمرد على الأوضاع القاسية ، والامم الضارية، وفي بناء هذا الكيان القومي المتين ، وردوا الفضل كله في ذلك إلى عبقرية « كمال » وقيادته الفذة .

والسبب الثاني أن إصلاحاته صادفت رغبة في نفوس الزعماء القوميين ، وعبّرت عما تجيش به نفوسهم من القلق والثورة على القديم ، والتحرر من ربقة الدين ، والاتجاه بشعوبهم إلى الحضارة الغربية ، ومهما كانت الأسباب فإن كمال أتاتورك قد حل محلا في النفوس لم يشغله زعيم شرقي من زمن طويل ، وكان له تأثيره المتوقع في اتجاه الشعوب والأمم الإسلامية والموقف الذي اتخذته إزاء الحضارة الغربية .

الصراع بين الشرق والغرب في الهند :

وكان المجال الثاني الذي ظهر فيه — لعوامل سياسية وثقافية — الصراع بين الشرق والغرب واضحاً قوياً ، وكان مكلفاً باختيار أحد الطريقين : الحياة الإسلامية على أساس العقيدة والإيمان ، والحياة الغربية على أساس القوة والتقدم ، هو الهند التي توطدت فيها الحكومة البريطانية الزعيمة للحضارة الغربية في الشرق ، وزحفت اليها العلوم الحديثة والتنظيمات الجديدة ، وما تستتبعها من آلات ومصنوعات وآراء وفلسفات ، وكان الشعب الإسلامي

الهندي منهوك القوى ، مثخناً بالجراح ، مجروح الكرامة ، يعاني دهشة الفتح وعار الهزيمة ، وجيشاً من التهم والظنون ، ويواجه فاتحاً ممتلئاً بالقوة والشباب والثقة ، وحضارة زاخرة بالجدة والنشاط والإنتاج ، وقضايا كثيرة ومشكلات تتطلب الحل السريع الحازم ، والموقف الواضح الحاسم .

القيادة الدينية والمدرسة القديمة :

في هذه الساعة العصيبة الدقيقة ، وفي هذه الحالة النفسية المحرجة برز في الميدان نوعان من القيادة : أولهما القيادة الدينية ، التي يتزعمها علماء الدين ، والقيادة الثانية ، يتزعمها سيد أحمد خان وتلاميذه وأنصاره من أهل المدرسة الجديدة .

أما علماء الدين فقد كانوا أقوى علماء العالم الإسلامي شخصية دينية ، ومن أكثرهم رسوخاً في الدين ، وزهداً في الدنيا ، وإيثاراً للآخرة ، وغيرة على الاسلام ، وجهاداً في سبيله بالنفس والنفيس ، ولكن جوهم الخاص الذي عاشوا فيه ، وثقافتهم القديمة ، لم تمكنهم من السيطرة على هذه الحضارة الغربية والثقافة الجديدة وقيادتها إلى ناحية جدية مجدية تعود على الاسلام والمسلمين بالنفع والقوة .

ثم إن الهمجية التي ظهرت من الحكومة الانجليزية والقسوة النادرة التي عاملت بها المسلمين الذين اعتبرتهم أصحاب الفكرة في الثورة المخفقة سنة ١٨٥٧ م وقادتها [1] ، وتحمس الحكام والولاة الانجليز لنشر المسيحية في طبقات الشعب

---

(١) اقرأ فصل « الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند » في كتابنا « المسلمون في الهند » ص ٨٥ – ٩٤ ط – دار الفتح – دمشق .

الهندي ، والسرعة الزائدة التي كانت الحضارة الغربية تنتشر بهـا في الجمهور وتأثيرها في عقيدة المسلمين وأخلاقهم ، كل ذلك وضعهم في مركز الدفاع عوضاً عن الهجوم ، وجعلهم يفكرون في الاحتفاظ بالبقية الباقية من العاطفة الدينية ، والروح الاسلامية ومظاهر الحياة الاسلامية ، والدعوة الى التجنب عن هذه الحضارة والابتعاد عنها ما أمكن ، وجعلهم يفكرون في بناء معاقل الحضارة الاسلامية والثقافة الإسلامية ، والعلوم الشرعية ، وتخريج العلماء والدعاة والمرشدين من هذه المعاقل التي سميت بعد بالمدارس العربية .

وكان على رأس هذه الحركة الاصلاحية والتعليمية المنتجة الشيخ محمد قاسم النانوتوي [١] مؤسس معهد ديوبند الكبير ، وكان لا ينظر إلى المؤسسة التي ساهم في تأسيسها وقادها في حياته ، كمعهد يقوم بتدريس العلوم والمواد الدراسية ويخرج الفقهاء والمعلمين فحسب ، بل كان ينظر إليه كمركز « وثكنة » تخرج المكافحين والدعاة الذين يفتحون جبهة جديدة للكفاح بعد ما لقي المسلمون الهزيمة المنكرة من الانجليز المحتلين ، وانقرضت الدولة الاسلامية من الهند .

يقول الشيخ مناظر أحسن الكيلاني في « سيرة مولانا محمد قاسم النانوتوي »

---

(١) هو الشيخ الامام قاسم بن أسد علي البكري النانوتوي ولد بنانوته سنة ١٢٤٨ هـ وقرأ على الشيخ مملوك العلي النانوتوي ، وأخذ الحديث عن الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي ، وأخذ الطريقة عن العارف الكبير الشيخ إمداد الله العمري التهانوي المهاجر الى مكة المكرمة وأسهم في ثورة سنة ١٨٥٧ م على الحكومة الانكليزية ، واضطر الى الاختفاء مدة من الزمان ، وتبنى فكرة تأسيس مدرسة كبيرة في ديوبند وانقطع اليها ، وكانت له مواقف عظيمة في مناظرة النصارى والآرية ظهرت فيها براعته وذكاؤه وإخلاصه ، وعارض قائد الحركة التعليمية الجديدة السيد احمد خان لآرائه الشاذة وحريته الزائدة في تفسير القرآن والدعوة الى تقليد الحضارة الغربية . وقد اعترف السيد أحمد خان بتبحره في العلم وإخلاصه في المعارضة وزهده في زخارف الدنيا ، له مؤلفات بليغة أشهرها تقرير دل بذير ، وحجة الاسلام ، وآب حياة . توفي الى رحمة الله سنة ١٢٩٨ هـ .

مؤسس دار العلوم ديوبند :

« قد اشتغل عقله الكبير في فتح الجبهات الجديدة وتهيئة مجالات الكفاح بعد ما أخفقت ثورة عام ١٨٥٧ م ، وكان نظام التعليم والتربية السائد في دار العلوم ديوبند عاملا أساسياً لتحقيق هذا المنهج الذي آثره الشيخ » .

إن الذين تراجعوا من ساحة شاملي [١] لم ينقطعوا عن التفكير ، ولم يضعوا أوزارهم ، بل بقي هؤلاء يكافحون لبقاء الدين والعلم الديني ، واشتغلت به عقولهم وقلوبهم ، ينتظرون من الله النصر ، وكان من ضمن هذه الجهود هذه المدرسة التي لم تكن غايتها التدريس والتعليم فحسب ، وإنما كان من غايتها الأساسية تربية رجال يتداركون الهزيمة التي لحقت المسلمين في عام١٨٥٧ م [٢].

وسواء تحقق هذا الغرض النبيل أم لم يتحقق ، ولكن مما لا شك فيه أن لهذه الحركة وقادتها فضلا كبيراً في تمسك الشعب الهندي الاسلامي بالدين وشريعة الاسلام ، وتفانيه في سبيله ، والتماسك أمام الحضارة الغربية المادية الالحادية تماسكاً لم يشاهد في بلد إسلامي آخر تعرّف بهذه الحضارة ووقع تحت حكم أجنبي ، وكانت ديوبند زعيمة هذا الاتجاه ، والمركز الثقافي الديني والتوجيهي الاسلامي الأكبر في الهند [٣] .

حركة ندوة العلماء :

وكانت حركة ندوة العلماء الفكرية التي أسسها مولانا محمد علي

---

(١) قرية بين دهلي وسهارنبور وقد كانت فيها في عام ١٨٥٧ م معركة حربية ضد الانجليز قاتل فيها الحاج إمداد الله المهاجر المكي ، والشيخ محمد قاسم وزملاؤهما واستشهد فيها الشيخ محمد ضامن .

(٢) سوانح قاسمي الجزء الثاني ص ٢٢٣ — ٢٢٤ — ٢٢٦ .

(٣) انظر فصل « مراكز العلم والثقافة الاسلامية » في كتاب « المسلمون في الهند » ص ٦٤ — ٦٦ .

المونكيري (١) وقادها الاستاذ شبلي النعماني (٢) وزملاؤه ، ودار العلوم التابعة لها جديرة بإحداث قنطرة تصل بين الثقافتين الاسلامية والغربية ، والطبقتين : علماء الدين والمثقفين العصريين ، وإحداث فكر جديد يجمع بين محاسن القديم والجديد ، وبتعبير أصحاب هذه المدرسة الفكرية « بين القديم الصالح والجديد النافع » و « بين التصلب في الأصول والغايات والتوسع والمرونة في الفروع والآلات » كان قادة هذه الفكرة ينظرون إلى مناهج التعليم وبرامجه كأداة للتعليم قابلة للنمو والتطور ، خاضعة لحاجة كل عصر ومقتضاه ولم يكونوا ينظرون إليها كأداة حديدية لا مرونة فيها (مع الاحتفاظ بالروح والأهداف والعلوم الأساسية) وهي عندهم حافلة بالحيوية الكاملة والازدهار ، وبتعبير آخر : إن الدين حقيقة خالدة ليست في حاجة إلى تطوير أو تبديل ، ولكن العلم شجرة مزهرة مثمرة تؤتي أكلها كل حين ويستمرّ نموها وازدهارها ، والاسلام عندهم دين الانسانية كلها ودين العصور كلها ، لذلك من الطبيعي أن يمرّ بمراحل التطور والارتقاء الفكري الانساني المختلفة ، ويكلف القيادة في بيئات تتغير فيها

(١) هو السيد محمد بن عبد العلي الحسني ، ولد في كانفور في ٣ شعبان ١٢٦٢ هـ ٢٨ يوليو ١٨٤٦ م ، تخرج في مدرسة فيض عام كانفور ، وبايع الشيخ العارف فضل رحمن الكنج مراد أبادي واختص به . قاوم حركة التنصير في الهند مقاومة فعالة وألف وكتب وقام بجولات واسعة في البلاد . وأسس ندوة العلماء في سنة ١٣١٠ هـ – ١٨٩٣ م ، وأنشأ دار العلوم التابعة لها في عام ١٣١٦ هـ – ١٨٩٨ م ، وقاوم حركة القاديانية في « بهار » وبايعه خلق كثير يعدون بالآلاف ، توفي في ٩ ربيع الاول سنة ١٣٤٦ هـ ، وكان من كبار المخلصين والعلماء الربانيين الذين شعروا بتغير الاحوال والاوضاع في العالم الاسلامي ، ونهضوا للتجديد في مناهج التعليم الديني .

(٢) هو الشيخ شبلي بن حبيب الله ، ولد في سنة ١٢٨٤ هـ في اعظم كره ، ودرس زماناً في كلية علي كره ، وصحب السيد أحمد خان مؤسس الكلية ، وأنكر بعض اتجاهاته المتطرفة ، وزار تركيا ومصر وسورية وغادر الكلية وأقام في حيدر آباد خمس سنين ، مديراً لنظارة العلوم والفنون ، وأسهم في حركة ندوة العلماء وكان عضوها النشيط والمشرف التعليمي لمدة ثمانية أعوام ثم استقال وأسس المجمع العلمي المعروف بدار المصنفين في أعظم كره ، وألف في التاريخ الاسلامي كتباً مهمة ، وكانت له مكانة مرموقة في نقل الشعر والادب والتاريخ ، ومن مصنفاته المشهورة سيرة المأمون ، وسيرة النعمان ، وكتاب الجزية في الاسلام ، وحقوق الذميين ، و « الفاروق » وشعر العجم . وغير ذلك ، توفي ١٣٣٢ ببلدة اعظم كره .

الأفكار والمفاهيم ، لذلك يجب أن يوسع نطاق التعليم والثقافة الذي يعدّ ممثلي الاسلام ومفسريه ، ويبرهن دائماً على صلاحها وحيويتها ، وقد رفع مؤسسو ندوة العلماء أصواتهم لإصلاح المناهج وتوسيعها وتطويرها، وقد كان هذا الصوت غريباً في الهند التي ظلت متمسكة بالمنهاج القديم عاضّة عليه بالنواجذ ، وكان خافتاً في الأقطار الاسلامية الأخرى كذلك ، يقدر ذلك بقطعتين اقتبسنا احداهما من كتابة مؤسس ندوة العلماء الشيخ محمد علي المونكيري ، والثانية من كتابة العلامة شبلي النعماني : —

« — قد تغيرت الظروف والأحوال في هذا العصر ، إن الاعتراضات التي شغلت العقول وحلقات الدرس قديماً قد فقدت أهميتها وقيمتها ، وانقرضت الفِرق التي كانت تثيرها وتتشبّث بها ، وأصبح العكوف على دراستها وتفهمها إضاعة للوقت وجهاداً في غير عدوّ ، وقد نشأ عالم جديد وتجددت حاجاته ، قد أثار أعداء الإسلام وخصومه أسئلة جديدة في هذا العصر لم تكن تخطر على بال ، وذلك في ضوء الفلسفة الجديدة ، ولا يمكن إشباع الرد عليها والاقناع العلمي بالاعتماد على الفلسفة القديمة فقط . وإن زعم زاعم ، والسبب في ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يحل الشبهة ويفحم الخصم إلاّ إذا عرف ما يؤول إليه الاعتراض وعرف الدوافع [١] .

« — إن هذه العلوم اليونانية ليست علومنا الدينية ولا يتوقف عليها فهم ديننا ومعرفته ، إن الإمام الغزالي في عصره قد ضم هذه المواد الدراسية إلى مناهج التعليم في عصره لكي يطلع العلماء على الأساليب الجدلية اليونانية التي نشطت في نشرها الفرقة الباطنية في ذلك العصر ويقاوموا بذلك حركة الالحاد المتفشي في ذلك العصر « ولكن الآن لا وجود لأولئك الملاحدة ولا لتلك العلوم اليونانية ، ولا يعتقد صدقها وصحتها المتنوّرون ولا من يدعي الفطنة لذلك

---

(١) مكاتيب محمدية — مجموع رسائل الشيخ محمد علي المونكيري .

فقدت تأثيرها ولا خطر على الاسلام اليوم منها ، وقد احتلت مكانها علوم حديثة وقضايا جديدة ودراسات وأبحاث جديدة، وقد أصبح من الضروري أن يطلع علماؤنا على الابحاث الجديدة والعلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولاً للمعضلات الحديثة وليردّوا على الشبهات رداً علمياً مؤسساً على الدراسة والتحقيق [١] » .

وكانت حركة ندوة العلماء فكرة ومدرسة فكرية أكثر من حركة إصلاح مناهج التعليم فحسب ، وكانت – لو قدّر الله – خطوة مباركة وفتحاً جديداً يستحق التقليد في الأقطار والمجتمعات الاسلامية التي خاضت في ذلك العهد في معركة الصراع بين القديم والجديد ، ولكن هذه الحركة لم تحظَ بالتعاون الواسع المتحمس الذي كانت تستحقه من كلتا الطبقتين : القديمة والجديدة ، لاتساع الفجوة بينهما ، ولوجود التطرف والمغالاة فيهما ، وبعض الخلافات التي حدثت في صفوف العاملين لهذه الفكرة ، وأخيراً لا آخراً لعدم وجود طبقة من الاساتذة والموجهين الذين قد تبحروا في الثقافتين ، وقد أحسنوا هضمهما وكوّنوا من هذه المواد – التي قد تبدو متناقضة – رحيقاً صافياً نافعاً ، كما تعمل النحل من الأزهار والأشجار ، وبقي معظم الشعب يتأرجح بين طبقتين ؛ طبقة ترى العدول عن القديم ونظمه التعليمية والانحراف عنها قيد شعرة ضرباً من التحريف أو نوعاً من البدع ؛ وطبقة تقدس كل ما جاء من الغرب وتبرئه من كل عيب ونقص ، وتعتقد بأصحابه العظمة والعبقرية ، في جميع الآراء والمذاهب الفكرية .

ورغم ذلك كله لا تزال فكرة ندوة العلماء الفكرة الوسط الحقيقية التي تستطيع أن تُنقذ نظام التعليم الديني من الانهيار وتتفادى بها الأمة الصراع بين القديم والجديد ، ووجود طبقتين متناوئتين متنافستين ؛ طبقة علماء الدين ،

(١) حياة شبلي ص ٦٠ للعلامة السيد سليمان الندوي .

وطبقة رجال الثقافة الحديثة ، الذي جرّ على كثير من البلاد الإسلامية شقاء ، وكان السبب في كثير من الأحيان في اتجاه البلاد العلماني ، واللاديني .

وكان لقادة هذه الفكرة ولمتخرجي مدرستها – دار العلوم ندوة العلماء – فضل لا يستهان به في نشر الثقافة الإسلامية ، وعرض السيرة النبوية ومحاسن الإسلام وتعاليمه في أسلوب عصري قوي وثوب قشيب ، وكان لكتابات العلامة شبلي النعماني العلمية والأدبية ولا سيا لكتبه « سيرة النبي » ﷺ و « الفاروق » و « الغزالي » و « الرومي » ولرسائله : « الجزية في الإسلام » « ومكتبة الاسكندرية » و « نظرة تاريخية على عالمكير » تأثير كبير في إعادة ثقة الجيل الجديد بالثقافة الإسلامية ، ومكافحة مركب النقص فيهم ، كذلك كان لتلميذه النابغة العلامة الدكتور السيد سليمان الندوي رحمة الله عليه فضل كبير في هذا الإتجاه . وكانت المجلات الأربع التي أكمل بها كتاب سيرة النبي ﷺ موسوعة كبيرة في السيرة وعلم التوحيد ، ويعتبر كتابه « خطبات مدراس »[1] من أقوى وأجمل ما كتب في السيرة ، وكذلك كتبه عن الشخصيات الإسلامية ، وفي البحوث العلمية ، وقد ساهم بنشاط وجدارة في حركة البلاد العلمية والأدبية والسياسية مساهمة أكسبت العلماء تقدير رجال الثقافة الجديدة ورجال العلم والأدب ، وأبعدت عنهم تهمة « الانعزالية » التي أصيب بها العلماء في عهد الانحطاط الأخير ، وكانت مجلة « المعارف » التي يرأس تحريرها تعتبر من أرقى المجلات العلمية الإسلامية في العالم الاسلامي .

قيادة السيد احمد خان ومدرسته الفكرية :

أما القيادة الثانية التي تزعمها سيد أحمد خان على أساس تقليد الحضارة

---

(١) نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ونشر باسم « الرسالة الحمدية » ط : دار الفتح دمشق .

الغربية وأسسها المادية، واقتباس العلوم العصرية بجذافيرها وعلى علاتها ، وتفسير الاسلام والقرآن تفسيراً يطابقان به ما وصلت إليه المدنية والمعلومات الحديثة في آخر القــــرن التاسع عشر المسيحي [١] ويطابقان هوى الغربيـــين وآراءهم وأذواقهم ، والاستهانة بما لا يثبته الحس والتجربة ، ولا تقرره علوم الطبيعة في بادىء النظر ، من الحقائق الغيبية ، وأمور ما بعد الطبيعة [٢] .

شاهد السيد أحمد خان[٣] انهيار الحكومة الاسلامية المغوليـــة التي كانت صورة مصغرة شاحبة للإمبراطورية الاسلامية ، ورأى إخفاق الثورة الكبرى في سنة ١٨٥٧ م ، واطلع على أسباب هذا الإخفاق الذريع وانهزام مجموعـــة كبيرة ضخمة من أهل البلاد أمام حفنة من الأجانب الغرباء، ورأى ما دفع المسلمون

---

(١) وكان كما لا يخفى دوراً لم تبلغ فيه العلوم الطبيعية نهايتها واكتمالها ، وكانت لا تزال في دور الطفولة والنشوء والارتقاء .

(٢) اقرأ للتفصيل وفهم أسلوب التفكير الديني الذي اتبعه سر سيد أحمد خان في آرائه الدينية ومناهجه الكلامية ، كتاب — Religious Thought of Syed Ahmad Khan لمؤلفه بشير أحمد دار — Bashir Ahmad Dar M.A
Enstituite of Islamic Culture, Lahore.
من مطبوعات مجمع الثقافة الاسلامية .

(٣) هو السيد أحمد بن المتقي بن الهادي الحسني الدهلوي ، ولد سنة ١٢٣٢ هـ - ١٨١٧ م وقرأ المتوسطات في العلوم العربية . وعني بالهيئة والهندسة والأقليدس عناية خاصـــة ، وتولى الوظائف والقضاء في الحكومة الانجليزية ، وألف كتباً ذات قيمة علمية في التاريخ، وتولى تصحيح بعض الآثار العلمية والمؤلفات القديمة ، وأشرف على ضبطها ونشرها ، وكان من أنصار الحكومة الانجليزية وممن سعى في إخماد ثورة ١٨٥٧ وتوطيد الحكم الانجليزي وإزالة سوء التفـــاهم والوحشية بين الشعب والحكومة ، وكافأته الحكومة على ذلك براتب شهري ، وأنشأ مجمعاً علمياً للترجمـــة والتأليف والنشر ، وأصدر مجلة « تهذيب الأخلاق » وسافر الى أوربا سنة ١٢٨٠ هـ ١٨٦٩ وألف هناك كتابه المشهور « الخطبات الأحمـــدية في العرب والسيرة المحمدية » في الرد على السير وليم ميور ، والدفاع عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ سنة ١٨٧٥ م كلية إسلامية انجليزية ، وهي التي تسمى الآن جامعة علي كره الاسلامية، وتوفي سنة ١٣١٥ هـ ١٨٩٨ م ودفن في علي كره .

من قيمــــة هذه الثورة التي رسموا خطتها وتولوا كبرها ، ورأى هوان الشعب الكبير الذي كان صاحب الأمر والنهي في البلاد ، وشقاء الأمر والبيوتات الكبيرة ، ورأى سطوة الإنجليز تقوم على هذه الأنقاض ، وأبهة ملكهم ، وطلائع مدنيتهم الخلابة ، وآياتها الباهرة ، واتصل بالانجليز اتصالاً وثيقاً عن طريق الوظيفـــة والزمالة وعن طريق الصداقة والتعارف ، فأعجب بذكائهم وكفاءتهم ومدنيتهم ، وكان رجلاً مرهف الحس ، حاد الذهن ، قوي العاطفة عصبياً ، سريع الانفعال والقبول ، مشاركا في الثقافة الدينية غير راسخ فيها ، ولا متقن لها ، جريئاً في إبداء الرأي ، فتأثر بالإنجليز تأثر المغلوب بالغالب ، والضعيف بالقوي ، وقلد حضارتهم ، وأساليب حياتهم شخصياً ، وصار يدعو إلى هذا التقليد في حماسة وقوة ، ويرى أن هذا التقليد والظهور في مظهر سيد البلاد ومجاراته في الحياة والعادات تزيل الهيبة من قلوب المسلمين ، وتعالج « مركب النقص » فيهم ، وترفع مكانتهم في عيون الولاة ورجال الحكومة ، وتضعهم في مكان الزملاء ، الشركاء في الحياة ، الأقران في الاجتماع ، يدل على هذه الفكرة دلالة واضحة ما جاء في بعض مقالاته ، يقول :

« لا بد أن يرغب المسلمون في قبول هذه الحضارة (الغربية) بكمالها ، حتى لا تعود الأمم المتحضرة تزدريهم أعينها ، ويعتبروا من الشعوب المتحضرة المثقفـــة » [1] .

وقام السيد أحمد خان برحلة إلى إنجلترا في أول إبريل ١٨٦٩ م فكان أول مسلم هندي سافر إلى الجزائر البريطانية في هذا العهد المبكر ، وقد كانت قناة السويس في دور الانشاء [2] وقد قابل صاحب فكرتها والاشراف عليها المهندس

---

(١) مجلة « تهذيب الأخلاق » مقالات السيد أحمد خان ج ٢ ص ١ .

(٢) وفي ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ فتحت الترعة لمرور المراكب ، وجرى ذلك باحتفال عظيم لم يكن يسمع بمثله وذلك في أثناء وجود السيد أحمد خان في إنجلترا .

الفرنسي الشهير الموسيو فردينان دي ليسبس (Ferdinand De Lesseps) الذي كان مسافراً في نفس السفينة . وكان السيد أحمد خان موضع حفاوة نادرة في لندن ، وقد مكث فيها سبعة عشر شهراً ، كان فيها ضيفاً مبجلاً وزائراً كريماً ، وصديقاً عزيزاً في الأوساط الانجليزية المحترمة ، وحضر المآدب الملكية الفخمة والولائم « الارستقراطية » التي تمثل الحضارة الأوربية في أروع مظاهرها ، وأخلاق الطبقة الحاكمة ، وطبقة الأشراف ، ونال الوسام الملكي ولقب الشرف ، وقابل الملكة ، وولي العهد والوزراء الكبار ، واختير عضواً فخرياً في جمعيات علمية ذات الشرف الكبير ، وحضر حفلة نادي المهندسين الكبار ، واطلع على المشاريع والخطط التقدمية التي مرت بها البلاد في الزمن القريب ، والتي أحدثت ثورة وانقلاباً في الاوضاع ، وفي مستوى البلاد ، ومكنتها من بسط نفوذها وسيطرتها الفكرية والسياسية .

رأى السيد أحمد خان فرنسا وإنجلترا وهما في أوج مدنيتهما ، وفي ريعان الصناعة الحديثة والعلم الجديد ، ورأى المجتمع الانجليزي في عصر لم يتسرب اليه الوهن ، ولم يعتره الضعف الذي اصيب به بعد الحرب الاولى ، ورأى الحيوية تتدفق منه ، والطموح إلى غزو العالم وإخضاعه يملك زمامه ، وقد شغل بمشاهدة جانبه المشرق الوضاء عن مشاهدة جانبه الضعيف الأسود ، وهو الجانب الخلقي والروحي ، وجانب الاستعمار الغاشم ، والاجرام العالمي والاثرة القومية ، والقسوة على غير الانجليز — التي رأى مظاهرها في الهند — فأعجب بهذه الحضارة والمجتمع الذي يمثلها إعجاباً ملك عليه النفس والفكر ، وملأ جميع جوانحه وجوانب تفكيره ، ورجع إلى البلاد في ٢ اكتوبر سنة ١٨٧٠ م داعية متحمساً إلى تقليد الحضارة الغربية ، وإصلاح المجتمع الاسلامي الهندي على أساس تقليد المجتمع الأوربي ومبادئه وقيمه ، وتبنى هذه الدعوة بكل إخلاص وبكل حماسة ، ووهب لها مواهبة كلها ، وأصبحت نظرته مادية بحتة ، تخضع للقوى الطبيعية ، والسنن الكونية — كما يفهمها — خضوعاً زائداً ، ويخضع لها

عقيدته ويؤوّل على أساسها القرآن تأويلاً يبلغ به حد التحريف والعبث بأصول العربية واللغة والنحو ، والتواتر والاجماع ، فصار يفسر القرآن تفسيراً [١] يخرق فيه الإجماع ، وينقض به اللغة ، ويثير العجب والإنكار في الأوساط الدينية والعلمية ، وقد أصاب الدكتور محمد البهي في نقد هذا الاتجاه إذ يقول في كتابه « الفكر الاسلامي الحديث » :

« فحركة السيد أحمد خان كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعي والحضارة الغربية المادية ، كما يفتتن في عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يسمى « العـــلم » (Sceince) وبالمركبات الحضارية التي قامت عليه ، والافتتان بالعلم الطبيعي أو بالطبيعة ، كما يقال ، يؤدّي إلى خفة وزن القيم الروحية والمثالية ، وهي القيم التي تقوم عليها رسالة الأديان السماوية التي يمثلها الإسلام أوضح تمثيل ، وقد يصير الافتتان بهذا العلم الطبيعي إلى إنكار كل قيمة أخرى مما لا يشاهد في الطبيعة ، ويدرك بالحس الإنساني ، ومن هنا ربط السيد جمال الدين الأفغاني بين إلحـــاد السيد أحمد خان ومذهبه الدهري أو الطبيعي ، مع بقاء انتسابه إلى الإسلام ولغته بالإلحاد ، رغم ما كان يكرره من القول بأنه يدافع عن الإسلام ، وأنه يبغي أن يوجد طريقاً للمسلم المعاصر يوفق فيه بين إسلامه وتقبله الحياة العصرية التي قامت على إثر نهضة العلم الطبيعي [٢]

وقد كان هذا الاتجاه المادي المتطرف والإسراف في تمجيد العقل والمبالغة في سلطانه وحدوده ، وإخضاع إرادة الله وقدرته وكتـــابه لقوانين الطبيعة وقوانين هذا العالم ، والجراءة على التفسير وتأويل معاني القرآن ، تأويلاً جريئاً قد

---

(١) سماه « تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان » كتبه في « أردو » في ستة مجلدات ، وقد وصل فيه الى تفسير سورة النحل .

(٢) ص ١٥ – ١٦ .

فتح باباً للفتنة والتحريف والإلحاد في آيات الله والفوضى في الدين والعقيدة التي انتشرت في العصر الأخير[١] .

جوانب الضعف في فكرة السيد أحمد خان :

اتسمت خطة السيد أحمد خان التعليمية بسمتين تقاصرت بسببهما عن أن تكون الثورة المنشودة التي تشتد إليها حاجة العالم الإسلامي ، وعملاً إيجابياً بنّاءاً يلائم وضع هذا المجتمع القائم على أساس العقيدة والإيمان والرسالة المحمدية ، ويملأ الفراغ الهائل الواقع في العالم الإسلامي كله .

أولاً إنه لم يفكر في إخضاع هذا النظام التعليمي الذي أخذ شكله النهائي في البيئة الغربية ، لطبيعة هذا المجتمع الإسلامي الهندي الذي كان يريد تطبيقه فيه ، وحاجاته وأوضاعه ، ولم يفكر في سبكه سبكاً جديداً إسلامياً هندياً ، ولم يفصله عن الحضارة الغربية وروحها المادية التي لا لزوم لها في بلد إسلامي شرقي ، بل إنه استورد هذا النظام من الغرب بتفاصيله وخصائصه وروحه وطبيعته ، ومع الحضارة التي تكتنفه ، وألحّ على كلا الجزءين- المنهاج التعليمي ،والحضارة الغربية — إلحاحاً شديداً، بل شرط — في قانون الكلية — أن يكون العميد دائماً إنجليزياً،وأستاذان — على الأقل — من الانجليز ، ومدير الثانوية من الانجليز ، ويزاد في هذا العدد كلما اتسعت له ميزانية

---

(١) قد يفهم القارىء من كتاب « الفكر الاسلامي الحديث » للدكتور محمد البهي (ص ١٧) أن المذهب القادياني انبثق من الحركة التجديدية الدينية التي قام بها السيد أحمد خان، وليس الأمر كذلك ،فان السيد أحمد أنكر على مؤسس القاديانية ادعاء النبوء وعارضه ، إن قصارى الأمر أن الجو الذي هيأه السيد أحمد خان قد ساعد في انتشار هذا المذهب وقبول آراء صاحبه المتطرفة ، وقد كان الخليفة القادياني (وعقله الأول) نور الدين الحكيم من كبار المعجبين بمدرسة السيد أحمد خان في التفسير والتأويل .

الكلية [١].

وهكذا كان ، فلم يزل أربعة أو خمسة من الأساتذة الكبار من الانجليز يتولون التدريس في أقسام مختلفة ويشرفون عليها ، وكان لهم تأثير شديد عميق في نظام الكلية وأخلاق الطلبة ، حتى استطاعوا - بنفوذهم - أن يلعبوا دوراً مهماً في سياسة البلاد ، وقد كان عميد الكلية المستر ثيودربك - الداهية الانجليزي - صاحب التوجيه الأول في السياسة الإسلامية الهندية وقيادة الرأي ، وقد كان لهذا التوجيه عواقب وخيمة في السياسة ، واتجاه المسلمين السياسي [٢] .

وهكذا اقترنت دعوة السيد أحمد خان التعليمية بالدعوة إلى الحضارة الغربية من غير لزوم وحاجة إلى ذلك ،فحامت حولها الشبهات ، واكتنفها أجواء من السخط والاستياء ، وأثارت إنكاراً شديداً في الأوساط الدينية ، ورافقتها - منذ نشوئها - دعوة إلى مقاطعة هذه الحركة والابتعاد عنها ، خلقت مشكلات كثيرة في سبيلها ، وعارضها علماء الدين - الذين لم يكونوا يعارضون تدريس اللغة الانجليزية والعلوم المفيدة - لما اقترن بها ورافقها من أول يومها ، من الخضوع للحضارة الغربية وقيمها ، والتأثير في الأخلاق والعقائد ، وبسبب سيطرة الأساتذة ورجال الادارة الانجليز ونفوذهم في هذه المؤسسة الوليدة ، وفي عقول الشباب المسلمين - الذين ينتمون إلى أكرم الأسر الإسلامية وأذكاها - وفي أخلاقهم ، وقد نشأ - بفعل هذه المؤثرات ، وبتأثير الجو الغربي الذي يسود في هذا المعهد - جيل مثقف إسلامي الاسم ، غربي التفكير ، إنجليزي الطراز ، مضطرب العقيدة في بعض الأحيان ، يخلق مشكلة جديدة في البيوتات وفي

---

(١) حياة جاويد « سيرة سيد أحمد خان » لصديقه الاستاذ ألطاف حسين حالي ص ٢٨٢.

(٢) اقرأ فصل « الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند » في كتاب « المسلمون في الهند » للمؤلف .

المجتمع الإسلامي ، ولا ينسجم معه انسجاماً كلياً .

والسمة الثانية أنه تمسك في هذا النظام التعليمي بتعليم اللغة والآداب فقط ، ولم يعن بتعليم الفنون والعلوم التطبيقية العملية العناية التي تستحقها ، مع أنها هي ثمرة العلم الجديد اليانعة ، وسر قوة الأمم الغربية وسيادتها ، وهي التي يجب أن تستفاد من الغرب ويحرص على دراستها والبراعة فيها ، بل إنه - سامحه الله - عارض في بعض الأحيان تعليم الصنائع والعلوم معارضة شديدة ، وكتب في هذا الموضوع مقالات شديدة اللهجة ، مريرة النقد آخرها المقال الذي نشرته مجلة « عليكرة كزت » (Aligarh Gazette) في عددهـــا الصادر يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٩٨ م يقول فيه : « إن الهند نظراً إلى حالتها الراهنة ليست في حاجة إلى تعليم الصنائع ، إن الأهم المقدم هو الثقافة الفكرية من المستوى الأعلى التي لم تتحقق أو لم تكتمل بعد » . وقد تخوف السيد أحمد خان بما كان يقرؤه لكبار الانجليز من الحث على دراسة العلوم الصناعية أن الانجليز يريدون وقف التعليم العالي أو تعليم الآداب الغربية ، فكان يحارب هذه الفكرة بكل قوته وبلاغته؛ وقد ألقى محاضرة طويلة في حفلة مؤتمر التعليم الإسلامي الخامسة في هـــذا الموضوع ، وعارض أن يكون مشروع تعليم العلوم الصناعية على حساب تعليم الآداب الانجليزية والدراسات الأدبية ، وقد عرض هذا المشروع مراراً وبحث فيه في لجان جامعة « إله آباد » ، وكان السيد أحمد خان من كبار خصومه ومعارضيه (١).

كانت نتيجة ذلك أن الجامعة الإسلامية اتجهت اتجاهاً علمياً أدبياً محضاً ، وسيطرت عليه نزعة التقليد والتطور ، ونزعة التوسع في الآداب ، وخرّجت عدداً لا يستهان به من الخطباء والأدباء والإداريين والقضاة والموظفين الكبار ، ولم تخرِّج - بطبيعة الحـــال - رجالاً مبرزين ومبتكرين في علوم الهندسة

---

(١) حياة جاويد ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

والميكانيكا ، والطبيعة والكيمياء والصناعات المفيدة ، والعلوم التي كان الشعب الإسلامي الهندي في فقر شديد فيها ، وكان ذلك من أسباب تخلفه واقتصاره على الوظائف الحكومية والمراكز الإدارية المحدودة دائماً .

محصول هذه الحركة وإنتاجها :

وعلى كل ، فقد كان السيد أحمـــد خان من أقوى الشخصيات التي عرفتها الهند بل العالم الإسلامي في العهد الأخير ، وكانت الحركة التي قام بها من أقوى الحركات ، وقد كتب لها من النجاح والتأثير ما لم يكتب لأي حركة وفكرة ، وكان نفوذ شخصية السيد أحمد خان واسع النطاق وعميقاً في المجتمع الإسلامي الهندي ، كان له تأثير في الأدب والتفكير وأساليب البيان ، وقد أنشأ مدرسة أدبية لها كتّاب مفكرون .

وقد آتت هذه الدعوة التعليمية ـ التي تزعمها السيد أحمد خان بقوة وإخلاص ـ ثمراتها ، وملأت الفراغ الثقـــافي والاقتصادي الواقع في المجتمع الاسلامي الهندي ، بعد استقرار الحـكم الانجليزي في الهند ، وعالج ـ إلى مدى محدود ـ القلق واليأس المسيطرين على نفوسهم ، وتخرج في هذه الجامعة بعض خيرة الشباب وقادة الفكر ، والزعماء السياسيين وأدباء كبار ، وشخصيات قوية قادت حركة « الخلافة »[١] وحركة التحرير في الهند ، وساهمت في قيام دولة باكستان وإدارتها بعد ، ولكنها ـ على ما لها من فضل في ثقافة المسلمين الجديدة وفي حالتهم الاقتصادية ـ لم تحقق الغرض المطلوب من الاستفادة بتجارب الغرب وتكييفها للمجتمع الاسلامي وظروفه ، ولم تملأ الفراغ الواقع الهائل ، فراغ الجيل الاسلامي الجديد ، الراسخ في عقيدته ، القوي في إيمانه ، العارف لرسالته

---

(١) هي حركة تأييد الحكومة العثمانية في قضاياها الاسلامية ومعارضة الحلفاء ، وكانت من أقوى حركات الهند الاسلامية السياسية .

ودوره في قيادة المدنية ، الواسع في ثقافته ، المرن في تفكيره ، الآخـــذ من الثقافة الجديدة محاسنها ولبابها ، المتجنب عن شرورها وقشورها ، الأصيل في إنتاجه ، الجيل المرتقب الذي كان يتطلع إليه العالم الاسلامي – ولا يزال – في لهف شديد وصبر نافد ، الجيل الذي كان يستطيع بتوفيق الله تعالى أن ينقذ العالم الاسلامي من الحيرة التي كان يتورط فيها ، ومن الضعف الذي قد تسلط عليه ، ويمنحه مركزاً رئيسيا في قيادة الأمم ، وتوجيه المدنية .

أكبر الاله آبادي الشاعر الثائر :

وقد حارب هذه النزعة التطبيقية التقليدية – التي يقودها السيد أحمد خان – حرباً لا هوادة فيها معاصر مثقف ثقافة قديمة وجديدة ، يعتبر من أكبر شعراء عصره ، وهو السيد أكبر حسين[1] الإله أبادي ، المتلقب في شعره بـ « أكبر » واستخدم لنقدها والإنكار على هذا الجيل المثقف الجـــديد أسلوب الفكاهة الحلوة ، والأدب الخفيف الروح ، من أبلغ الأساليب الأدبية وأقواها ، وأجملها في هذا العصر ، وجعل ذلك موضوع شعره طول حياته ، ينتقد سياسة السيد أحمد خان – الذي يعترف بإخلاصه – التعليمية ، وما كان يدعو إليه من تقليد

---

(١) هو السيد أكبر حسين بن تفضل حسين ، ولد في سنة ١٢٦٢ ﻫ (١٨٤٦ م)في مديرية إله آباد ،وتلقى الثقافة الاسلاميةودرس اللغة الانجليزية ،واجتاز في سنة ١٢٨٤ ﻫ امتحاناً في الحقوق وتولى القضاء ، وتنقل في الوظائف القضائية ، إلى أن أحيل إلى المعاش سنة ١٣٢٠ﻫ – ١٩٠٣م» ولقبته الحكومة الانجليزية بلقب « خان بهادر » –يساوي بك في المجتمع المصري – ولقبه الشعب الهندي بلقب « لسان العصر » فغلب لقب الشعب لقب الدولة الرسمي ،

وكان – رغم ثقافته الحديثة العميقة – ديناً محافظاً سليم العقيدة ، قال في الليلة التي توفي فيها : « ما فاتتني فريضة ، ولا غفلت عن حزبي في الليل ، ولا انصرفت عن تلاوة القرآن طول عمري » توفي رحمه الله سنة ١٣٤٠ ﻫ – ١٩٢١ م ، ومن آثاره ثلاثة دواوين شعرية ضخام تلقتها الأوساط الأدبية والاسلامية بالقبول والاستحسان ، وشهد له كبار الأدباء والشعراء – منهم العلامة محمد إقبال – بالاجادة وأنه إمام في الشعر الفكاهي الاصلاحي في (أردو) .

الغرب وتطبيق مناهج حياته ، وينتقد الحياة السائدة في الكلية الإسلامية ، وما تتسم به من تقليد أعمى للغرب ، وتساهل في العقيدة ، ورقّة في الدين ، وتبذير في الأقوال ، وتألق في المظاهر ، ونفور عن الدين ورجاله ، ونهامة للحياة ، وتهالك على الوظائف الرسمية ، وتخلّ عن التراث الشرقي القديم ، وعن تقاليده ومبادئه ، وثورة عليها ، واندماج في المجتمع الغربي الغريب ، وسيطرة التفكير المادي الاقتصادي المحض ، ويصور – بشاعريته الساحرة وريشته البارعة – الجيل الجديد تصويراً دقيقاً ، واضح القسمات والملامح .

وقد انتشر هذا الشعر في الأوساط الهندية على اختلاف طبقاتها واتجاهاتها انتشاراً عجيباً : وتلقفه الأدباء والكتاب والشباب ورددوه ترديداً لم يعرف لشعر آخر منذ زمن طويل ، وعلى نجاح هذا الشعر وتأثيره في تحريك عاطفة الكراهة والإزدراء والتخفيف من غلواء هذه النزعة التقليدية وقيمة هذه الحضارة ، لم يستطع بطبيعة الحال أن يحدث ثورة في المجتمع ويقف تيار التقليد الجارف ويؤسس مجتمعاً جديداً ، لأن الأدب المؤسس على التهكم والتندّر تأثيره وأجله محدودان ، ولكنه لم يخل من الفائدة ، وكان من عوامل الاتجاهات الأدبية الاجتماعية الجديدة في الهند[1].

الحركة الوطنية ومقاطعة البضائع الأجنبية :

كان هذا الاتجاه التقليدي في الهند – الذي قاده السيد أحمد خان في المسلمين وغذته الحكومة الإنجليزية ونظام المعارف – في الطبقة المثقفة ، حراً في سيره لا يعوقه شيء ، ولا يخفف من حدته إلا هدوء الطبيعة الهندية واعتدالها في

---

(١) للمؤلف مقالة مسهبة نشرت في مجلة « الفتح » المصرية . مجلد العام التاسع ١٣٥٤ هـ عدد ٤٤٠ ؛ ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ومجلة « الضياء » الصادرة عن ندوة العلماء – لكهنؤ – (الهند) .

قبول كل جديد ، وتمسكها بالقديم وبالبساطة ، إلا أنه كان جديراً كل الجدارة بأن يكون الاتجاه العام السائد على البلاد على مر الأيام ، ويجعل من الهند الشرقية مجتمعاً غربياً في تفكيره وأساليب حياته ، وفي حضارته واجتماعه ، ولكن حادثاً حال دون ذلك ، وغير اتجاه التاريخ .

حدث ما يضعف سلطان الحكومة الانجليزية — التي تتزعم هذه الحضارة في الهند — في النفوس والعقول ، ويثير الشك في قيمة هذه الحضارة وجدارتها للقيادة واستعدادها للإنصاف وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وما يثير السخط الشديد والكراهة العميقة لزعماء هذه الحضارة وممثليها في الشرق ، وما يحرك الشعور القوي بالشخصية وبالكرامة في أهل البلاد ، ويحمل على مقاطعة هذه الحكومة وكل ما يُعزى إليها من حضارة ومظاهر وشعائر ، وكل ما يموّن حركتها التجارية والاقتصادية ويغذيها ، ذلك نشوب الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ م) ووقوف الحكومة البريطانية — مع حلفائها — الموقف المعادي من الدولة العثمانية التي ينظر إليها المسلمون في الهند — كغيرهم في البلاد الإسلامية — كرمز للمجد الإسلامي ، وموئل للخلافة ، وحامية للإسلام ، ولما تمت الهزيمة للأتراك في ١٩١٨ م واستولى الانجليز على الاستانة ، وتوزع الحلفاء ممتلكات الدولة العثمانية ، انفجر بركان الثورة في الهند ، وتعاون المسلمون والهندوس في حركة الخلافة بشكل عام ، وكان غاندي — الزعيم الهندي الشهير — في جبهة القيادة مع زملائه محمد علي وشوكت علي وأبي الكلام آزاد ، واقترحوا سنة ١٩٢٠ م مقاطعة الحكومة والإضراب عن التعاون معها في إدارة الحكومة وجميع مجالات الحياة ومقاطعة البضائع الأجنبية ، فكان أمضى سلاح سلمي استخدمته حركة وطنية ، وانطلقت موجة عنيفة من السخط الشديد اكتسحت البلاد ، تحمل معها الدعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية والتخلي عن مظاهر الحضارة الأجنبية المستعمرة ، والظهور في المظهر الوطني الشعبي ، والتمسك

بالبساطة والتقشف في الحياة ، والاقتصار على المنتجات الوطنية ، وكانت أعظم وأعنف حركة شاهدتها البلاد ، وكانت البلاد كلها ـ من أقصى حدودها إلى أقصى حدودها ـ شعلة نار ، وقد هزت سيطرة الحضارة الغربية في أعماق النفوس ، واقتلعت جذورها وعروقها من قلوب لا يحصيها كثرة إلا الله ، وأشعل الناس النيران في ملابسهم الغربية ، والقماش الوارد من الخارج ـ من إنجلترا طبعاً ـ في جموع حاشدة ، وحفلات كبيرة ، ورفض كبار الأغنياء والمثقفين ، ورجال الطبقة الأرستقراطية عيشتهم الغربية الباذخة ، وتقشفوا وآثروا الحياة البسيطة الوطنية ، وحدث انقلاب عظيم في حياة الكثيرين من كبار المحامين والتجار والموسرين ، فقد ملأوا السجون ، وتحملوا المشاق ، وبدا منهم من الإيثار ، والزهد والقناعة ، وقوة العاطفة الدينية والوطنية ، والمواساة للفقراء والمحافظة على الشعائر الدينية ، ما لم يكن يتوقع من أمثالهم قبل ظهور هذه الحركة .

وتلت هذه الحركة التي كان طابعها دينياً ، الحركة الوطنية الهندية العامة ، التي ترمي إلى تحرير البلاد ، وطرد الاستعمار ، وإقامة الحكم الذاتي ، وكانت ـ بخلاف كثير من الحركات السياسية في الشرق ـ حركة سياسية اجتماعية ذات فلسفة فكرية واقتصادية ، فلعبت دورها في إضعاف سلطان هذه الحضارة التي جاءت مع المستعمر في تدعيم الشعور الوطني ، وإيثار كل ما هو أصيل وعريق في طبيعته الهندية وبيئته الوطنية ، على المستورَد الأجنبي ، ولا شك أن هذه الحركات السياسية استطاعت أن تفعل ـ من محاربة مركب النقص ، ومن إثارة الاعتداد بالكرامة والتخلص من الاستعمار الفكري والثقافي ـ ما لا تستطيعه الفلسفات العلمية الكبيرة ، وذلك شأن الحركات العملية الشعبية ، التي تتغلغل في أجزاء المجتمع ، وتسيطر على تفكيره دائماً في كل بلد .

محمد إقبال ونقده للحضارة الغربية :

وقد بدأ الشباب الإسلامي الذكي في فجر القرن العشرين يتوسعون في الدراسات الغربية ، ويتعمقون فيها في الجامعات الهندية الراقية ، وقد زالت عنهم دهشة الفتح وهيبة الإنجليز ، وبدأت بعثات ثقافية ترحل إلى أوروبا ، ويقيم عدد كبير منهم في عواصمها إقامة طويلة ، ينهلون من مناهلها الثقافية ، ويدرسون العلوم العصرية بدقة وإتقان ، تحت إشراف أساتذة كبار أحرار ، ويعرفون الحضارة الغربية عن كثب ، لا عن كتب ، بل يخوضون فيها ، ويسبرون غورها ، ويعجمون عودها ، كأي شباب غربي مثقف من أبناء البلد، ويدرسون الفلسفات والنظم والمدارس الفكرية ، ويطلعون على دخائلها وأسرارها ، وعلى الطبيعة الغربية المادية ، والنخوة القومية الأوروبية ، والاثرة الشعبية في نفوس هذه الشعوب ، ويرون جوانب الضعف وبوادر الإفلاس وطلائع الانهيار في المجتمع الغربي ، ويلاحظون العناصر الصالحة البناءة ، المسعدة للبشرية ، المفقودة في تركيب هذه الحضارة ، وفي طبيعة زعمائها وحملة لوائها ، وعناصر الفساد الهدامة المدمرة للمدنية ، المضللة للبشرية ، الموجودة في عجينها ، المركبة مع طينها من اليوم الأول ، فيثير كل ذلك في نفوسهم وعقولهم معانٍ وأحاسيس لم تكن ممكنة إلاّ مع الإقامة الطويلة في أوروبا ، والتعمق في فلسفاتها وأفكارها والدراسة المقارنة ، وإلاّ مع النظر العميق الجريء ، والتحرر من ربقة التقليد ، وإلاّ مع الإيمان الذي لم يتجردوا عنه ، بل بقي جمرة في رماد مستعدة للالتهاب في كل وقت ، فيرجع كثير منهم يائساً من مستقبل الحضارة الغربية ، ثائراً عليها ، ناقداً نقداً جريئاً عميقاً متزناً ، لا تطرف فيه ولا إنكار للواقع ، ولا مكابرة في الحقائق .

لقد كان في مقدمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال (١) الذي يعتبر بحق أنبغ عقل أنتجته الثقافة الجديدة التي ظلت تشتغل وتنتج في العالم الإسلامي من قرن كامل ، وأعمق مفكر أوجده الشرق في عصرنا الحاضر ، ولم نر من نوابغ الشرق وأذكيائه ـ على كثرة من أم الغرب منهم ودرس هناك ـ أحداً نظر في الحضارة الغربية هذا النظر العميق وانتقدها هذا الانتقاد الجريء .

إن محمد إقبال قد لاحظ جوانب الضعف الأساسية في هـــذه الحضارة وتركيبها ، والفساد الذي عجنت به طينتها لاتجاهها المادي وثورة أصحابها على الديانات ، والقيم الخلقية والروحية عند نهضتها ، وعلــل فساد القلب والفكر الذي اتسمت به هذه الحضارة بكون روح هذه المدنية ملوثة غير عفيفة ، وقد جردها تلوث الروح عن الضمير الطـــاهر ، والفكر السامي والذوق

---

(١) ولد محمد إقبال بن نور محمد في « سيالكوت » مدينة في مقاطعة بنجاب سنة ١٨٧٧ م وانضم إلى كلية الحكومة في « لاهور » حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة وأخذ درجة ماجستر (m. a.) في الفلسفة بامتياز ، وعين أستاذاً للفلسفة والانجليزية في نفس الكلية . وسافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ ، حيث التحق بجامعة كمبردج وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم الاقتصاد ، وسافر إلى ألمانيا وأخذ من جامعة ميونيخ الدكتوراة في الفلسفة . ثم رجع إلى لندن، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصص في المادتين ، وألقى عدة محاضرات في مدراس ، وأخرى في جامعة كمبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناءاً عظيما ، وترجم أكثر كتبه إلى الانكليزية والفرنسية والألمانية والطليانية والروسية. وانتخب رئيساً للرابطة الإسلامية ١٩٣٠ م وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وعرض في خطته فكرة باكستان لأول مرة، ومثل « مؤتمر المسلمين » في مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣١ م — ١٩٣٢ م . وأقامت له جامعة أرسطو ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما حفلات تكريم ، توفي في ٢١ أبريل سنة ١٩٣٨ م وشيعت جنازته في حشد كبير قلما شهد مثله ، ورثاه وأبنه كبار الزعماء وقادة الفكر ، ورؤساء الحكومات، له سبعة دواوين في الفارسية، وثلاثة في (أردو) ، ومحاضرات في الانجليزية .

السليم[1] » ، وتسلط عليها ـ رغم المدنية الباذخة ، والحكومات الواسعة ، والتجارة الرابحة ـ القلق الدائم ، لقد أظلم الجو في عواصمها بدخان المصانع المتصاعد الكثيف ، ولكن بيئتها ـ على كثرة أنوارها ـ غير متهيئة لفتح جديد في الفكر وإشراق من عالم الغيب[2] » إنه نوّه بأساس الحضارة اللادينية وبأنها عجزت مع الثورة على الدين ، فهي في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق ، وإنها عاكفة على عبادة آلهة المادة ، وتؤسس لها معبداً جديداً ، يقول في ديوانه : « ماذا ينبغي أن تعمل شعوب الشرق ؟ » :

« ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق ، إن هذه الفتّانة تجلب فتناً وتعيد اللاّت والعزّى إلى الحرم ، إن القلب يعمى بتأثير سحرها ، وإن الروح تموت عطشاً في سرابها ، إنها تقضي على لوعة القلب بل تنزع القلب من القالب ، إنها لصّ قد تمرن على اللصوصية فيغير نهاراً وجهاراً ، وإنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له[3] » .

يقول : « إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية والفتك بأفراد النوع البشري ، وإن شغلها الدائم التجارة ، إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء وبالحب البريء النزيه والإخلاص لله إلاّ حين تنهار هذه الحضارة الجديدة » ، يقول في الديوان الذي مرّ ذكره :

« إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم الذي تقوم عليه تجارتها وتنفق سلعتها ، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم ، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام

---

(١) ضرب كليم ص ٦٩ .
(٢) ضرب كليم ص ١٤١ .
(٣) مثنوي پس جه بايدكرد (ماذا ينبغي الشرق أن يعمل ؟) ص ٤١ .

ما لم يعد هذا النظام رأساً على عقب [١] » .

إنها حضارة شابة – بحداثة سنها ، والحيوية الكامنة فيها – ولكنها محتضرة تعاني سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها ، ولا غرابة في ذلك فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار » ، ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود [٢] » . « إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار ، وجدرانها من زجاج لا تحتمل صدمة [٣] » . « إن الفكر المارد الذي أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدم [٤] » . « إن العصر يتمخض عن عالم جديد ، وإن العالم القديم الذي حوله الغربيون مكاناً للقمار « يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الأمم » يلفظ نفسه [٥] » . « إن نور الحضارة باهر ، وشعلة حياتها ملتهبة وهاجة ، ولكن لم يكن في ربوعها من يمثل دور موسى فيتلقى الإلهام ، ويتشرف بالكلام ، ولا من يمثل دور إبراهيم فيحطم الأصنام ، ويحول النار الى برد وسلام [٦] » . « إن عقلها الجريء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة ، إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون – حتى في ابتكارهم وثورتهم – عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة » [٧] .

« لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة في أوروبا ، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة ، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء ،

---

(١) مثنوي پس چه بايد كرد (ماذا ينبغي الشرق أن يعمل ؟) ص ٣٧– ٣٨ .
(٢) ضرب كليم ص١٤١ ، يشير إلى نفوذهم الزائد وثقة أوروبا النصرانية بهم.
(٣) بال جبريل .
(٤) أيضاً ١٧٦ .
(٥) أيضاً ١٧٦ .
(٦) پيام مشرق ص٢٤٨ ، وفيه أن أوروبا لم تكن أرض النبوة والأنبياء من الزمن القديم ولم يكن فيها إشراق روحاني إنما ازدهرت فيها الماديات .
(٧) أيضاً ،

وحسن المظهر والنظافة ، إن تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسر ملايين ، إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح به أوروبا إلا مظاهر جوفاء ليست وراءها حقيقة ، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب ، وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، إن البطالة والعري وشرب الخمر والفقر هي فتوح المدنية الافرنجية ، إن الأمة التي لا نصيب لهـــا في التوجيه السماوي والتنزيل الإلهي غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار ، إن المدنية التي تتحكم فيها الآلات ، وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ، ويقتل فيها الحنان والوفاء، والمعاني الإنسانية الكريمة[١] » .

وقد كان انتقاده واستعراضه للحضارة الغربية وأسسها ومناهج تفكيرها في محاضراته العلمية التي ألقاها في « مدراس » ونشرت بعنوان : « تجديد الفكر الديني في الإسلام [٢] » أعمق وأكثر تركيزاً بطبيعة الحال ، لأن جو البحوث الفلسفية غير جو الشعر والأدب ، فقال وهو يتحدث عن طبيعة الحضارة المادية في الغرب والإنسان المعاصر الذي يمثلها ويتزعمها ، وعن الأمة والمشكلات التي يعانيها :

« الرجل العصري بما له من فلسفات نقدية ، وتخصص علمي يجد نفسه في ورطة ، فمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليـــه ، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو [٣] » .

« الإنسان العصري وقد أعشاه نشاطه العقلي ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أي إلى حياة روحية تتغلغل في أعماق النفس ، وهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه ، وهو في مضمار الحياة الاقتصادية

---

(١) بال جبريل .

(٢) Reconstruction of Religious thought in Islam .

(٣) المصدر المذكور ترجمة عباس محمود ٢١٤ .

والسياسية في كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبّه للمال حبّاً طاغياً ، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ، ولا يعود عليه منه إلاّ تعب الحياة ، وقد استغرق في « الواقع » أي في مصدر الحس الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، تلك الأعماق التي لم يسبر غورها بعد ، وأخف الأضرار التي أعقبت فلسفته المادية ، هي ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه ، والذي أدركه هكسلي (Huxley) وأعلن سخطه عليه [١] ».

« والاشتراكية الملحدة الحديثة – ولها كل ما للدين الجديد من حمية وحرارة – لها نظرة أوسع أفقاً لكنها قد استمدت أساسها الفلسفي من المتطرفين من أصحاب مذهب هيجل (Hegel) وقد أعلنت العصيان على ذات المصدر الذي كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف ، وهي إذن ليست بقادرة على أن تشفي علل الإنسانية [٢] ».

ومحمد إقبال يصف هذا المجتمع – الأوروبي – بمجتمع يحركه تنافس وحشي وهذه الحضارة بحضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية [٣]

وينظر محمد إقبال – ككل مطلع خبير الى الرأسمالية والشيوعية كفرعين من دوحة المادية وأسرتين للحضارة الغربية ، إحداهما شرقية ، والأخرى غربية ، تلتقيان على النسب المادي ، والتفكير المادي ، والنظر المحدود الى الإنسان ، ويقول بلسان جمال الدين الأفغاني – في رحلة فكرية تخيلها واجتمع به فيها – : « ان الغربيين فقدوا القيم الروحية والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن

---

(١) Reconstruction of Religious thought in Islam ص ٢٠١ – ٢١٦ .
(٢) أيضاً ص ٢١٦ – ٢١٧ .
(٣) أيضاً ص ٢١٧ .

الروح في « المعدة » إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لا شأن لها إلاّ «بالمعدة والبطن » وديانة «ماركس» مؤسسة على مساواة البطون، إن الأخوة الإنسانية لا تقوم على وحدة الأجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب ، وألفة النفوس [١]».

« إن الملوكية والشيوعية تلتقيان على الشره والنهامة ، والقلق والسآمة ، والجهل بالله والخداع للإنسانية ، الحيـــاة عند الشيوعية « خروج » ، وعند الملوكية « خراج » ، والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة زجاج ، إن الشيوعية تقضي على العلم والدين والفن ، والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادة ، جسمهما قوي ناضر ، وقلبهما مظلم فاجر [٢] » .

الحضارة الغربية والأقطار الاسلامية :

ويعتقد محمد إقبال أن هذه الحضارة غير قادرة على إسعاد البلاد الإسلامية ، وإعادة الحياة إليها ، يقول :

« إن الحضارة التي قد أشرفت على الموت لا تستطيـــع أن تحيي غيرها [٣]» . وقد جزت من إحسان هذه البلاد الشرقية إساءة من جانبها ، وكافأت خيرها بشر ، فقد منحها الشام نبياً [٤] رسالته العفة والمؤاساة والرحمة ، ومقابلة الشر بالخير ، والظلم بالعفو ، وقد منحته أوروبا – بدورها ومقابل كل ذلك – الخمر

---

(١) جاويد نامة، مأخوذ من « روائع إقبال » للمؤلف ص ١١٣ – ١١٤ ،
(٢) أيضاً.
(٣) ضرب كليم ص ٦٨ ،
(٤) يشير إلى سيدنا عيسى عليه السلام .

والقهار ، والفجور وهجوم المومسات [١] » .

نقده لدعاة التجديد في الشرق :

إنه يسيء الظن بدعاة التجديد ـ وبالأصح التغريب ـ في الأقطار الإسلامية ، ويخشى أن تكون الدعوة إلى التجديد حيلة وستاراً لتقليد الإفرنج [٢] ، يقول :

« إنني يائس من زعماء التجديد في الشرق ، فقد حضروا في نادي الشرق بأكواب فارغة ، وبضاعة مزجاة في العلم والفكر » .

« إن البحث عن « برق جديد » في هذا السحاب عبث وإضاعة وقت ، فقد تجرد هذا السحاب الجهام عن البرق القديم ، فضلاً عن البرق الجديد [٣] »

إنه يعارض التقليد الأعمى في أمة من الأمم ، ولا سيما الأمة التي خلقت لقيادة الأمم وإحداث الثورة في العالم ، ويقول :

« إن الذي يأتي بالجديد في هذا العالم الذي يتجدد دائماً هو نقطة الدائرة التي يطوف حولها الزمان ، لا تعطل شخصيتك ـ أيها المسلم ـ بالتقليد الأعمى ، واحتفظ بكرامتك فإنها الجوهر الفرد ، إن التجديد (بمعنى التغريب) لا يليق إلا بأمة لا تفكر إلا في الدعة والترف ، إنني أخاف أن الدعوة إلى التجديد إنما هي حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب [٤]

(١) ضرب كليم ص ١٥٠ .
(٢) أيضاً ص ١٧٠ .
(٣) ضرب كليم ص ٦٩ ، يشير الى أن هؤلاء المصلحين وثقافتهم القديمة وثقافتهم الجديدة ضعيفتان محدودتان ، ليس لهم في احداهما كعب عال ولا باع طويل .
(٤) ضرب كليم ص. ١٧٠ .

إنه يعاتب الأمم الشرقية الإسلامية التي كان دورها دور التوجيه والقيادة ، وأصبحت تمثل دور التلمذة الخاشعة ، والتقليد الذليل ، يقول ـ وكأنه يشير إلى الشعب التركي الإسلامي ومن كان على شاكلته ـ :

« إن أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يقودوا عصرهم أصبحوا بسخافتهم يقلدونه ويمشون وراءه [١] » .

وفي « جاويد نامه » يحكي محمد إقبال انتقاد الأمير سعيد حلـــيم باشا للثورة التي قام بها أتاتورك في تركيا ، ويذكر سطحيتها وتفاهتها ، وأن زعيمها وقائدها محروم من كل إبداع وابتكار ومن كل أصالة في التصميم والتخطيط وأنه ليس إلاّ مقلداً أعمى لأوروبا ، يقول :

« إن كمال الذي تغنى بالتجديد في حياة تركيا ودعا إلى محو كل أثر قديم وتراث قديم ولكنه جهل أن الكعبة لا تجدّد ولا تعود إلى الحياة والنشاط إذا جلبت لها من أوروبا أصنام جديدة، إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة إنما هي كلها أغان مردّدة معادة تتغنى بها أوروبا من زمان ، ان الجديد عنده هو القديم الأوروبي الذي أكل عليه الدهر وشرب ، ليس في صدره نفس جديد وليس في ضميره عالم حديث فاضطر الى أن يتجاوب مع العالم الاوروبي المعاصر ، إنه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته [٢] »

إيمانه بفضل الحضارة الاسلامية وحيويتها :

إنه شديد الإيمان بما تضمره الحضارة الإسلامية والشريعة الإسلامية من حيوية خالدة وقوة دافقة ، وامكانيات واسعة لتكوين عالم جديد ، وتأسيس مجتمع

---

(١) بال جبريل .
(٢) جاويد نامه ص ٧٢ .

جديد ، يقول في خطبته التي ألقاها رئيساً لمؤتمر الأحزاب الإسلامية في دهلي سنة ١٩٣٣ م مخاطباً للمسلمين :

« إن الدين الذي تحملون رايته يقرر قيمة الفرد ، ويربيه تربية تجعله يبذل كل ما عنده في سبيل الله وفي صالح عباده ، إن مضمرات هـذا الدين القيم وكوامنه لم تنته بعد ، إن في استطاعته أن يوجد عالماً جديداً يحيى فيه الفقراء أغنياء ، لا يقوم فيـه المجتمع البشري على مساواة البطون ، بل يقوم على مساواة الأرواح » .

المعمل الاسلامي الجديد :

ولذلك كان يعتقد ـ بكل إخلاص وحمـاسة ـ أنه لا بد من وجود رقعة حرة تقوم فيها عملية الحياة الإسلامية ، بجميع نواحيها وشعبها ، وتتجلى فيها عبقرية الشريعة الإسلامية وعدل النظام الاسلامي ، وتستطيع فيهـا الطريقة الإسلامية في الحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً وثقافياً ، ولما كانت الهنـد ـ كما قال في خطبة رئاسته للعصبة الإسلامية سنة ١٩٣٠ م ـ قطراً تسكن فيه جالية تكوّن أكبر مجموعة إسلامية في بلد واحد ، كانت أحق بتقديم هذه التجربة ، وبتكوين هذا المركز الإسلامي ، وبتعبير أدق المعمل الذي يثبت فيه الإسلام صلاحيته لتكوين المجتمع الصالح ، وتنظيم الحياة الاجتماعية ، وحل المشكلات الاقتصادية ، وتوجيه المدنية توجيهاً صالحاً ، والتطبيق بين العقيدة والعمل ، والروح والمادة ، والفرد والجماعة ، تطبيقاً يثير العجب والإعجاب ، ويحمل قادة الأقطار الإسلامية على التقليد ، ويحمل المفكرين في العالم على التفكير في أسلوب جديد .

كان هذا النظر البعيد ، وهذا الطموح الذي لم يعرف نظيره في العـالم الاسلامي ، أساس مملكة باكستان ، وقد تحقق هذا الحلم البعيد في سنة ١٩٤٧م

وقامت دولة باكستان ، وقد اعترف الزعيم محمد علي جناح بهـــذا الأساس الفكري الذي قرره محمد إقبال وتغنى به ، فقال في أول خطبة خطبها بعد قيام باكستان :

« لقد أصبحت باكستان التي كافحنا في سبيلها عشر سنين كوامل، حقيقة ملموسة ، ولكن يجب أن لا ننسى أن قيام مملكتنا الحرة ليست غاية ، إنما هي وسيلة ، إن الغاية والهدف النهائي قيام مملكة نعيش فيها أحراراً ، ونتقدم بها وفق طبيعتنا الخاصة وثقافتنا ، وتنفـّذ فيها مبادىء العـــدالة الاجتماعية في الاسلام بحرية [١]» .

وقد صرح بمثل ذلك السيد لياقت علي خان رئيس وزراء باكستان سابقاً في ١٤ يناير ١٩٤٨ م في اجتماع في بيشاور فقال :

« إن باكستان معمل لنا ، وسنبرهن به أمام الدنيا على صلاحية المبادىء الإسلامية التي جاءت قبل ثلاثة عشر قرناً وقيمتها » .

وقد جاء في حديث آخر له عام ١٩٥٠ م :

« إننا طالبنا بباكستان ليعيش فيها المسلمون وفق تعـــاليم الاسلام ، إننا أردنا معملاً نقيم فيه دولة مؤسسة على مبادىء إسلامية لم يتمخض العالم بأفضل منها [٢] » .

ولكن هذه العملية ــ التي لا تساويها عملية في الضخامة والدقة والخطورة وبعد النتائج ــ لا تقوم ولا تتحقق إلاّ على أيدي القادة الذين يؤمنون بخلود الشريعة الإسلامية وفضل الحضارة الإسلامية إيماناً لا يشوبه شك ، ويخلصون

Speeches Quaid - Azam, Mohammad Ali Jinnah, P 22. (١)

(٢) جريدة « نوائي وقت » الباكستانية ٨ يناير سنة ١٩٥٠ .

لها إخلاصاً لا يشوبه نفاق ، ويتجردون من ربقة الحضارة الغربية والإيمان بقيمها وأسسها ، ومن رقّ الثقافة الأجنبية تحرراً كاملاً ، ويجمعون - على الأقل - بين الإيمان الراسخ والشجاعة الخلقية والمقدرة على استخدام الوسائل والطاقات التي أحدثتها العلوم الحديثة ، وتكييفها للمجتمع الإسلامي الحر .

العملية في الامتحان :

ولكن هذه العملية — التي قفزت إلى الوجود لأسباب تاريخية وسياسية ، وفاجأت العالم المعاصر — لم تجد فرصة تهيئة هذا الجيل وإعداد هذه القيادة ، وقد عجز نظام المعارف الغربي السائد في الأقطار الشرقية ، وعجزت الجامعات الغربية التي تلقى فيها هؤلاء السادة ثقافتهم عن أن تنتج أحسن منهم في عامة الأحوال ، وعن أن تنتج غير هذا الطراز من التفكير ، وغير هذا الأسلوب من الحياة ، والشجرة لا تلام على ثمرتها الطبيعية ، ولا يرجى تغيير هـــذا الوضع ، ووجود القيادة التي تحقق هذه العملية حتى يغير نظام المعارف ونظام التثقيف والتربية في هذه البلاد ، ويمنح الإسلام والمجتمع الإسلامي حق تخريج واختيار من يتولى قيادته ويقرر مصيره مطابقاً لعقيدته وفطرته وآماله وحاجاته ، وهو حق طبيعي لكل شعب ، ولكل مجتمع ، لا يجوز جحوده في أي عصر وفي أي مكان .

ومن المؤسف أنه ـ في هذه المدة غير اليسيرة ـ منذ أنشئت باكستان ، لم يقم زعماؤها بخطوة جريئة نحو توجيه المعارف — التي هي العمود الفقري لتوجيه دولة أو شعب — وإنشائها إنشاء جديداً يتفق مع روح الإسلام وأهدافه وصياغة المجتمع صياغة إسلاميـــة ووضع دستور إسلامي وسد منابع الفساد والتفسّخ الخلقي والفوضى الفكرية ، ولم تكن هناك محاولة مخلصة جدية تدل على أن باكستان معمل إسلامي جديد تثبت فيه أهمية الحياة الإسلامية وصلاحية القانون

الإسلامي وتفوق الحضارة الإسلامية وتقدم فيه أسوة عملية للأقطار الإسلامية النـاهضة بل ـ بالعكس من ذلك ـ قد برهنت بعض التشريعات وبعض «الاصلاحات» وبعض الاتجاهات ، على أن واضعي الدستور في باكستان وولاة أمرها ليسوا مأخوذين بالأفكار الغربية وقيمها فحسب ، بل يعتبرونها أساساً للتشريع وشرطاً لتقدم البلاد ، ومسايرتها للعصر الجديد .

مهما كان فإن انصراف باكستان عن أهدافها الأساسية الأولية وتقليد البلاد العلمانية (Secular) والعصرية (Modernist) الأخرى ، ستكون مأساة ضخمة في العصر الحديث وغدراً بذمة الملايين من المسلمين الذين تحملوا في سبيلهـا من المصائب ما يشيب لهولها الأبدان ، وقدموا لها ثمناً من الدماء والأرواح والأعراض باهظاً ، ثم إن هذا التنكر والانحراف يخمدان العاطفة الدينية التي لم تزل تراود نفوس العاملين للإسلام ، والتي دفعت أخيراً إلى إنشاء دولة باكستان ، ويزهد أكثرهم في إعادة هذه التجربة والمغامرة في سبيلها ، ولا يسمح التاريخ الذي سجّل هذه التجربة المخفقة ، والذي لا يحابي أحداً بتكرير هذه التجربة وعقد الآمال الجسيمة بها ، وقد نبّه إلى ذلك الاستاذ سمث (Wilfred Cantweu Smith) في أسلوب جميل ، إنه يقول في كتابه : (Islam in Modern history) .

« ربما يتخيل الباكستانيون أن عملية تكوين المجتمـع الإسلامي صعبة وعسيرة أكثر مما قدّروها أول الأمر ، ولكننا إذا تأملنا في هذه القضية رأينا أنه لا مفر لهم الآن ، لقد كانت وعودهم ومزاعمهم صريحة واضحة إلى حد لا يمكن التسلل منها والاغماض عنها ، سيكون تاريخهم الآن « تاريخ الإسلام » لقد وقعت على عواتقهم مسئولية ضخمة ، انهم لا يستطيعون ـ راضين أو كارهين ـ أن يصرفوا النظر عن فكرة « الحكم الإسلامي » أو يتركوها لمدة طويلة في المستودعات ، ذلك بأن القضاء على هذه الفكرة لا يعني التعديل في الأسلوب والمنهج ، بل انه يعني الضربة القاضية على الدين والوطن ، ويستنتج العالم منه شيئاً واحداً ، وهو أن نظرية الدولة الإسلامية نظرية فارغة وأن شعارهـا

وهتافها تضليل وخداع لا غير ، وهي لا تستطيع أن تساير مطالب الحياة المعاصرة ، ويؤمن بأن أهل باكستان أخفقوا في تطبيقها على حياتهم القومية كأمة وشعب ، وفي هذه الحال تصبح معتقدات المسلمين موضع شك ومحل نقاش ونقد في نظر العالم [١] » .

كان من الممكن التفادي من هذا الوضع المؤلم ، وكان من الممكن أن تكسب الفكرة الإسلامية المعركة في باكستان وأن يكون لها انتصار أكبر على خصومها ومعارضيها وأن تكتسب أكبر عدد من الأنصار والأصدقاء من الطبقة المثقفة والحاكمة ، وأن تقصر الفجوة — على الأقل — بين دعاة الفكرة الإسلامية وبين أصحاب الفكرة الغربية حتى يتعاونوا على بناء المجتمع الإسلامي الجديد. ونجاح التجربة العظيمة التي قامت لأجلها باكستان ، كل ذلك كان ممكناً لو كتب النجاح والتوفيق لدعاة الفكرة الإسلامية وزعمائها، وحازوا ثقة جميع الطبقات في البلاد وتقديرها ، وملأوا الفراغ الهائل الموجود في عقول الطبقة المثقفة ونفوسها وقلوبها ، ووفقوا للجمع بين الشخصية القوية الحبيبة ، والعلم الفائق ، والفكر النير ، والربانية الصافية المشرقة ، والعزوف عن المطامح والمناصب ، والانقطاع للدعوة والتوجيه وبذل النصح للجميع ؛ الصفات التي تكونت بها العقيدة الدينية في الماضي فأنتجت أكبر إنتاج وغيرت مجرى التاريخ في بعض الأحيان [٢].

الجماعة الاسلامية ، ودورها في نقد الفكرة الغربية :

ومع الاحتفاظ بحق الملاحظة والنقد لبعض نظريات الجماعة الإسلامية [٣]

---

(١) Islam in Modern History P. 200

(٢) إقرأ على سبيل المثال المنهج الذي آثره الامام الشيخ أحمد السرهندي في القرن الحادي عشر الهجري لتحويل الحكم الثائر على الاسلام الى حكومة إسلامية في الهند (راجع رسالة المؤلف) « الدعوة الاسلامية في الهند وتطوراتها » .

(٣) تأسست هذه الجماعة في الهند سنة ١٩٤١ م واتخذت باكستان مركزها الرئيسي بعد التقسيم سنة ١٩٤٧ م .

الذي هو حق كل مؤلف وباحث، ورغم الاختلاف في بعض التعبيرات وفهم بعض الحقائق الدينية، وأسلوب عرضها، الذي يتسع مجاله في كل عصر، لا بد من الاعتراف بقيمة الدور الذي لعبته الجماعة الإسلامية – في الهند وباكستان – ومؤسسها الاستاذ أبو الأعلى المودودي، في نقد الفكرة الغربية وتزييفها من الوجهة العلمية والدينية، ومعارضة القيم والمفاهيم الغربية وأسس الفلسفة المادية التي قامت عليها الحضارة الغربية، وقد آثر الاستاذ أبو الأعلى[١] طريقة المهاجمة للفكرة الغربية ومواجهتها بقوة وثقة، ونقد وتحليل، آثرها على طريقة الدفاع عن الإسلام والتماس العذر له وتبرير موقفه بالملابسات التي اكتنفت عصره وبيئته الطريقة التي تبناها السيد أحمد خان وأصحاب مدرسته في الهند، والشيخ محمد عبده وتلاميذه في العالم العربي، وكان للطريقة الأولى أثرها الطبيعي في عقل الجيل المثقف الجديد الذي آمن بتفوق الفكرة الغربية وقدسيتها، وبعدها عن نقد الناقدين، وأنها قضية مسلّمة لا تقبل بحثاً ولا جدالاً. وقد كان لهذه الطريقة فضل كبير في اضعاف سلطان الفكرة الغربية وهيمنتها على عقول الشباب ونفوسهم، ومقاومة « مركب النقص » فيهم، وكانت هذه الفائدة تتسع وتتضخم لو قدر لقائد هذه الجماعة أن ينقطع إلى هذه الناحية العلمية ويركز عليها جهوده، ويقيّض له أعوان وزملاء، يهبون لهذا الموضوع مواهبهم وطاقاتهم، فإنها هي الجبهة التي تجري عليها حرب دامية حاسمة ستقرّر مصير الأقطار الإسلامية في العصر الحاضر.

وقد أفادت البحوث التي صدرت عن قلم الاستاذ أبي الأعلى المودودي من ناحية زيادة الثقة بفضل التعاليم الاسلامية، وجدارتها للبقاء والانتشار، وصلوحها للسيادة والحكم. وقد كان كذلك لبحوثه العلمية الأولى التي تكلم فيها عن مستوى عال، وفي أسلوب قوي، ولمقالاته ورسائله في مشكلات العصر

---

(١) كمعاصره الاستاذ محمد أسد النمساوي وبعض المعدودين من الكتاب الاسلاميين.

وحلولها الاسلامية دوي في الأوساط الإسلامية التي كانت تعاني قلقاً فكرياً. وكانت في دور انتقال . ولا تزال هذه الأوساط في حاجة ملحة إلى زاد فكري ومدد علمي ، لمواجهة تحديات الفكرة الغربية ، وحل المشكلات العصرية ، وتطلب من الكتاب الاسلاميين المزيد الجديد من الأدب الاسلامي القوي في أسلوبه وعرضه ، الأصيل في تفكيره ، وبحوثاً تحليلية أكثر عمقاً وتركيزاً للقضايا الاقتصادية السياسية التي تشغل الفكر العام . وتطلب مجامع علمية تقوم في نواحي العالم الاسلامي وتركز جهودها على ملء هذا الفراغ ، وتحقيق رغبة الجيل الإسلامي المثقف الحديث في مطالعة الكتاب الإسلامي الذي يعرض الفكرة الاسلامية في نقاء وصفاء وقوة وإيمان ، ويخلو من كل شبح للخضوع للفكرة الغربية .

أهمية الدور الذي تمثله مصر في العالم الاسلامي :

وكانت مصر – منذ عهد محمد علي باشا وجلاء الفرنسيين – في ١٧٩٩م المجال الثالث الرئيسي الذي ظهر فيه صراع الشرق والغرب ، الفكري والثقافي والحضاري والاجتماعي في أبرز مظاهره وأقواها ، فقد بذرت الحملة الفرنسية وبقاء إدارتها وقيادتها للأمور مدة[١] – قصيرة بحساب الشهور ، طويلة بحساب التأثير والنفوذ – بذوراً عميقة في التربة المصرية ، والعقلية الإسلامية العربية ، واحتك الشرق بالغرب في أرض مصر احتكاكاً مباشراً ، ووصل بين الشرق والغرب بعثات علمية وثقافية عني بإرسالها محمد علي للإستفادة من الغرب ونظمه وعلومه ، وللتقدم بمصر في مضمار العلم والصناعة والفنون والإدارة ، حملت إلى مصر ثمرات الثقافة الغربية ، ثم أنشأت ترعة السويس – في عهد إسماعيل – تصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فتحدث انقلاباً في تاريخ السياسة والتجارة العالمية ، وترفع الفجوة بين العالمين الغربي والشرقي وتسهل مهمة اللقاء

(١) وهي مدة ثلاث سنين وشهرين من ٢٤ يوليو ١٧٩٨ م – سبتمبر ١٨٠١ م ،

والإلتقاء ، وكان هدف إسماعيل الأكبر أن يجعل مصر قطعة من أوروبا .

وكانت مصر بخصائصها الكثيرة التي لا يشاركها فيها أحد جديرة بأن تكون ملتقى يلتقي فيه مافاقت فيه أوروبا — بجهدها وكفاحها — من العلوم التطبيقية ، والوسائل الحديثة ، وما خص الله به الشرق الإسلامي من علم ويقين وأسس صالحة خالدة للحياة السعيدة ، ومحركات ودوافع قوية نبيلة لا تنبثق إلا من العقيدة القوية والقلب الفائض بالإيمان والحب ، وكانت مصر من أوفر البلاد نصيباً من هذه الثروة الكريمة ، ومن أقدرها على توسيعها وتوزيعها بفضل غناها في اللغة العربية والعلوم الدينية ، ووسائل الطبع والنشر ، ووجود الأزهر — أكبر مركز ثقافي ديني في العالم الإسلامي — وبفضل مرونة العقل المصري ، وقدرته القديمة على الأخذ والإعطاء ، والتأثر ، وكانت جديرة بأن تضرب مثلاً صالحاً للعالم الإسلامي وللأقطار الشرقية للتبادل الحر الشريف المؤسس على الشعور بالكرامة والثقة بالشخصية ، والتمسك بالعقيدة في جانب وروح السماحة والانصاف ، وتقدير العلم والحكمة ، والترحيب بالصالح النافع في جانب آخر ، التبادل الذي لا يخسر فيه الميزان ، ولا يطفف فيه الكيل .

الحاجة إلى قناة جديدة :

لقد كان لمصر أن تنشىء قناة أفضل من قناة السويس ألف مرة ، وأعود منها على الشعوب الإنسانية بالخير والسعادة ، وأعمق منها تأثيراً في اتجاه العالم ومصير الشعوب والأمم ، وأوسع تأثيراً في التاريخ الإنساني ، هي قناة التعارف الصحيح المتبادل المتوازن بين الشرق والغرب ، قناة تصل الشرق المتخلف في العلوم الطبيعية والصناعات المفيدة بالغرب الذي قد بلغ الذروة فيها ، وتصل الغرب الحائر المتخم بقوته المادية ، المفلس في الروح والاخلاق ، اليائس المتشائم ، السالك في سبيل الإنتحار ، بمنابع الرضا والهدوء والأمن العاطفي ، والثقة المتبادلة والامل القوي في مستقبل الإنسان ، الكامنة في

رسالات الشرق الدينية والروحية التي يمثلها الإسلام في شكلها الكامل النهائي ، وتصل وسائل الغرب الهائلة الجبارة المكدسة التي لا تعرف غايــة ، بغايات الشرق النبيلة الكريمة الرحيمة التي لا تملك وسيلة ، تصل الغرب الذي يستطيع ولا يريد ، بالشرق الذي يريد ولا يستطيع ، فيفيض كل واحد منهما على الآخر أفضل ما عنده ، ويتعاونان — تعاون الشقيقين — في إسعاد البشرية ، وتهذيب المدنية ، هذه القناة الثقافية العقلية التي تعتبر — لو تحققت وظهرت إلى الوجود — فتحاً جديداً في العالم ، ومأثرة تاريخية تشغل أعظم مكان مشرف في التاريخ الحديث ، وتكسب لمصر الزعامة الخالدة ، وأشرف مركز تطمح اليــه القلوب والأبصار .

لقد كانت مصر جديرة باحتلال هذا المركز الخطير ، وتمثيــل هذا الدور العظيم ، لو تهيأ لها — في أول عهدها بالحضارة الغربية والثقافة الأجنبية — إيمان قوي بخلود الرسالة الدينية التي أكرمها الله بها بالإسلام ، وشدة حاجة الانسانية إليها ، والعزم الصحيح على الإخلاص لها ، والاتصاف بصفاتهـا ، والتفاني في سبيلها ، والهضم الصحيح القوي للعلوم العصرية ، وتقوية نفسها بها واخضاعها للدور الذي يجب أن تمثله في العالم المعاصر ، وتهيأت لها شخصيات موجّهة قوية .

موقف مصر التقليدي الضعيف :

ولكن الظروف والأوضاع السياسية والتعلمية قد صرفت مصر — زعيمة العالم العربي الاسلامي — عن تمثيل هذا الدور العظيم ، دور القيادة والتوجيه ، ودور التأثير في العالم الغربي ، وجعلتها تقف من العالم الغربي موقف التلميذ ، وموقف المقلد المقتبس ، وجعلت مهمة هذه القناة الثقافية الفكرية مقصورة على الاستيراد فقط ، استيراداً لا تتجلى فيه شخصية مصر الإسلامية العربية والعقلية الناضجة الناقدة .

من أهم هذه الأوضاع التي اتجهت بها مصر هذا الاتجاه الضعيف الذي أساءت به مصر إلى نفسها ، والى العالم العربي الذي تولت زعامته وقيادتـــه ، الوضع السياسي القائم الذي كانت تعيش فيه مصر في القرن التاسع عشر ، ويشاركها فيه العالم الاسلامي بصفة عامة ، عصر النفوذ الاجنبي والإحتلال البريطاني ، الاحتلال المباشر ، أو غير المباشر ، فقد شغل هذا الوضـــع – غير الطبيعي – تفكـــير قــادة الفكر في العــــالم الاسلامي ، واستنفد جهودهم ومواهبهم ، ولم يدع لهم مجالاً في التفكير ولا سعـــة في الوقت ، ولا فضلاً في الذكاء .

السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده :

كان السيد جمال الدين الافغاني عقلية نابغة وشخصية قوية عرفت الغرب دراسة وسياحة وثقافة وسياسة ، ولكن يكتنفها شيء كثير من الغموض ، ولا يدل ما سجل من حديثه ومحاضراته وكتاباته وما يرويه تلاميذه والمعجبون به من سيره وأخلاقه وعلمه دلالة واضحة على مكنونات نفسه الكبيرة وحياته الشخصية ونظراته في الحضارة الغربية وقيمها ومبادئها ، وقد كان من الرجال المعدودين الذين يؤمّل فيهم أن يقوموا في ذلك العصر لمواجهة حضارة الغرب وفلسفاته المادية ونقدها ، وصيانة الشرق من سيطرتها وسلطانهـــا الفكري ، ومنعه من الانجراف الذي يُفقده شخصيته ورسالته ، ولكن كتابه الصغير الذي وضعه في الرد على الدهريين وأعداد مجلة « العروة الوثقى » التي كان الموجه لها والمشرف عليها ، لا تدل على مقدرته على تحقيق هذا الغرض وأداء هذه الرسالة ، ولكن الدكتور محمد إقبال كان شديد الإعجاب بشخصيته ، كبير الثقة بقدرته في ملء الفراغ الذي وقع بين نظام العقيدة والفكرة والخلق القديم وبين نظام العصر الجديد ، وإعادة الثقة إلى الجيل الإسلامي الجديد بخلود الإسلام وجدارته للبقاء والكفاح ، يقول في إحدى محاضراته التي ألقاها في (مدراس) :

« إننا نحن المسلمين نواجه عملاً ضخماً ، إن واجبنا أن ننظر في الإسلام من جديد بصفته نظاماً فكرياً ، من غير أن نقطع صلتنا عن الماضي ، إن الرجل الذي قدّر أهمية هذا الواجب واتساع نطاقه تقديراً صحيحاً هو السيد جمال الدين الافغاني الذي جمع إلى بصيرته النافذة في حياة الإسلام الملية ، وحياته الفكرية تجربة واسعة بأنواع كثيرة من البشر وعاداتهم وأخلاقهم ، وكانت مقاصده ومراميه بعيدة المدى سامقة الذرى ، لذلك لم يكن من الصعب أن تصبح شخصيته الكريمة حلقة اتصال بين الماضي والمستقبل ، إن جهوده المتواصلة ، لو تركزت على تفسير وضع العقيدة والعمل الذي دعا إليه الاسلام النوع الانساني لكان لنا نحن المسلمين ، أن نعتمد على أنفسنا ونثق بشخصيتنا أكثر مما نحن فيه الآن[1] ».

ولكن وضع العالم الإسلامي بصفة عامة ووضع مصر – التي قضى فيها جمال الدين أفضل أيام حياته ، وأكثرها إنتاجا ، واتخذها مركز نشاطه العقلي – والطبيعة التي خلقه الله عليها من الذهن الوقّاد والذكاء الحاد ، والحميّة الإسلامية الثائرة ، والأنفة الأفغانية المتهيجة ، كل ذلك منع جمال الدين عن التفكير في غير إنهاض البلاد الإسلامية سياسة وتنظيماً ، وإعادة الكرامة والقوة إليها ، والربط بين أجزائها ، وإقصاء النفوذ الأجنبي عامة والنفوذ البريطاني – الذي اكتوى بناره في بلاده وفي الهند وإيران وفي مصر – خاصة ، وطبع نشاطه وكفاحه بطابع السياسة ، وأصاب الدكتور محمد البهي ، إذ قال :

« (كان جمال الدين) ينتزع الأمثلة من تاريخ الشعوب ، ومن تاريخ الأمة الإسلامية نفسها ، كما ينتزع الشواهد المحسوسة التي تفزع المسلمين من السياسة الاستعمارية في البلاد الإسلامية – في الهند ومصر على الخصوص – هذه الأمثلة التي كان ينتزعها من شواهد الحياة الإسلامية ، ومظاهرها في وقته ، مع بيان مدى ألاعيب السلطات الأجنبية ودسائسها ، وهدفها الذي نهايته بسط النفوذ

---

(١) محاضرات مدراس، المحاضرة الرابعة ص ١٤٥ - ١٤٦ (مترجمة عن الأردية) .

الأجنبي لصالح الجماعة الأوروبية وحدها على رقعة العالم الإسلامي .

هذا الاحتكاك المباشر نفسه هو الذي أظهر حركة جمال الدين الأفغاني في صورة حركة سياسية ، وهو نفسه السبب في أن يلقي بمركز الثقل في نشاطه على « الحرية السياسية » في الشرق الإسلامي ، للمواطنين جميعاً مسلمين ومسيحيين [١] » .

وخير من يحق له التعبير عن نفسية السيد جمال الدين ، وتلخيص دعوته ، هو تلميذه الشيخ محمد عبده ، وهو يقول :

« أما مقصده السياسي الذي قد وجه إليه كل أفكاره ، وأخذ على نفسه السعي إليه مدة حياته — وكل ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله — فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفي مجده ، ويدخل في هذا تقليص ظل بريطانيا في الأقطار الشرقية [٢] » .

وكان الشيخ محمد عبده على ما له من حسنات في الدفاع عن الإسلام وإصلاح مناهج التعليم وتقريب الدين إلى الجيل الجديد ، كان من رواد الدعوة للتجدد ، والدعوة إلى الملائمة بين الإسلام وبين الحياة في القرن العشرين ، والتقدير الزائد للقيم الغربية ومحاولة التطبيق بينها وبين الاسلام والحرص على تفسير الفقه الاسلامي وأحكام الشريعة تفسيراً يتناسب مع مطالب المدنية الجديدة ، والجيل الجديد ، يقرب في ذلك كثيراً إلى السيد أحمد خان في الهند ، وتتجلى هذه النزعة في تفسيره وفي فتاواه وفي كتاباته ، وكل من جاء بعده من دعاة التجدد اقتبس من علمه واغترف من بحره ، وقد شهد بذلك اللورد كرومر في كتابه : « مصر الحديثة » يقول :

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث ص ٥٠ .

(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث للدكتور أحمد أمين ص ١٠٦ .

« إن محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة في مصر ، قريبة الشبه من تلك التي أسسها السيد أحمد خان في الهند (مؤسس جامعة عليكره) ، ثم يقول : إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين ، وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع ، فهم الخلفاء الطبيعيون للمصلح الاوروبي [١]» .

ويتكلم نيومان في كتابه : (Great Britain) عن تلاميذ محمـــد عبده وأتباعه فيقول :

« وكان برنامجهم فوق ذلك يشجّع التعاون مع الأجانب لإدخال الحضارة الغربية إلى مصر ، وهذا هو ما جعل كرومر يحصر فيهم أمله الوحيد في قيام الوطنية المصرية ، وهذا أيضاً هو السبب في تعيينــه سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف [٢] » .

فضل حركة السيد جمال الدين ومدرسته :

لم تكن هذه الغاية الجسيمة والأوضاع السياسية الجاثمة على الشرق لتـــدع لمثل السيد جمال الدين الأفغاني – في قوةعاطفتهوحساسيته ـ حقلاً آخرللنشاط والإنتاج ، وتدعه يعمل عملاً إيجـــابياً بنـّاءاً في المجتمع الإسلامي ، ويقوم بدراسة عميقة تحليلية للحضارة الغربية ، وما يحسن اقتبـــاسه منها ، وما لا يحسن ، وبناء فكر إسلامي جدير يساير الزمان ، ويتغلب على نزعة تقليد الغرب .

ولكن دوره لا يستهان بقيمته في رفع قيمة الدين ، والاعتماد على القرآن

---

(١) Moderh Egypt , P. 179 180

(٢) P. 165

في عيون النشء الجديد ، وفي إعادة الثقة بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، إلى نفوس الشباب المثقف ، وحال — إلى حد — بين الطبقة المثقفة الذكية في مصر وغيرها ، وبين الإلحاد والثورة على الدين ، وكان له فضل في بقاء نفوذ الإسلام الفكري والعلمي في أوساط الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي ، وإلى ذلك أشار المستشرق الألماني الكبير كارل بروكلمان إذ قال :

لقد كانت للإسلام سيطرة على حياة مصر الروحية ، ولا تزال كذلك ، والفضل في ذلك يرجع إلى فارسي إسمه جمال الدين ، الذي آثر لأسباب سياسية أن ينسب نفسه إلى أفغانستان ، البلاد التي قضى فيها شبابه (١)» .

المتخرجون في أوروبا طلائع الفكر الغربي في العالم العربي :

بدأ صفوة الاذكياء وخيرة الشباب يدرسون العلوم العصرية في مصر ، ثم يؤمون عواصم الغرب ومراكز الثقافة العصرية الكبرى في أوروبا للتوسع في الدراسات والتعمق فيها ، ويخوضون هناك في لجة الحضارة الغربية وفي الأوساط العلمية التي اعتادت البحث العميق الدقيق ، واعتادت الحرية الفكرية والشجاعة الأدبية ، وعافت التقليد والأخذ بشيء على عواهنه ، فكان من المتوقع ومن المعقول جداً أن يوجد في هؤلاء الشباب الشرقيين الذين نشأوا في مصر البلد الإسلامي ، وقرأوا القرآن — معجزة كل عصر — رجال يروعهم ضعف أساس الحضارة الغربية والفكرة الغربية وإسرافها في المادية ، وتطرفها في القومية والنظر المادي القاصر المحدود إلى الإنسان ، وكل ما أنتجه وقام به من مظاهر العقل والروح والبطولة ، ويثير ذلك فيهم النخوة الإسلامية والمعاني الإنسانية الكريمة العميقة ، ويثير فيهم روح الاستنكار والتمرد على مثل الحضارة

---

(١) Carl Brockleman : Geschichteder Islamischen Voelker Und Staaten Munchen Berlin 1939

الزائفة ، ويكون فيهم مفكر حر مثل محمد إقبال ، وثائر وداعية مثل محمد علي[١] . وكانوا أولى بذلك من هذين ، فقد نشأ الاثنان في بيئة بعيدة عن مهد الاسلام ومركز الثقافة الاسلامية ، وجرى في عروقهما دم غير عربي ، وغير

---

(١) هو الزعيم الهندي المشهور محمد علي بن عبد العلي ، ولد في إمارة — رام بور — (في المقاطعة الشمالية الغربية) سنة١٨٧٨م، ونشأ يتيماً في حضانة أمه القوية النفس والهمة، والتحق بمدرسة بريلي الثانوية ، ثم انتقل إلى كلية عليكرة الإسلامية ، وتخرج فيها في سنة ١٨٩٦ م ، وسافر الى انجلترا وانتسب إلى جامعـــة أوكسفورد حيث نال شهادة في الليسانس (B. A.) بامتياز، وفاق في الأدب الانجليزي ، واحتوى على ثروته الأدبية وأساليب اللغة الانجليزية المتنوعة كأبناء البلاد ، وأصحاب اللغة ، ووجع إلى الهند وشغل وظيفة كبيرة في إمارة « بروده » ، ومكث فيها سبعة أعوام ، ثم استقال وأصدر منها من كلكتا سنة ١٩١١م صحيفة Comrade الأسبوعية الانجليزية، التي نالت إعجاب الانجليز وأدبائهم وحكامهم بأسلوبها الأدبي الرصين والفكاهة الحلوة ، وانتقل بعد ذلك إلى دهلي ، وأصدر منها صحيفة يومية أردية سمـــاها « همدرد » ، ونالت المكانة الرفيعة والقبول العام لصدق لهجتها . وكتب مقالة مستفيضة في « كومريد » طويلة بعنوان (Choice of the Turks) « اختيار الأتراك » ،انتقد فيها سياسة الحلفاء والانجليز بصفة خاصة ، تعتبر من أقوى المقالات التي كتبت في الهند ، أثارت غضب الحكومة الانجليزية فاعتقلته سنة ١٩١٤ م وبقي مدة الحرب العالمية ١٩١٤ – ١٩١٨ م حفظ فيها القرآن ودرس الاسلام دراسة عميقة ، وأطلق في آخر سنة ١٩١٩ م وأسس الجامعة الملية الاسلامية في سنة ١٩٢٠م، واعتقل مرة ثانية بتهمة اثارة الجيش ضد الحكومة وحكم عليه في كراتشي بسجن عامين وأطلق في آخر ١٩٢٢م، ورأس حفلة المؤتمر الوطني العام Indian National ongress في كوكنادا في جنوب الهند سنة ١٩٢٣ ، واعتزل المؤتمر سنة ١٩٢٩ م وحضر مؤتمر المائدة المستديرة سنة ١٩٣٠ م ،وخطب فيها خطبة عظيمة . ومات في يوم ٤ من يناير سنة ١٩٣١ ، ونقل جثمانه إلى القدس حيث دفن في المسجد الأقصى في احتفال عظيم وجنازة مشيعة تشييعاً عظيماً ، ورثاه كبار السياسيين في الأقطار الاسلامية والهند ،واعترفوا بعصاميته وعبقريته الأدبية ، وشجاعته السياسية وحميته الاسلامية ، ومن الأقوال المأثورة للمؤرخ الانجليزي الشهير (H. G. Wells) : « إن محمد علي جمع بين قلب نابليون ، وقـــلم ميكالي ، ولسان برك » .

إسلامي[١] ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق إلاّ في نادر الأحوال ، ورجع أكثر هؤلاء الشباب المسلمين طليعة الفكر الغربي ، ودعاة متحمسين إلى تقليد الحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها وتصوراتها .

إن اللورد كرومر الذي كان أكبر رائد إلى تغريب مصر ، والعالم العربي بالتتبع ، قد صوّر بنفسه الجيل المصري الجديد الذي نشأ في أحضان التعليم الجديد ، وآمن بسيادة الغرب وفضل حضارته ومبادئه تصويراً صادقاً دقيقاً ، قد ينسب إلى المبالغة والقسوة والتشاؤم ، إذا صدر عن قلم مفكر إسلامي ، أو عالم مسلم متحفظ ، ولكن صدوره عن قلم رجل كان من أكبر دعاة التغريب ، في الشرق ، يجرّده عن كل مبالغة وتهويل ، ويضفي عليه قيمة علمية كبيرة ، ويجعله وثيقة تاريخية تستحق كل اعتبار وكل اهتمام :

« إن المجتمع المصري في مرحلة الانتقال والتطور السريع ، وكانت نتيجته الطبيعية أن وُجدت جماعة من أفراد هم « مسلمون » ولكنهم متجرّدون عن العقيدة الإسلامية والخصائص الإسلامية ، وإن كانوا « غربيين » فإنهم لايحملون القوة المعنوية ، والثقة بأنفسهم ، وإن المصري الذي خضع للتأثير الغربي ، فإنه وإن كان يحمل الاسم الإسلامي ، لكنه في الحقيقة ملحد وارتيابي ، والفجوة بينه وبين عالم أزهري لا تقلّ عن الفجوة بين عالم أزهري وبين أوروبي [٢] » .

إن الحقيقة أن الشاب المصري الذي قد دخل في طاحون التعليم الغربي ،

---

(١) كان محمد علي من سلالة هندية في شمال الهند الغربي ، ومحمد إقبال أشار إلى أصله الهندي البرهمي كثيراً ، فيقول في بيت يعاتب فيه شاباً ينتمي إلى أهل البيت قد تأثر بالفلسفة تأثراً عميقاً ومال إلى الإلحاد ، « أنت تنتمي إلى سيد بني هاشم في نسلك — أما أنا — المؤمن بالإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم إيماناً لا يعتريه شك — فإن طينتي هندية وأنا أنتمي في نسبي إلى سومنات — معبد الوثنيين القديم — وكان آبائي من عباد « اللات ومناة » (ضرب كليم)» .

(٢) The Earl of Cromer : Modern Egypt (1908), Vol. 11 PP. 228-9

ومرّ بعملية الطحن ، يفقد إسلاميته ، وعلى الأقل أقوى عناصرهـا ، وأفضل أجزائها ، إنه يتجرّد عن عقيدة دينه الأساسية ، إنه لا يعود يؤمن بأنه لا يزال أمام ربّه ، وأنه تراقبه عين لا تخفى عليها خافية ، وأنه سيُحاسب أمامه يوماً من الأيام ، ولكنه لا يزال — رغم ذلك كله — يستفيد من مظاهر الحيـاة الإسلامية التي تتسامح مع مواضع ضعفه الخلقي ، ولا تتصادم معها ، والتي تتفق مع مصلحته في مجالات الحياة ، ولكن المصري المثقف رغماً عن ابتعـاده عن الإسلامية لا يميل إلى المسيحية إلا نادراً » .

ويتقدم اللورد كرومر ، فيقول :

« ان المصري المتحرر يسبق الأوروبي المتحرر في التنوّر ، وحرية الفكر والحيرة ، إنه يجد نفسه في بحر هائج لا يجد فيه سكاناً ولا رباناً لسفينته ، فلا ماضيه يضبطه ، ولا حاضره يفرض عليه الحواجز الخلقية ، إنه يشاهد أن الجمهور من مواطنيه يعتقدون أن الدين يعارض « الإصلاحات » التي يراهـا جديرة كل الجدارة بالنفاذ ، إن ذلك يثير فيه السخط ، والكراهية الشديدة ، للدين الذي يؤدي إلى مثل هذه النتيجة ، فيدوسه بقدمه ، وينبذه بالهراء ، إنه إذا قطع الصلة عن دينه وتعاليمه فلا يحجزه عن التورّط في المزالق الخلقية إلاّ مصلحته الشخصية السافرة ، مع أن الأوروبي الذي يحرص على تقليده ، لا يزال متقيداً بشرائع أمته الخلقية ، إن المجتمع الذي يتكوّن من مثل هؤلاء الافراد المتحررين في مصر ، لا ينكر على الكذب والخديعة انكاراً شديداً ، ولا يمنعه من ارتكاب الرذائل خوف سوء الاحدوثة في المجتمع ، إنه إذا رفض دين آبائه ، فإنه لا يلقى عليه نظرة عابرة ، إنه لا يرفضه فحسب ، بل يرفسه ويركله برجله ، إنه يترامى في أحضان الحضارة الغربية متعامياً عن كل حقيقة ، ويغيب عنه ، إن الجانب الزاهر البرّاق للحضارة الغربية ، ليس إلاّ الجانب الخارجي من جوانب هذه الحضارة ، ان الحقيقة أن القوة الخلقية التي تنبع من التعـاليم المسيحية هي التي تضبط سفينة الحضارة الغربية ، وتمنعها من الاضطراب الزائد

في البحر الهائج ، ولما كانت هـــذه القوة قوة باطنية ، فإنها تتوارى في غالب الاحيان عن أنظار المتشبهين الزائفين بأبنائها الحقيقيين،انه يحلف ويقول ، انه نبذ التعصب الديني ، وأنه يحتقر تعاليم آبائه ، انه يقول لزميله الاوروبي ، إننا أصبحنا نملك الخط الحديدي ، وقد أسسنا في بلادنا مدارس عصرية ، وأنشأنا الجرائد والمحاكم ، ومظاهر الحياة الحديثة ، والمدنية العصرية التي تتكوّن منها حضارتـكم ، فكيف نُعتبر متخلفين عنكم وأحطّ شأناً منكم ، انه يجهـــل أنه لا يستطيع أن يجاري زميله الغربي ويكون نداً له ، فإن المسيحي المتحضّر ، وإن لم يكن راسخاً في دينه ،ولكنه الى حد كبير تسر نتاج المسيحية ،فإن لم تكن المسيحية التي مضى عليها ألف وتسع مائة سنة ، رصيده وسنده ، لم يكن قط حيث هو الآن [١]» .

الدعوة إلى تحرير المرأة وأثرها :

ومن أوضح الأمثلة لذلك كتابان لقاسم أمين ،أحدهمـــا « تحرير المرأة » ، والثاني « المرأة الجديدة » [٢] .

أمّا الكتاب الأول فقد ذهب فيه المؤلف الى أن الدعوة الى السفور ليس فيها خروج عن الدين ، وذكر : « ان الشريعة الإسلامية إنما هي كليات وحدود عامة ، ولو كانت تعرضت الى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعاً عاماً ، يمكن أن يجد في كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحهـا ... أما الأحكام المبنية على ما يجري من العادات والمعاملات فهي قابلة للتغيير على حسب الأحوال والازمان ، وكل ما تطلبه الشريعة فيها هي أن لا يخل هـــذا التغيير

(١) Ibid P. 232 .

(٢) صدر الكتاب الأول سنة ١٨٩٩ م والثاني سنة ١٩٠٠ م .

بأصل من أصولها العامة [١] » .

وقد تناول في كتابه أربع مسائل ، وهي : الحجاب ، واشتغال المرأة بالشؤون العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق ، وذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين ، زاعماً أن ذلك هو مذهب الإسلام .

ويتجلى أثر الثقافة الغربية والخضوع للحضارة الغربية وقيمها أوضح في الكتاب الثاني« المرأة الجديدة » ،فالتزم فيه المؤلف مناهج البحث الأوروبية الحديثة التي ترفض كل المسلّمات والعقائد السابقة سواء منها ما جاء من طريق الدين ، وما جاء من غير طريقه ، ولا تقبل إلاّ ما يقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع على حسب ما يفعله باحثو الاجتماع الأوروبيون ، وهو ما يسمونه : (الأسلوب العلمي) [٢] .

ودعا قاسم أمين في آخر هـــذا الكتاب دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فيقول بعد أن ذكر إعجاب المسلمين والمصريين الشديد بالماضي :

« هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلاّ أننا نربي أولادنا على أن يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، إذا أتى ذلك الحين – ونرجو أن لا يكون بعيداً – انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربي ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا ، إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية الحديثة ، وإن أحوال الإنسان مهما اختلفت ، وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم ، لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة

---

(١) تحرير المرأة ص ١٦٩ .

(٢) الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد محمد حسين الجزء الأول ص ٢٨٢ .

والوطن والدين متشابهة تشابهاً عظيماً، في شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها، ولغاتها، وكتابتها ومبانيها، وطرقها، بل في كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل، هذا هو الذي جعلنا (نضرب الأمثال بالأوروبيين) ونشيد بتقليدهم، وحملنا على أن نستلفت الأنظار الى المرأة الأوروبية [١] » .

وقد تبع صدور هذين الكتابين، وما قام به الدعـــاة الى تحرير المرأة من النشاط والإنتاج والكفاح، حركة حثيثة . من الحرية في النساء، والسفور والاختلاط والرحلات الى أوروبا وأمريكا للدراسات، يقول الدكتور محمد محمد حسين :

« .. وجزع المحافظون لما صحب هذه الحركة من ميل إلى التبرج، ومن نزوع إلى التحرر والانطلاق، وأنكروا ما رأوا من تغير حال المرأة، ومن جرأتها على التقاليد وتمردها على سلطة الأب والزوج، وراحوا يتابعون في ذهول تطور الزي، وتقلص الثوب فوق جسدها في سرعة تجاوزت كل ما يتخيلون من حدود [٢] » .

ويقول متحدثاً عن بعض السيدات المتحمسات في هذه الدعوة وتقدمهن في هذا المضمار :

« .. وتزعمت هذه الحركة النسوية هدى شعراوي، حرم علي باشا شعراوي وتجرأت هذه المتزعمة على ما لم تتجرأ عليه امرأة مسلمة من قبل، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لدراسة شئون المرأة، وأخذت تلقي بالتصريحات والأحاديث

---

(١) « المرأة الجديدة » ص ١٨٥ ــ ١٨٦.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، للدكتور محمد محمد حسين ــ جـ ٢ ص ٢٣٥ .

لمندوبي الصحف[1]» .

صدى أفكار المستشرقين في مصر :

ورجع كثير من الجامعيين متشبعين بروح الغرب يتنفسون برئة الغرب ، ويفكرون بعقله ، ويرددون – في بلدهم – صدى أساتذتهم المستشرقين ، وينشرون أفكارهم ونظرياتهم في إيمان عميق ، وحماسة زائدة ، فلا يقرأ إنسان لعالم مستشرق في الغرب بحثاً ولا يعرف له نظرية إلا ويجد أديباً أو مؤلفاً في مصر يتبنى هذه النظرية بكل إخلاص ، ويشرحها ويدعو إليها في كل لباقة وبلاغة ، مثل : بشرية القرآن ، وفصل الدين عن السياسة ، وأن الإسلام دين لا دولة [2] والدعوة إلى العلمانية ، والشك في مصادر العربية الأولى ، والشك في قيمة الحديث العلمية ، وإنكار مكانته وحجيته ومكانة السنة في الإسلام ، والدعوة إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل وإلى السفور ، وكون الفقه الإسلامي مقتبساً من القانون الروماني ، ومتأثراً به في روحه وسبكه ، والدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام ، وتمجيد العصر الفرعوني ، والتغني بحضارته وأدبه وأمجاده ، والدعوة إلى العامية والتأليف فيها ، واقتباس الحروف اللاتينية والتقنين المدني العربي على أساس القانون المدني الغربي ، والدعوة إلى القومية العربية والاشتراكية المادية – والشيوعية الماركسية أحياناً – في العصر الأخير ، ترى

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، للدكتور محمد محمد حسين ج٢ – ص٢٣٥ .

(٢) وقد صدر في هذا الموضوع كتاب لعالم ديني من علماء الأزهر والقاضي الشرعي ، شغل الناس وأحدث ضجة في الأوساط الدينية والعلمية ، وهو كتاب «الاسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق . وهو يدل دلالة واضحة جداً على مدى تغلغل فكرة المستشرقين في عقول الطبقة المثقفة ، حتى تبناها عالم ديني ودعا إليها بحماس وإخلاص ، وهو يدور حول إثبات أن الخلافة نظام تعارف عليه المسلمون وليس في أصول الشريعة ما يلزم به ، ويخرج منه بنتيجة إنكار أن تكون الخلافة أو القضاء ، أو وظائف الحكم ومراكز الدولة جميعاً من الدين في شيء ، وإنما « خطط » دنيوية صرفة لا شأن للدين بها .

ظلال الفكر الغربي ، بل التعبير الغربي وارفة ممدودة على العقول العربية والأقلام العربية ، مسيطرة عليها كسيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة ، منعكسة فيها انعكاس الشمس في المرآة الوضيئة ، وقد شهد بتغلغل الأفكار الغربية في المجتمعات والدول الإسلامية عالم مستشرق عرف الشرق الإسلامي ، وعرف تياراته الفكرية معرفة دقيقة ، يقول : « هـ ، أ ، ر ، جب » في كتابه « إلى أين يتجه الإسلام ؟ » :

« وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربي ، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام ، كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية ... علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية ، بعد أن تهضم وتصبح جزءاً حقيقياً من كيان الدولة الاسلامية ، فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها [١] ».

اتجاه حركة التأليف والترجمة إلى الأدب والاجتماع :

وكان هؤلاء الأدباء والكتّاب قد أسدوا معروفاً كبيراً ، وأحسنوا إلى مجتمعهم وبلادهم ولغتهم لو نقلوا الكتب من اللغات الغربية المؤلفة في أغراض العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية النظرية والتطبيقية ، التي لا تزال المكتبة العربية فقيرة فيها ، كما فعل الأدباء في اليابان ، فحوّلوها إلى بلاد صناعية تضارع أعظم الدول والأقطار الأوروبية في العلوم الطبيعية والصناعية ، وكما فعلت دار الترجمة في حيدر آباد ، ولكن انصرفت عنايتهم وهوايتهم إلى ترجمة كتب الآداب وعلم الاجتماع والفلسفة والتاريخ ، والروايات والقصص ، وترجمة كتب كثير من دعاة الإلحاد والثورة والاضطراب

---

(١) الترجمة مأخوذة من كتاب « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » .
Wither Islam ? P. 328 - 329

الفكري في المجتمع الغربي ، التي ساعدت في إنشاء التبلبل الفكري والاضطراب الاجتماعي ، وضعف شخصية الفكر العربي والأدب العربي ، وأحدثت اصطراع الأفكار والمثل ومناهج الفكر .

وقد وجد لهذا الاتجاه الأدبي كتـاب وأدباء في مصر لهم قيمتهم الأدبية وإنتاج أدبي كبير ، ولكن لم يظهر فيمصر ولا في الشرق العربي نوابغ وعبقريون في العلوم العملية ، وفي مجالات الطبيعة والكيمياء ، وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، يعترف العالم الغربي بتفوقهم في هذه العلوم ، وبقيمة بحوثهم وإنتاجهم العلمي ، وينالون إعجاب الأوساط العلمية الكبيرة وتقديرها .

وقد أشار إلى موضع الضعف في إنتاج الأقطار الواقعة في الشرق الأوسط الأستاذ برنارد لويس (Bernard Lewis) أستاذ جامعة لنـــدن في مقال له يقول :

« إن العمل المبتكر الأصيل في مجال العلوم التطبيقية لم يتقدم في الشرق الاوسط مثل ما تقدم في اليابان والصين والهند ، إن الجيل الجديد في الشرق الاوسط لا يزال يستخدم وسائل الغرب التي تدخل من دور إلى دور جديد في فترة قصيرة من الزمن ؛ لذلك يلاحظ بون شاسع بين الشرق الاوسط وبين الدول الاوروبية المتقدمة الراقية في العلوم الطبيعية والكفاية الصناعية ، وفي نتيجة ذلك في القوة الحربية ، بون أوسع مما كان قبل قرن أو نصف قرن حين بدأت عملية التغريب في الشرق الاوسط[1] » .

صورة من الحياة الغربية :

ووجد في مصر كتـّاب وأدباء دعوا دعوة سافرة إلى تقليد الحضارة الغربية ،

---

(١) مقالة Bernard Lewis بعنوان: «The Middle East Versus the West» في مجلة « Encounter , Oct 1963 » .

واتخاذها مثلاً أعلى في الحضارة والاجتماع ، وكانت مصر – ببقائهاتحت الاحتلال الغربي مدة طويلة ، وبحكم قربها من أوروبا وبفقد الدعوات الدينية التجــديدية المؤسسة على النقد العلمي – تزداد انصياعاً بالحضارة الغربية في كل يوم ، وتتجه إلى الغرب اتجاهاً مستمراً ، حتى كادت تصبح في الطبقة المثقفة والأرستقراطية صورة من الحياة الغربية ، واستطاع الدكتور طه حسين في سنة ١٩٣٨ م أن يصور بلده تصويراً غربياً ، ويقول في كتابه المشهور : « مستقبل الثقافة في مصر » :

« حياتنا المادية أوروبية خالصة في الطبقات الراقية ، وهي في الطبقات الأخرى ، تختلف قرباً وبعداً من الحياة الأوروبية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوتهم من الثروة وسعة ذات اليد ، ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوروبي في حياته المادية[1] ».

« .. وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانهـــا أوروبية خالصة ، نظام الحــكم عندنا أوروبي خالص ، نقلناه عن الأوروبيين نقلاً في غير تحرج ولا تردد ، وإذا عبنا أنفسنا بشيء من هـــذه الناحية ، فإنما نعيبها بالإبطاء في نقل ما عند الأوروبيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية [2] ».

« والتعليم عندنا على أي نحو قد أقمنا صروحه ، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي ؟ على النحو الأوروبي الخالص ، ما في ذلك شك ولا نزاع ، نحن نكوّن أبناءنا في مدارسنا الأوليـــة والثانوية والعالية تكويناً أوروبياً لا تشوبه شائبة[3] » .

ويستخلص من هذا كله النتيجة الآتية :

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ٣١ .
(٢) أيضاً ص ٣٢ .
(٣) أيضاً ص ٣٦ .

« كل هذا يدل على أننا في هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم ، حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلاً [1] » .

دعوة طه حسين مصر إلى اعتبار نفسها جزءاً من الغرب :

لقد كان من المتوقع ، ومن المعقول جدا ، أن مثل الدكتور طه حسين صاحب الشخصية القوية في الأدب والعلم ، الذي حفظ القرآن في الصغر ، ودرسه في الكبر ، وتعلم في الأزهر ، ونظر في العلوم والآداب نظرة حرة واسعة ، ورأى شقاء أوروبا بحضارتها المادية وفلسفاتها الإلحادية ، وحكوماتها القومية ، وتذمر مفكريها والعلماء الأحرار فيها ، ودرس تاريخ العرب والسيرة المحمدية دراسة تذوق وإتقان ، لقد كان من المتوقع ، والمعقول جداً ، أن يدعو مصر إلى الاستقلال الفكري والحضاري ، وتربية شخصيتها الإسلامية العربية ، والنهوض برسالتها العظيمة التي تستطيع أن تحدث انقلاباً في الأوضاع العالمية ، وتمنح مصر مركز الزعامة والقيادة والتوجيه حتى ولو كانت مصر جزءاً من العالم الغربي وقطعة من أوروبا ، فالرسالات السماوية الإنسانية أسمى وأوسع وأبقى من الحضارات ، وهي غنية عن الحدود الجغرافية ، والادوار التاريخية ، وإذا فعل ذلك ، وقام بهذه الدعوة كان رائد النهضة الفكرية الحقيقية ، والثورة المصرية المباركة ، واتفق ذلك مع مواهبه العظيمة كل الاتفاق .

ولكن كان من نتائج تغلغل الثقافة الغربية في الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي وسيطرتها على التفكير والمشاعر ، وضعف المجتمع الإسلامي الذي نشأ وعاش فيه طه حسين ، أنه قام يدعو مصر إلى اعتبار نفسها جزءاً من الغرب ، ويجند كل ذكائه وإنشائه ودراسته التاريخية لإثبات أن العقلية المصرية عقلية

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ٣٤ .

أوروبية ، أو قريبة قرباً شديداً من الاوروبية ، ولهـا اتصال وثيق بالعقلية اليونانية ، وبعيدة كل البعد عن العقلية الشرقية ، وهي منذ قديم الزمان ، منذ العهد الفرعوني لم تتأثر بالطـارىء عليها في أي عصر ، فلم تتغير بالفرس ، ولا بالرومان ، ولا بالعرب والإسلام ، « إن العقل المصري منذ عصوره الاولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الابيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الابيض المتوسط (١) » ، ويقول :

« إن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق ، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين (٢) » .

وعلى هذا الاساس يدعو الدكتور طه حسين المصريين إلى اختيار الحضارة الغربية حضارة لهم ، ومشاركة الغربيين — أعضاء الاسرة العقلية الواحدة — في جميـع مناهجهم ومقاييسهم وأذواقهم وأحكامهم ، فيقول :

« ... أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنـداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ومـا يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب (٣) » .

« وأن نشعر الأوربي بأننا نرى الأشياء كما يراها ، ونقوّم الأشياء كما يقومها ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها (٤) » .

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ٣٢ .

(٢) أيضاً ص ٤١ .

(٣) أيضاً ص ٤١ ،

(٤) أيضاً ص ٤٤ .

مستوى فكري نازل :

إن هذا المستوى الفكري ، مستوى التقليد والتطبيق والتشبه والانسجام بالغرب ، وإن قياس التبعات والواجبات والرسالات بمقياس الجغرافية والتاريخ وطبائع الأمم وعقلياتها في ضوء التاريخ القديم ، مستوى كنا نتوقع من عالم مصري وأديب مفكّر مثل الدكتور طه حسين أن يترفع عليه ،وقد ترفع على ذلك بعض القادة الشرقيين في أقطار غير إسلامية ، فصاروا يلهجون بالجامعة الإنسانية والنظرة الآفاقية والمثل الخلقية والروحية التي هي فوق الحدود والثغور وفوق المناطق الحضارية والثقافية في العالم القديم أو الجديد ، ويكفرون بالروابط التي توزع الأسرة الإنسانية الموحدة بين الأوطان والاجناس والمناطق الحضارية وبين العالم الغربي والعالم الشرقي ، وكان المسلم العربي أحق بهذه الفكرة الواسعة ، وأحق بأن يتزعم هذه الدعوة ويقودها ، فإنه نشأ في ظل « شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ » .

حركة الاخوان المسلمين وتأثيرها :

إنّ مواجهة حضارة الغرب وجهاً لوجه ، ونقدها النقد الجريء الأصيل ، والظهور أمام الغرب في مظهر الداعي المهاجم كان يتطلب دراسة أعمق ، وجهوداً أكثر ترابطاً وأكثر تركيزاً ، ومعرفة أدق بطبيعة الحضارة الغربية وتركيبها ، وحماسة أشد في الدعوة إلى الإسلام ونظمه ومناهجه ، ويتطلب موقفاً غير موقف الزعيم السياسي الذي وقفه جمال الدين ، وموقف المحامي المدافع عن الشريعة الإسلامية الذي وقفه الشيخ محمد عبده .

وقد كان في حركة « الاخوان المسلمين » كبرى حركات الشرق الأوسط الدينية والسياسية أمل كبير في تجديد القوة الإسلامية ، لو قدّر لها أن تسير

سيرها الطبيعي وتؤثر تأثيرها المطلوب ، والتف حولها الباحثون النوابغ والمفكرون الإسلاميون ورجال الاختصاص الفني ، والدراسات الواسعة العميقة التي قد بدت طلائعها [١] ، وتملأ الفراغ الفكري في الشرق وتنجح في تأسيس المجتمع الاسلامي القوي المستقل في شخصيته وفي تفكيره وفي وطنه ، ولكن محاربة القوات المتجهة إلى « العلمانية » والاشتراكية لها قد حرمت العالم العربي – والعالم الاسلامي بدوره – ثمرات هذه الحركة الواسعة القوية التي كانت أقوى انتفاضة دينية وثورة إسلامية في العصر الحاضر ، وكان ذلك رزءاً وخسارة للعالم الاسلامي لا تعوض ، هل كانت حركة الاخوان تملك قدرة على تحقيق هذا الهدف الكبير وإلى أي مدى حققت – بقدر وسعها – هذه المطالب والغايات ؟ إنه شيء التبس على كثير من الناس ، ويجدر في هذه المناسبة بأن نقدم بعض ما جاء في كتاب مفكر غربي لا يمثل الاخوان المسلمين ولا يعطف على قضاياهم وذلك بحذف واختصار ، يقول الاستاذ سمث W.G. Smith في كتابه Islam in Modern History يشير إلى بعض النواحي المهمة لهذه الحركة :

« إنه لا يصح أبداً أن نعتبر الاخوان المسلمين رجعيين على الاطلاق ، فإن هذه الحركة قامت بمحاولة تستحق التقدير والاعجاب لإنشاء مجتمع عصري على أسس العدالة الاجتماعية وحب الانسانية الذي هو صفوة القيم والتقاليد القديمة ...

إنها تريد العودة إلى أسس للمجتمع تقوم على قيم خلقية ثابتة مجمع عليها ، وتفكير متزن ، عادل ....

---

(١) في كتاب الاستاذ الشهيد عبد القادر عودة والمرحوم الدكتور مصطفى السباعي ، وسيد قطب ومحمد الغزالي والدكتور سعيد رمضان والاستاذ محمد المبارك وأضرابهم .

إنها تستطيع أن تحول الإسلام من تحمس عاطفي لأتباعه ومحبيه والمتعبدين له الذين تخلـّوا من كل شعور ومن كل نشاط ، أو من حقل قديم لهواة التقاليد المحترفين الذين تشبثوا بالماضي في تفكيرهم وعملهم إلى قوة ناهضة صاعدة تستطيع أن تشق طريقها وسط القضايا العصرية ومشكلاتها ....

إن في دعوة الإخوان حلا عملياً سريعاً لأكثر مشكلات المجتمع ، وإذا لم تقم هناك طائفة أُخرى لمعالجة هذه المشكلات بتحمس أكثر ورغبة أكبر ، نستطيع أن نؤكد بأن حركة الإخوان سوف تعيش وتستمر رغم سوط الإرهاب والاستبداد ،إن الإخوان هي الحركة الوحيدة في هذا الزمان (عدا الشيوعيين) التي قدّمت أمام الناس فكرة تجاوزت تقديساً باللسان وتشديقاً بالكلام إلى كسب التأييد والولاء بنطاق أوسع [١] » .

ثورة ٢٣ يوليه في مصر :

لم تزل الثقافة الأجنبية – في داخل البلاد وخارجها – ولم تزل الدعوة إلى «التغريب» والفلسفات الغربية المادية التي ترد إلى البلاد من الخارج ،ويتطوع لنشرها وشرحها كبار الأدباء والكتاب في البلد ، تعمل عملها الطبيعي في أذهان الناس وتلتهمها الطبقة الجامعية المثقفة والشباب الناشيء والضباط في الجيش ، وكل ذكي ثائر على الأوضاع الفاسدة السائدة التي لا تطاق ، وتظهر في هذه الأغراض كتب ومؤلفات يقرؤها الشبان عند المراهقة الفكرية فيسيغونها وتصبح جزءاً من فكرتهم وعقيدتهم ومطامحهم في الحياة ، وينظرون إلى هذه الفلسفات كالطريق الوحيد للنهضة بالبلاد ومجاراة الدول والأقطار الحرة الراقية ، وتعجز المعارف ووسائل التربية والتوجيه والأدب المقبول عن أن يخلق في هؤلاء تفكيراً أسمى

(١) Islam in Modern History. P. 161.162

وطموحاً أبعد من هذه الخطط التقليدية المرسومة المرددة في كل بـــلد ، والتي سبق إليها كمال أتاتورك ، وتحققت له الزعامة في حركة التغريب ، وتطوير البلاد والمجتمع والعقلية من الأساس الإسلامي الإيماني إلى الأساس الغربي المـــادي ، فيحاولون تقليدها وتطبيقها في بلادهم باختلاف نوع القوميـــة [١] ، وبزيادة الاشتراكية التي لم تبلغ في عصر كمال أتاتورك هذا الطور الواضح المتميز القوي ، ولم تكسب هذه السيطرة ، وهذا السحر على العقول والافكار ، ولم يبق لهـــذه الطبقة إلاّ أن تتولى القيادة وتجد فرصة لتطبيق مخططها الفكري .

جاءت ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ م ونجحت بطبيعة الحـــال ،ورحّب بها كل ساخط على الاوضاع الفاسدة وكل محب للبلاد وللنهضة والقوة والاستقـلال ، وعقد بها الناس– على اختلاف طبقاتهم ووجهات نظرهم– آمالاً كثيرة مختلفة ، وكان في إمكانها واستطاعتها أن تعيد إلى مصر مكان الصدارة في العـــالم العربي الزعيم للإسلام ، ومكان التوجيه والثقة والإحترام في العالم الإسلامي ، وأن تشق طريقها إلى الامام ، وأن تنهج نهجاً في الحياة يوافق طبيعة الشعب المصري المسلم القوي في إيمانه وفي عاطفته الدينية ، وطبيعة العالم العربي الذي أبى الله أن ينهض ويتحد ويسود إلا بهذا الدين الذي اختاره لزعامته وقيادته ، ويوافق طبيعة العالم الإسلامي الذي لا ينشط ولا يتحمس ولا يرتبط إلاّ بدعوة دينية، ويوافق طبيعة العصر الذي ضاق بالقوميات وتخطى في – في سيره الحثيث – العصبيات التي تقوم على أساس العنصرية أو اللغة أو اللون أو الوطن ، وصـــار ينظر إلى هذه الروابط والجامعـــات كدعوات رجعية جاهلية تمزق الاسرة الإنسانية والوحدة البشرية ، وينتظر من شعب عربي قيادة أوسع نظراً وأكثر « تقدمية » من القوميات، وكلّ ينتظر من قادة هذه الثورة الموفقة عقلية أوسع، وصدراً أرحب ، وذكاءً أكثر عمقاً ، وتخطيطاً أكثر أصالة، ومطابقة للواقع .

---

(١) القومية العربية بدل القومية التركية .

محاولة تطوير المجتمع المصري والعربي كلياً:

ولكن تحقق سريعاً أن هذه الثورة فكرة مستقلة، وفلسفة قائمة بذاتها، وخطة كاملة مصممة تصميماً دقيقاً لتطوير المجتمع المصري – وبواسطته وعن طريقه – المجتمع العربي تطويراً قومياً مادياً اشتراكياً، حتى يصبح مجتمعاً جديداً، يستخلص لنفسه علاقات اجتماعية جديدة تقوم عليها قيم أخلاقية جديدة وتعبّر عنها ثقافة وطنية جديدة[١]، وينظر إلى الحرية، والاشتراكية، والوحدة، كأسس الحياة وأهداف النضال[٢]، ويبحث عن جذور النضال المصري «في التاريخ الفرعوني صانع الحضارة المصرية والإنسانية الأولى[٣]» ويحدد نضاله للأمة العربية التي تقوم على وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل، ووحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان، ووحدة الأمل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير[٤]، أما الدين الإسلامي – الذي هو دين العرب – إلا من شذ منهم – فينظر إليه كأي دين من الأديان الكثيرة التي تدين بها أمة أو بلاد، ويضعها جميعاً في صعيد واحد، ومستوى واحد، ويسمح لها بالبقاء ويعترف بها – جميعاً – بالشرف والتأثير «إن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها في حياتنا الجديدة الحرة، إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان، وعلى منحه

(١) نفس التعبير الذي جاء في النص الرسمي لميثاق العمل الوطني الذي قدمه الرئيس جمال عبد النـاصر في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في يوم ٣١ مايو ١٩٦٢، أنظر الباب الأول، نظرة عامة.

(٢) أيضاً.

(٣) الميثاق القومي، الباب الثالث.

(٤) أيضاً الباب التاسع.

طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة [١] » . ويتكلم عن هـــذه الأديان كأي اشتراكي مادي لا ينظر إلا إلى قيمة الأديان المادية والثورية ودورها في التاريخ الإنساني ، وكأنه لا يؤمن بالآخرة والحقائق الغيبية ، وإلى قيمـــة العقيدة الدينية والثواب الأخروي « إن رسالات السماء كلها في جوهرها كانت ثورات إنسانية ، استهدفت شرف الإنسان وسعادته ، وإن واجب المفكرين الدينيين الاكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته[٢] » . وينظر إلى المجتمع وأعضائه وحقوقهم نظرة لا تتقيد بالتشريعات الإسلامية والحدود التي بينها الله تعالى للإنسان ، وإنما تقوم على أسس المجتمع الغربي والتفكير العصري ، فالمرأة في نظره « تتساوى بالرجل ، ولا بد أن تسقط بقايا الاغلال التي تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمل وإيجابية في صنع الحياة [٣] » .

وبصرف النظر عن هذه التفاصيل والشواهد فإنه مما لا شك فيه أن الفكرة التي تسيطر على هذا الميثاق وواضعه ، والتي دفعت إلى سبكه في هذا القالب هي الفكرة المادية ، وللإنسان أن يسحب من نص الميثاق كلمة العرب ، ومصر التي تتردد كثيراً ، وما يدل على البيئة التي صدر فيها هذا الميثاق ، وينسبه إلى أي جمهورية علمانية اشتراكية في الشرق ، وكلها تعترف بحرية العقيدة الدينية ، وقداستها ، وبتأثير القيم الروحية الخـــالدة النابعة من الاديان في تاريخ الإنسان والمدنية .

وقد اتخذ قادة الثورة خطوات حاسمة إيجابية لتطوير المجتمع المصري وتطوير العقلية المصرية — كمرحلة إلى تطوير العقليـــة العربية — فشجعوا على الإشادة بالقومية العربية كديانة وعقيدة ، وجعلوا الأدباء والكتّاب يتغنون بهـــا ،

---

(١) الميثاق القومي ، الباب السابع .

(٢) أيضاً ، الباب السابع .

(٣) أيضاً ، الباب السابع .

كالهـــدف الاسمى ، ويتغنون بأمجاد العهد الفرعوني ، والدعوة إلى إحيائها ، والفرعونية كقومية وحضارة وتراث ، وهتف الهاتفون : « نحن أبناء العرب والفراعنة » . ولم تعد كلمة « فرعون » تثير في النفوس الكراهية والاحتقار ، ومعاني اللعنة والعار ، التي ألحقها به القرآن ، وآمن بها المؤمنون في كل مكان وزمان ، وأصبح العرب والعروبة تشارك الله في العزة والكرامـــة ، فيقول القائلون : « العزة لله وللعرب » ، ويرحبون بكل من يغلو في ذلك ويبالغ ، ولو وصل إلى درجة الكفر وخرج من الإسلام ، ويشجعون على ذلك بالجوائز والصلات وأنواع التحبيذ وأساليب التحسين ، وأرخوا العنان للكتّاب والصحفيين يسترسلون في ذلك ما شاؤوا ، وسمحوا للصحف أن تستهزىء بالدين وشعائره ومقدساته ، وتنتهك الحرمات ، وتنشر في المجتمع الخلاعة والاستهتار والميوعة ، ولم يزدها التأميم إلاّ خبالاً وإسرافاً في نشر الصور العارية الخليعة ، والروايات الماجنة والقصص الغرامية ، وأخبار الحوادث المثيرة للغريزة الجنسية والإجرام ، حتى يتطور المجتمع وتتطور العقلية ، وتأخذ لونها المادي ، وطابعها الاشتراكي.

واتخذوا لتطوير المجتمع خطوات إيجابيـــة أخرى ، من تطوير الأزهر ، وإلغاء المحـــاكم الشرعية ، والقضاء الشرعي ، والوقف الشرعي ، ومن التعليم المختلط ، والعناية الزائدة بالبرامج الثقافية ، والرقص والغناء .

تأثير الثورة المصرية وقيادتها في العالم العربي :

وأصبح الشباب العرب ، وكل ذي طموح ممن تمنى مجد العرب ، وتمنى لهم كياناً ودولة قوية موحدة تقوم في الشرق الأوسط يتخذ دعاة القومية العربية مثلاً أعلى ، ويدين بحبهم ويعتبر هذه الحركة انتفاضة الروح العربية ، تعيد إلى العرب كرامتهم ومجـــدهم الغابر وسيادتهم المسلوبة ، ولا غرابة في ذلك ، ولا ما يستحق اللوم والعذل ، فالإنسان مفطور على حب المجد والغلبة والقوة ، وللشباب العرب كل حق في أن ينشدوا المجـــد ، ويريدوا القوة ، ويعضوا على

الوحدة بالنواجذ ، ولكن – مع الأسف الشديد – قد اقترنت بهذا الاتجاه والتفكير في العهد الاخير معانٍ وحوادث وتصرفات ، وتوجيهات تضعف قيمة الإسلام وتقطع رابطة هؤلاء العرب وقادتهم عن إخوانهم في العالم الإسلامي ، وتنشىء فيهم المبالغة في تقديس القومية العربية ، والتعصب لها ، والإيمان بها كفكرة كاملة وديانة لها مفهومها العقائدي ، وقد بدأ الإلحاد ينتشر بسرعة غريبة في الشباب المثقف في العواصم العربية ، وتبدر من المتحمسين منهم كلمات يخاف منها على صاحبها الكفر والمروق من الدين ، وأصبحوا لا ينظرون إلى الرسول الاعظم ﷺ كمنقذ العرب ، ومصدر الحياة الجديدة والكرامة والشرف والخلود لهذا الشعب العظيم ، ويرجعون إلى الماضي السحيق ، ويحيون أمجاده وحضارته ، ويغضبون للجاهلية إذا ذُمّت وتأخذهم حمية الجاهلية .

طليعة ردة فكرية :

إنه نذير شر خطير ، وطليعة ردة فكرية وثقافية ودينية لا يتداركها ولا يجبر كسرها أعظم مجد ، وأقوى دولة ، وأكبر نهضة ، وأهول قوة ، إنها خسارة ليست فوقها خسارة ، إنها طريق إلى الخزي والعار ، والتشتت والفرقة ، والهزيمة والإخفاق بعد الإخفاق ، والخيبة إثر الخيبة في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى لو كانوا يعلمون ، ويصدق عليهم قوله تعالى : « قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالاً * الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبَون أنهم يُحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً »[١] .

---

(١) الكهف ١٠٢ – ١٠٥ .

حركة « التشكيك » الشامل والبلبلة الفكرية وأثرها في الحياة :

لقد قام كتّاب مصر وأدباؤها منذ زمن بعيد[1] – ومن بينهم عدد من الكتّـــاب المسيحيين – بحركة تشكيك شامل للعقـــائد الدينية ، والمقررات التـــاريخية ، والشخصيات الإسلامية ، والقيم الخلقية ، والأسس الاجتماعية ، والآداب العامة عن طريق بحوثهم وكتاباتهم ، تتنوع فيها الأساليب وتختلف في ذلك الدوافع والأغراض والعوامل والمؤثرات ، فقد يكون سائقهم أحياناً التطرف وتقليد المتطرفين في الغرب ، وقد يكون دافعهم حبّ الشهرة ، وتصفيق بعض الطبقات المثقفة والشباب الجامعي ، وقد يكون رائدهم نفاق سلعتهم ورواج بضاعتهم في السوق ، والربح المادي ، وقد يكون الحافز لهم التسرع في نشر ما يسنح لهم من آراء ، وما يجول في صدورهم من خواطر ، أما الكتّاب المسيحيون فلا يخلو أكثرهم عن بُعد النظر ودقّة القصـــد ، وإثارة الشبهات ، وإضعاف تأثير الإسلام في الشعب العربي المسلم ، وساعد على ذلك حركة النشر السريعة القوية في مصر ، ووجود عدد كبير من دور النشر والطباعة « العملاقة » التي يملك أكثرها المسيحيون والمارونيون بصفة خاصة ، ونهامة قراء العالم العربي لمطالعة كل ما يصدر عن مصر من غث وسمين .

وهكذا تدفق سيل جارف من المؤلفات والمطبوعات من مصر ، أكثرها في أسلوب عصري جذّاب ، وفي ثوب قشيب من الطباعة والإخراج ، وخضع له النشء الجديد وهام به ، وردّد صداه ، وهكذا انتشرت في مصر – وعن طريقها في كثير من الأقطار العربية – بلبلة فكرية هائلة ، واضطربت الأسس التي يقوم عليها المجتمع المؤمن الواعي القوي ، المعتزّ بعقيدته وشخصيته وتاريخه ، ويستمدّ منها قوة المقاومة والثبات في المعركة ، والصبر على المكاره ، والغيرة على الدين والعرض ، والكرامة والشرف ، وساد الشك والإضطراب ، والجبن والوهن[2]

(١) منذ عهد رفاعة بك الطهطاوي ، وقاسم أمين ، وأحمد لطفي السيد ، إلى عهد طه حسين ، ومحمد حسين هيكل إلى آخرين .

(٢) فسر في حديث صحيح مشهور بحب الدنيا وكراهية الموت (رواه أبو داوود) ،

وحب الدعة والإخلاد إلى الراحة ، وضعفت الأمة العربية بفعل هذا « التشكيك » الشامل ، وبتأثير هذا الأدب الرخيص ، الذي يعتمد على إثارة الغريزة ، وتسلية النفس – في القوة المعنوية التي تلجأ إليها الشعوب والأمم في المعارك الحاسمة ، وفي الساعات الدقيقة العصيبة ، ولا شك أن التشكيك والبلبلة الفكرية كانا من أعظم أسباب انهيار كثير من المجتمعات القديمة ، واندثار المدنيات الزاهرة . وقد كان هذا الوضع الشاذ الذي ابتلي به العالم العربي ، ولعبت فيه الصحافة العربية ، وحركة النشر والتأليف والترجمة ، والتمثيل والرواية والتلفزيون والإذاعة دوراً فعالاً ، من أعظم أسباب الكارثة الأخيرة التي حدثت في ٥ حزيران ١٩٦٧م ، وما أعقبه من أيام . والأوضاع الشاذة التي لا تزال تسود على العالم العربي .

وبالعكس من ذلك أوجدت حركة « الإخوان المسلمون » موجة اعتقاد راسخ ، وثقة بهذا الدين وصلاحيته ومستقبله ، واستقامة خلقية ، وإيثار للجدّ والعزيمة ، بعثت في أصحابها روح الاستماتة في سبيل المبدأ والعقيدة ، والإستهانة بالحياة في سبيل الشرف والكرامة ، وروح البطولة والمغامرة ، تجلّت في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ م ، فلما حرم العالم العربي قيادة هذه الحركة ونفوذها مهما كانت أسبابه – وأن تلعب دورها في حرب ١٩٦٧ م ، ولم تخلفها جماعة أو قيادة تنادي باسم الإسلام ، وتعتمد على روح الإيمان ، والبطولة الإسلامية ، وعجزت القومية العربية ، والاشتراكية العلمية ، أو الشيوعية الماركسية ، أن تملأ هذا الفراغ ، وتثير الحماس الديني في نفوس الشعوب العربية المسلمة ، وأن تمنح العالم العربي المفكك الوحدة والانسجام ، وروح المغامرة والاقتحام ، وقعت النكبة العظيمة ، التي انتكس لها رأس كل عربي ومسلم في الشرق والغرب ، والتصق بالعرب كلهم العار الذي لا يغسله إلاّ انتصار أعظم من هذا الاندحار ، وكرّة تتغلّب على هذه الفرّة وتُنسيها .

سوريا والعراق :

إن هذه البلاد الإسلامية الخصبة الغنية التي تعيش فيها الأغلبية الساحقة من المسلمين[١] ، والتي تملك رصيداً عظيماً من التراث الإسلامي الحضاري المشرق ، والتي عاشت كمركز الخلافة الإسلامية برهة طويلة من الزمن مرّت بأدوار سياسية مختلفة ، وثورات عسكرية مرتجلة متلاحقة منذ تحررها من نير الاستعمار الفرنسي والبريطاني ، إن هذين البلدين العربيين المسلمَيْن أصبحا تربة صالحة لنزعات الغرب العقلية والخلقية والاجتماعية ، ولا تزال الطبقة المثقفة ، والزعماء السياسيون والحكام يزدادون تحمساً للقومية العربية ، والعلمانية والتجدد والتغريب ، ورغم أن الجماهير فيها لا تزال على إسلاميتها وحبها للدين ووفائها له ، وكثير من التقاليد الاجتماعية القديمة باقية ، ويوجد فيهما عدد وجيه من العلماء المتضلعين قلما يوجد لهم نظير في البلاد الإسلامية ، إلاّ أن سيطرة الدين في المجتمع لا تزال تضعف وتنهار ، واحترام العلماء ومكانتهم في المجتمع مهددة بالزوال ، وحرية المرأة وتبرجها ينتشران بسرعة ، والمهرجانات الثقافية واختلاط الجنسين في تقدم وازدياد ، والتعليم المختلط نال رواجاً عاماً في الشعب ، وظلت العناصر اللادينية تستولي على أزمة البلاد وتتحكم في رقاب الشعب .

ومن الدليل الساطع على نفوذ الفكرة القومية واللادينية ومدى تغلغلها في المجتمع أن حزب البعث العربي الاشتراكي استطاع أن يسيطر على العراق مدة ، واستطاع أن يبقى في الحكم في سوريا مدة أطول .

وشعار هذا الحزب وهتافه ونظرته إلى الأمة العربية والوطن العربي هو كما يلي : العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة ، تعتبر الأرض التي تسكنها وطنها

---

(١) نسبة المسلمين في سوريا ٩٠٪ وفي العراق ٩٣ ٪ .

العربي « الأرض التي تمتد ما بين جبال طوروس وجبال بشتكويه وخليج البصرة والبحر العربي وجبال الحبشة ، والصحراء الكبرى ، والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط[١] » .

نقدم هنا مقتطفات من كتابات زعمائه ورجاله المسئولين ، تلقي الضوء على تفكير هذا الحزب ومبادئه :

١ – الأمة العربية وحدة ثقافية ، وجميع الفوارق القائمة [٢] بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي .

٢ – الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ ، وترمي إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشري ، وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم .

٣ – « حزب (البعث العربي الاشتراكي) قومي يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة ، وبأن الشعور القومي الواعي الذي يربط الفرد بأمته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس ، حافل بالقوى الخالقة ، حافز على التضحية ، باعث على الشعور بالمسئولية ، عامل على توجيه إنسانية الفرد توجيهاً عملياً مجدياً » .

٤ – حزب (البعث العربي الاشتراكي) ، اشتراكي يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية ، لأنها النظام الأمثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق إمكانياته ، وتفتُّح عبقريته على أكمل وجه فيضمن للأمة نمواً مطّرداً في إنتاجها المعنوي والمادي وتآخياً وثيقاً بين أفرادها » .

٥ – الرابطة القومية ، هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة واحدة ، وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية .

---

(١) الأحزاب السياسية في سوريا ص ٤٤ . (٢) الفوارق الدينية أيضاً.

٦ – يوضع بملء الحرية تشريع موحد للدولة العربية تنسجم مع روح العصر الحاضر ، وعلى ضوء تجارب الأمة العربية في ماضيها [١] » .

إن مؤسس هذا الحزب ورأسه المفكر ، هو الاستاذ ميشيل عفلق (المسيحي) ، وقد صرح بأفكاره وآرائه في كتابه : « في سبيل البعث » .

نقتبس منه ما يلي :

« ... من الطبيعي أن يستطيع أي رجل مهما ضاقت قدرته أن يكون مصغراً ضئيلاً لمحمد ، ما دام ينتسب إلى الأمة التي حشدت كل قواها فأنجبت محمداً ﷺ ، أو بالأحرى ما دام هذا الرجل فرداً من أفراد الأمة التي حشد محمد كل قواه فأنجبها في وقت مضى ، تلخصت في رجل واحد ، كل حياة أمته ، واليوم يجب أن يصبح كل حياة هذه الأمة في نهضتها الجديدة تفصيلاً لحيـــاة رجلها العظيم ، كان محمد كل العرب ، فليكن العرب اليوم محمداً » .

« ... إن تأجيل ظفر الإسلام طوال تلك السنين كان بقصد أن يصل العرب إلى الحقيقة بجهدهم الخاص ، وبنتيجة اختبارهم لأنفسهم وللعالم ، وبعد مشاق وآلام ، ويأس وأمل ، وفشل وظفر ، أي أن يخرج الإيمان وينبعث من أعماق نفوسهم ، فيكون الإيمان الحقيقي الممتزج مع التجربة ؛ المتصل بصميم الحياة ، فالإسلام إذاً كان حركة عربية ، وكان معناه تجدد العروبة وتكاملها » .

« ... الإسلام خير مفصح عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود والشمول ، فهو إذاً في واقعه عربي ، وفي مراميه المثالية إنساني ، فرسالة الإسلام إنما هي خلق إنسانية عربية » .

« ... إذاً فالمعنى الذي يفصح عنه الإسلام في هذه الحقبة التاريخية الخطيرة ، وفي هذه المرحلة الحاسمة بين مراحل التطور ، هو أن توجه كل الجهود إلى تقوية

---

(١) الأحزاب السياسية في سوريا .

العرب وإنهاضهم ، وأن تحصر هذه الجهود في نطاق القومية العربية » .

« ... الفكرة القومية المجردة في الغرب منطقية ، إذ تقرر انفصال القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوروبا من الخارج ، فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها ، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق ، لم ينزل بلغاتهم القومية ، ولا أفصح عن حاجات بيئتهم ، ولا امتزج بتاريخهم ، في حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة ، بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم إلى الحياة ، وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل ، والنفس بالقدر[١] » .

إيران :

وقلّدت إيران تركيا في عملية التطوير الفكري والحضاري ، وما يسميه زعماء التجدد « بالإصلاحات » وقد بدأ هذه الرحلة الشاقة ملك إيران السابق رضا شاه البهلوي (١٩٢٥ م - ١٩٤١ م) أيام حكمه ، واتخذ لذلك خطوات حاسمة إيجابية . كان تأثيرها في المجتمع الإيراني عميقاً وبعيد المدى ، يستعرض الاستاذ (George Lenczowski) المعلم في جامعة كليفورنيا في كتابه (The Middle East in World Affairs) «الشرق الأوسط في القضايا العالمية» تاريخ هذا التطوير في اختصار فيقول :

« لم تكن مشاريع رضا شاه الاصلاحية محدودة في نطاق تقدم إيران صناعياً ، إنه حاول أن يجعل إيران مطابقة للعصر الجديد في مجالات التعليم والاجتماع ، وبلدة عصرية متحضرة . في عام ١٩٢٧ م قرر تنفيذ القانون

---

(١) ميشيل عفلق في كتابه : « في سبيل البعث » تحت عنوان «ذكرى الرسول العربي » .

الفرنسي ، وكان تحدياً لصلاحية المحاكم الأهلية وجدارتها في الشؤون المدنية والاجتماعية ، وبدأت النزعة العلمانية في كل ذلك واضحة جلية ، بيد أنها لم تظهر علناً وجهاراً كما كانت في تركيا ، إنه شعر بأن نفوذ علماء الشيعة الرجعيين المتزمتين حجر عثرة في تغريب البلاد ، فخطى لذلك خطوات وئيدة ، إنه تلقى درساً من إخفاق تلك الثورة التي قامت للدفاع عن الديمقراطية في عام ١٩٢٤ م ، ومن إخفاق الأمير أمان الله خان ملك أفغانستان البلد المجاور في إصلاحاته ، وهو أن الشيء الذي أمكن في تركيا ذلك البلد شبه الغربي ، لا يمكن في إيران في هذا الوقت، ثم إن الدستور الإيراني ينص بصراحة على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام ، وان الطائفة الجعفرية (الشيعة) هي الطائفة الرئيسية التي يعتمد عليها ، ويجب على ملك إيران أن يكون من أتباع هذه العقيدة وداعياً إليها ، كما أنه ينص على أن مجلس إيران « البرلمان الإيراني » ليس له الخيار في وضع قانون ينافي مبادىء الإسلام ، وكان من اللازم أن يساهم في وضع هذا القانون وتنفيذه خبراء الشؤون الدينية وأهل الاختصاص من العلماء أيضاً ، وهنالك يكون هذا القانون شرعياً ولازماً ، وكان الملك يشعر بأنه لا يستطيع أن يعارض هذه المواد الدستورية الصريحة ، فاتخذ لذلك تدابير سياسية بدلا من أن يهاجمها علناً ، إنه رأى الإغضاء عن رجال الدين وتجاهلهم أحسن وأقوم من معاكستهم أو معارضتهم .

كانت عملية إنشاء نظام تعليم عصري وإثارة الحرية واليقظة في المرأة تتوقف على أن يتقلص ظل رجال الدين ، ويقل نفوذهم وتأثيرهم في الشعب ، وقد قطعت البلاد شوطاً كبيراً في هذا المجال خلال الحرب ، وأصبحت مادة التعليم الديني في المدارس الابتدائية والثانوية غير إجبارية من عام ١٩٣٠ م عُنيت برامج التعليم بإثارة الوطنية والشعور المدني عناية خاصة ، ونالت الرياضة والألعاب تشجيعاً كبيراً ، وأُنشئت عدة ملاعب جديدة ضخمة في المدن الكبيرة ، وأصبح الالتحاق بالكشافة للبنين والبنات إجبارياً للشباب ، وذلك

لبث روح القومية في الجيل الجديد .

هذه النشاطات أبعدت شباب البلاد عن ممارسة الشئون الدينية والتفكير على الأسلوب الديني ، وفي عام ١٩٢٨ م ضرب النفوذ الديني ضربة قاصمة بمنع الزي الشرقي ، وحل محل الطربوس والعمامة القبعةالبهلوية ، ولم تلبث أن جاءت مكانها القبعة الأوروبية ،واتخذ الملك أساليب مختلفة لإثارة الوعي والحرية في المرأة ، وقيد البرلمان حرية الطلاق للرجل نزولاً إلى رغبته وتوجيهه ، وسمح للمرأة التوظف في الدوائر الحكومية والمصالح الرسمية ، ولو أنها لم يؤذن لها بالدخول في التمثيل السياسي ، وأصدر التعليمات للضباط العسكريين والمدنيين لتشجيع الزي الغربي للنساء ، وفي عام ١٩٢٥ م اشتركت ملكة إيران نفسها وأميرات العائلة الملكيـــة في مناسبـــة عامة في الزي الغربي ، ومنذ ذلـــك الحين ، منع الحجاب ، ووقعت اضطرابات ، ولكن تدابير الحكومة الصارمة تغلبت عليها ، واضطر الجميع أخيراً الى الخضوع أمام القانون ، وبدأت عملية إصلاح اللغة ، وكان هدفها تحرير الفارسية من نفوذ اللغة العربية ، وكان ذلك أهم موضوع للمجمع الأدبي (Acadamy of Literature) الذي أنشىء عام ١٩٣٥ م ، ولو أن الحروف لم تتغيرفيها ، كاحدث في تركيا ،وفي مارس١٩٣٥م أصبح اسم هذه الدولة (إيران)بقرار رسميبدلاً من (فارس) ، أو (برشيا)الذي أطلقهاليونان [١] » [٢] .

ورأى الملك محمد رضا بهلوي ملك إيران الحالي أنه قدجاء أوان الإصلاحات والتطورات الأخرى فيالبلاد ، فأضفى على بعض القوانين والإصلاحات صفة دستورية ، وقرر إلغـــاء الإقطاع وملكية الأراضي ، وقرر حق التصويت والترشيح للمرأة ، كدستور وقانون رسمي ، وقام علمـــاء إيران بالاحتجاج

---

(١) والعرب أيضاً .

(٢) The Middle East in World Affairs P. 180 -182

والمظاهرات ضد هذه الإجراءات ، ووقعت اضطرابات واشتباكات في البلاد ، ولكنها لم تحدث أي تغيير في موقف الحكومة .

إندونيسيا :

إن موقف الدول الإسلامية المستقلة المتحررة إزاء التجـــدد والتغريب ، ونزعتها العامة القوية لضرورة علمانية الدولة ، واعتبار القانون الإسلامي غـير صالح للتطبيق في هذه الحياة ، والانسياق مع الأفكار الغربية وأقدارهـــا ، موقف لا يستثنى منه هذا البلد المسلم الذي يكوّن المسلمون فيه نسبة تسعين في المائة من النفوس ، وبالرغم من ذلك الصراع العنيف الطويل الدامي الذي ظل عدة سنوات باسم حركة دار السلام ، وكاد أن يحتضر ويلفظ نفسه الأخـــير ، لا تزال الطبقة الحاكمة فيها بقيادة الرئيس الدكتور أحمد سوكارنو تسوقها إلى تقليد تركيا بتصميم دقيق وتخطيط سابق ، وقد علق عليها المعلق الأمريكي المشهور لويس فشر (Louis Fisher) في كتابه : (The story of Indonesia) وصوّر الأوضاع فيها بلباقة ، وعبّر عن تفكير الطبقة الحـــاكمة وعقليتها تعبيراً صحيحاً :

« إن البلد المسلم الوحيد ، غير الشيوعي (Non - Communist) الذي مرّ بثورة حضارية عميقة هو تركيا ، التي ألغى فيها كمال أتاتورك دين الدولة الرسمي (الإسلام) وقرر إلغاء المحاكم الشرعية والخلافة ، والحجاب ، والحرم، واستعمال الحروف العربية ، وأصبح الزي الغربي والحروف اللاتينية التعليم الإجبـــاري العام ، وحق المرأة في الانتخاب ، وعطلة يوم الأحد ، والقومية من الأمور التي نص عليها الدستور ، أما إندونيسيا فلم تكن هناك حاجة إلى تغيير أو إصلاح من مثل هذه « الإصلاحات » فقد وصلت إندونيسيا الى هذه الدرجة من التغريب من قبل ، جمهورية إندونيسيا علمانية ، ولو أن دستور ١٩٤٥ و ١٩٥٠ يعلنان أن أساس هذه الجمهورية هو « الإيمان بالله » ، ولكن الإسلام لا يشترط لأي

موظف في الحكومة ، ولا لأكبر ضابط أو رئيس جمهورية ، ولا يلزم عليه أن يقسم بالله أو بمحمد ﷺ في ولائه (١) ، وكل إنسان حر في اعتناق أي دين والتمسك به في ضوء الدستور .

إن هذا البلد الذي يحمل طابعاً غير إسلامي ، وغيرديني أثار على نفسه عدداً ضخماً وجيهاً من سكانه ، فشنوا على حكومته حرب العصابات Guerilla war كانت أطول الحروب في تاريخها ، وأنفقت عليها أموالاً طائلة ، وليستدل لتبرير العلمانية ، بأن كثيراً من الطوائف أمثال المسيحيين والهنادك يعيشون فيها ، ولكن الدليل الحقيقي الذي لا ينطق به اللسان إلا قليلاً ، هو أنه لا يمكن لأي دولة عصرية أن يحكم عليها بمبادىء القرآن وتعاليمه التي أنزلت قبل ثلاثة عشر قرناً على محمد ﷺ ، ونقطة أخرى أنه إذا حل القرآن محل القانون يصبح علماء الدين المتزمتون لهم الحق وحدهم في تفسيره والدفاع عنه ، وتتسم السياسة بطابع قديم يرجع إلى مئات السنين ، إن معظم الأحزاب السياسية ، والزعماء والقادة وأهل الفكر والرأي متنورون ، ومن دعاة العلمانية التي تدعو إليها عقلية العصر الحديث ، ويعتقدون أن الجهاز العلماني أحرى وأجدر لدولة إسلامية ، وهكذا ترى أكثرهم يفكرون على الطراز الغربي وطابعه (٢).

الأقطار الاسلامية المتحررة حديثاً في طريق « التغريب » :

وأخاف أن تكون هذه قصة القادة المتجددين الثوريين ، وقصة كثير

---

(١) الكاتب الأمريكي لا يعرف أن الحلف بنبينا صلى الله عليه وسلم غير جائز في الإسلام .
(٢) The Story of Indonesia - P. 260 - 261.

ثار الشعب الإندونيسي المسلم أخيراً على الاتجاه اللاديني والشيوعي الذي كان يقوده الرئيس سوكارنو ، وعدد كبير من ضباط الجيش فانتزع من الرئيس السلطة ، وأبقاه حاكماً رمزياً ، وشكلت الحكومة تشكيلاً جديداً ، وأقصى جزء كبير من العنصر الشيوعي ، أما سياسة الحكومة واتجاهها الفكري ، فلا يزال فيها شيء كثير من الغموض ، والبلد يواجه اصطراعاً عقائدياً لا يعلم مصيره إلا الله .

من الأقطار الشرقية التي تحررت ونالت استقلالها في مدة قريبة ، يظهر أن زعماءها ، وولاة الأمور فيها ، قد صمموا على تطبيق الفلسفة الفكرية الغربية – بشعبها الاقتصادية والسياسية والثقافية – وفلسفة القومية المادية في بلدهم الإسلامي ، فهم في حرب دائمة دامية مع الطبيعة الإسلامية العميقة الجذور الممتدة العروق ، وفي صراع مع الجهاز الاجتماعي والعلمي والخلقي ، الذي فيه الخير الكثير والقوة التي ترهب ويحسب لها الحساب ، ويمكن أن تنمى وتستغل لصالح الأمة والبلاد ، وفي صراع مع المعنويات التي نشأت ورسخت في نفوس أفراد هذه الأمة وأجيالها ، بجهود جبارة ، ودماء زكية سخية ، وإخلاص ليس له نظير ، وعلى حساب الإيمان – بالله وبالرسول وبالغيب – الذي لا يصنع في المصانع ، ولا يولد بالخطب الرنانة ، ولا يخلقه إلا تأثير الرسل وشخصيتهم القوية ، وجهود الدعاة المخلصين من الطراز الأول ، والذي إذا فقد من الأمة لا يعود بسهولة ، ولا يملأ فراغه شعور قومي ، أو وعي سياسي ، أو تقدم في المعرفة والثقافة ، والذي صنع المعجزات في القديم ، وخليق بأن يصنعها في كل وقت ، وعلى حساب العاطفة الدينية التي يرجع إليها الفضل في الفتوح والانتصارات القومية والسياسية ، وتجلت قوتها في معركة القناة ، وتحرير الجزائر ؛ وتكوين دولة على أساس الإسلام والقومية الإسلامية في شبه قارة الهند[١] لا يحلم بها عصر السياسة الوطنية والعلمانية .

وقد تبيّن – كالشمس في رابعة النهار – زمن اصطدام البلدين في شبه القارة الهندية في ١٩٦٥ م ، أن لا ملجأ لشعب مسلم مهاجم ، يفوقه الشعب المهاجم أضعافاً مضاعفة في العدّة والعتاد ، وفي الغنى وسعة البلاد إلاّ الإيمان العميق ، والحمية الدينية والحماسة الإسلامية ، والحنين إلى الشهادة ، والإستهانة بالحياة والمادة ، واتضح له خذلان القوى الحليفة ، وفضل الجامعة الإسلامية الدينية التي أسّسها الإسلام ، وظلّ زعماء الإسلام من عهد السيد أحمد الشهيد إلى عهد

---

(١) وهي دولة باكستان .

جمال الدين الافغاني ومحمد إقبال ، يشيدون بها ويدعون إليها ، فكأنهم يصيحون في واد ، وينفخون في رماد .

فإذا بهذه الجامعة الإسلامية تهب من رقدتها ، وتنهض من كبوتها ، ويصبح هذا العالم الإسلامي الذي كان كبحر العروض ، بحراً ولا ماء ، وإسماً من غير مسمّى ، يصبح حقيقة ، ويقوم كثير من حلقاته بواجبها المقدّس ، من الانتصار والدفاع ، والتجأ القادة إلى إثارة الشعور الديني الذي استهانوا بقيمته ، وتحريك العاطفة الإسلامية ، وإشعال الجمرة الإيمانية ، « وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه » ، فصادفوا في الشعب رغبة وإجابة وتهيّئواً لذلك ، وأعاد التاريخ نفسه ، واكتشفوا قيمة الإيمان وقيمة التربية الإسلامية ، وقلة غناء التجدد والتغريب ، والتقليد الأوروبي ، فكان مبدأ انطلاق جديد ، وتحوّل ملموس في التفكير والأدب والصحافة ، والإذاعة ، وعادت لغة الدين والإيمان ، ولغة الحديث والقرآن ، ونداء الضمير والعقيدة ، من جديد ، وسيطرت على جميع مجالات الحياة ، وخفت صوت التجدّد المتهوّر ، والتقليد الغربي الأعمى ، والدعوة إلى الميوعة والاستهتار .

إنها مأساة أليمة ومهزلة تاريخية في وقت واحد ، أنه إذا كانت هذه البلاد في حاجة إلى التخلص من الاستعمار الأجنبي ، وكانت في حاجة إلى تضحيات الشعب وجهاده وحماسته ، الشعب الذي لا يعنيه شيء مثل ما يعنيه رضا الله وثواب الآخرة وسيادة الإسلام ، والذي لا يفهم لغة غير لغة الدين ، ولا يثير فيه الحماس ولا يحرك ساكنه هتاف غير الهتاف الديني ، يقوم الزعماء وأبطال جهاد الحرية في هذه البلاد فيتكلمون بلغة الدين ويدعونه إلى المغامرة والمجازفة بالحياة ، وبذل النفس والنفيس واقتحام الأخطار بالشعارات الدينية ولإعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام ، وينتصرون على العدو القاهر ويذللون كل عقبة بفضل قوة الإيمان التي لا يوجد لها نظير في الأمة الإسلامية على أقل تقدير ويرغمون خصومهم الأقوياء وأعداءهم الجبابرة على الخضوع والاستسلام ،

ولكن لا يجتازون هذه المرحلة العابرة ، ولا يأخذون زمام القيادة والسلطة ولا يملكون (على حد تعبيرهم) مصير الشعب وناصيته ، إلا ويسوقون بلادهم إلى التغرب والعلمانية Secularism ، ويبدأون عملية إصلاح الدين وإحداث التغييرات في قانون الأحوال الشخصية وصهر البلاد في بوتقة الغرب ، ويتظاهرون فيه بسرعة عجيبة وحرص بالغ ، يجعل هؤلاء الذين قاموا بالتضحيات الكبيرة في هذا السبيل ، يعتقدون لعلهم أخطأوا أو جنوا على أنفسهم وبلادهم بالكفاح الذي قاموا به لأجل تحرير البلاد ، ولعل استقلال البلاد ، قد عاد وبالاً وشؤماً على الحياة الإسلامية والحرية الدينية .

فمن عام ١٩٢٤ م إلى عام ١٩٦٢ م ، ومن تركيا إلى الجزائر ، قصة واحدة ذات فصول وحلقات ، لا تستثنى منها دولة إسلامية ، ونرى أن الدول العربية – بنفسها – أيضاً تتقدم إلى هذا الهدف بنفس العزم والحماسة والقوة ، وتقتفي أثر تركيا التي كانت في زمن من الأزمان ناقمة عليها ثائرة ضدها ، والتي لا تزال تتظاهر باستنكارها واستيائها لسياستها حتى الآن .

تونس :

إن تونس في مقدمة البلاد العربية التي نالت الحرية والاستقلال في عام ١٩٥٧ م ، وبدأ رئيسها الأول الحبيب بورقيبة بعملية التجدد وتنفيذ الإصلاحات الكمالية في هذا البلد العربي المسلم المتحمس ، إن تصريحاته وأحاديثه التي يدلي بها بين حين وحين الى الصحف تدل بصراحة ووضوح أنه يريد أن يسير بهذه البلاد الى الطريق الذي سارت عليه تركيا من قبل ، وينشىء تونس الحديثة كما تملي عليه ثقافته الفرنسية ، ونقدم هنا رأي جريدة فرنسية معروفة بدقة التحري كجريدة « لوموند » الباريسية تنفي وجود الاتجاه اللاديني في الجمهورية

التونسية ، ففي سلسلة تحقيقاتها عن تونس المستقلة على عتبة السنة الثالثة نجدها تنشر في الفصل المعنون « بين العرب والإسلام » بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٥٨ م :

« لقد وضع السيد الحبيب بورقيبة حداً لتعدد الزوجات [١] وللطلاق الانفرادي وللاستبداد الزوجي ، وجعل قبول الزوجين معاً اجبارياً ، هذا التحرير العائلي يتضاعف بتحرير سياسي واجتماعي ، والنساء منذ الآن ناخبات ومنتخبات (١١ مستشارة بلدية انتخبن في السنة الماضية) ويدخلن في جميع الوظائف ، ويوجد من بينهن فعلاً نحو مائة في التعليم و ١٥٠٠ في الإدارات و ٧ آلاف في المشاريع المختلفة .

إن تونس في هذا الميدان تظهر بمظهر الأمة المرشدة ، لقد نهجت الطريق المفتوحة من طرف تركيا الكمالية ، فالتطور في تونس ذو احساس دقيق بصفة خاصة ،فالحجاب أخذ يقل خصوصاً عند الفتيات ، وظهور الأزواج في الأزقة أصبح أكثر عدداً ، ويزداد يوماً عن آخر جلوس الرجال والنساء جنباً الى جنب في الاجتماعات السياسية ، وفي البوادي حيث المعارضة أقوى نجد التقدم أقل سرعة .

إن بورقيبة لم يحاول أن يفرض هذا التطور ، بل إنه يفضل أن تسقط هذه « الخرق الشنيعة » من ذات نفسها ، وهو يدافع عن نفسه أيضاً ضد اللادينية وبالأحرى أن يريد الانفصال عن الإسلام ، ولكنه يبذل جهده للتوفيق بين الحضارة العصرية الضرورية والتقاليد الدينية ، ويهتم بالتدليل على أن إصلاحاته إذا كانت لاتحترم دائماً النصوص الحرفية للقرآن فإنها لا تخون روحها ، وبهذا الاعتبار فإن الاتجاه التونسي أقرب لنظيره في النظام المصري منه للنظام الكمالي ، فبالنسبة للتعليم التقليدي نجد بو رقيبة يقيم الدليل على نفس التحديد ، بل وعلى نفس المرونة ، فقد تجنّب مهاجمة الجامع الكبير (الزيتونة) وجهاً لوجه ،

---

(١) كان ذلك في عام ١٩٥٨ م،ثم منع تعدد الزوجات بتاتاً .

ولكنه منذ سنتين يحدد بالتدريج دوره ومهامه ، ويفكر كما قيل لي ، في تحويله إلى مجرد كلية لعلم اللاهوت في إطار الجامعة التونسية .

هذه الإصلاحات المختارة كنماذج من بين غيرها تفصح عن نوايا جد مؤكدة لتحويل تونس إلى دولة عصرية ، وجميع الشباب التونسي يصادق في هـــذه الناحية على عمل الرئيس ، بل إن أفراداً يجدونه شديد البطء شديد الخجل ، ولكن بو رقيبة يفضل هو أيضاً احترام « المراحـــل » ، ومع ذلك فمن رأي بعضهم أن « التحضير » (اقتباس الحضارة) لا يعني بالضرورة « التغرب » (التحول غربياً) ، ويقولون : لماذا ترتبط بهـــذه الشهرة مع الغرب ، ونعلن ذلك بهذا التكرار ؟!. وهكذا فإن اتجاهاً يتكون حالياً عند بعض المثقفين لفائدة نوع من الإصلاح والحياد على الطريقة المصرية [١] ».

وقد ذكر جوزف شاخت (Scho Cht) في مقالة نشرت له حديثاً تحت عنوان « قضايا الفقه الإسلامي الحديث » هذا الشوط الذي قطعته تونس في مجال التجدد والتغرب ، وذلك في صراحة ووضوح ، إنه يقول :

« .. وأخيراً قبلت تونس قانون ١٩٥٦ م ، وأثبتت أنها في مقدمة البلاد آمنت بتغير الفقه الإسلامي ، فألغيت أولاً الأوقاف العامة ، ووُضعت أملاكها وميزانيتها تحت تصرف الحكومة ، وكان هـــذا القرار أهم بكثير من إلغاء الأوقاف في سوريا ومصر من وجهة النظر القانونية ، وألغيت المحـــاكم الشرعية إقتداءاً بالقانون المصري في السنة الماضية ، ونفذ قانون آخر للأحوال الشخصية بعنوان : « مجلة الأحوال الشخصية » (Tunisian Code of Personal Status) وقد زعمت وزارة العدلية بتونس أن هذا القانون نال إعجاب كبـــار رجال القانون الإسلامي ، ومع أن هذا القانون أبقى على بعض القضايا التي هي إسلامية

---

(١) المغرب المسلم ضد اللادينية : لإدريس الكتاني ص ٩٥ – ٩٦ .

في صميمها مثلاً المهر ، وتحريم النكاح على أساس الرضاع ، ومع أنها تتفق مع أحدالمذهبين الفقهيين المعتمد عليهما في تونس ، إلا أن القول بأنه صورة القانون الإسلامي في المحاكم الشرعية قديماً مع بعض التغيير والتعديل استناداً إلى تأويل بعيد لا يصح ، وقد أفتى بعض كبار علماء هذه المحاكم من الطراز الأول ضد هذا القانون ، واستقال أربعة منهم (ومنهم مفتي المذهب المالكي الأكبر ومفتي المذهب الحنفي الأكبر) من المحكمة العليا (Tribunal Superior) احتجاجاً ضد هذا الإجراء ، صحيح أن الجزء الذي يتعلق بقانون المواريث هوعلى حالته لم يغيَّر فيه مطلقاً – ولعل السبب في ذلك أن هذا القانون كان صالحاً للأوضاع الاجتماعية في تونس ومطالبها حتى الآن – أما أحكام النكاح والطـــلاق فإنها مسخت مسخاً شديداً ، حتىلم يُعرف شكلها الصحيح ، فمثلاً منعتعددالزوجات واعتباره جناية تستحق عقوبة ، النكاح لا يعقد إلا برضا الفريقين ، الطلاق لا يقع إلا بواسطة المحكمة ، وذلك في ثلاث نقاط :

أ ــ أن يكون طلب الطلاق على الشروط التي ذكرت في القانون .

ب– أن يكون الفريقان متوافقين على الطلاق .

ج – أما إذا طلبه فريق واحد ، فيعين القاضي الغرم الذي يدفعه ذلك الفريق إلى الفريق الآخر .

وهكذا لم تجعل المرأة متساوية بالرجل في الطلاق والزواج أمراً أساسياً فحسب ، بل في شئون الملكية أيضاً التي تتبع النكاح ، إنه بعيد أن يكون لواضعي هذا القانون اطلاع على أفكار خدا بخش ، ولكن مما لا شك فيه أن القانون التونسي تأثر بمثل هذه الأفكار والنزعات، ومهما زعم أهل الحل والعقد في تونس ، فإن قانونهم الشخصي يختلف عن القانون الإسلامي التقليدي ، كما

يختلف عنه القانون العلماني .. في تركيا ، تماماً[١] ».

الجزائر :

الجزائر التي دفعت ضريبة الحرية بتضحية مليون نسمة ، وكان السرّ في هذه التضحية والثبات (الذي لا يوجد له نظير في العصر الحديث) حب الشهادة ، والحنين إلى الجهاد . وكانت وكالات الأنباء الغربية تعبّر عنهم – أي الجزائريين بكلمة المسلمين فحسب في أخبار معاركهم وكفاحهم ، هذه الجزائر المجاهدة تعاني نفس المشكلة ، وتمر بنفس التجربة التي مرت بها الدول الإسلامية التي يتزعمها قادة التجدد والتغريب في هذه البلاد، فقد أصبح زعماء الجزائر يسوقون بلادهم نحو مادية اشتراكية علمانية ونحو الحضارة الغربية رغم عاطفة الشعوب الدينية والآمال التي عقدتها العناصر الإسلامية بهم [٢] .

نستطيع أن نتمثل هذه الأوضاع التي تحتجُّ عليها روح الجزائر الإسلامية ودماء الشهداء بتصريح من علماء الجزائر وصل إلينا بطريق صحيفة يهودية جويش أوبزرفر (Jewish Observer) الصّادرة من لندن .

نشرت هذه الصحيفة في عددها الصادر في ٣١ أغسطس ١٩٦٢ م لمراسلها في الجزائر تحت عنوان « حكم الإسلام لا بد أن يسود » ما يلي ترجمته:

« أعلن القادة المسلمون الدينيون هنا أن « الإسلام واللغة العربية » لا بد أن

---

(١) مقالة شاخت بعنوان Problems of Modern Islamic Legislation ترجمة الاستاذ فضل الرحمن الانصاري ملحقاً في مجلة « برهان » ديسمبر ١٩٦٣ .

(٢) نشرت الصحف الانجليزية الصادرة من الهند هذا الخبر في ٥ إبريل ١٩٦٢ م ، أن الأستاذ بكر ممثل الجزائر في الهند صرح في مؤتمر صحفي هناك ، أن الجزائر الحرة ستكون دولة علمانية ديمقراطية ، أما ثقافتها فتكون عربية إسلامية ...

يسودا الجزائر الجديدة ، وهاجم علماء الجزائر في بيان لهم القادة القوميين الذين ينادون بدولة جزائرية اشتراكية يعزل الدين فيها عن التدخل في شؤون الدولة .

لقد أعلن بيان العلماء أن الثورة الجزائرية تكون قد خانت شهداءها الذين سقطوا في الميدان وفشلت في رسالتها التاريخية إن لم يكن الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية ، إن اتفاقية « افيان » لوقف القتال تنص على أن دستور الجزائر في المستقبل لا بد أن يتضمن حرية الأديان وأن تكون اللغتان العربية والفرنسية هما اللغتين الرسميتين في الدولة ، وأن الدستور سيرسم خطوطه الجمعية العمومية التي كان مفروضاً أن تجتمع يوم ٩ سبتمبر بعد أن تأجل انعقاد جلستها عدة مرات ، ولكن انعقادها حتى بهذا التاريخ قد أجل بسبب التوتر المستمر في العلاقات بين قادة الجيش والقادة السياسيين ، ولكن ها هم العلماء الجزائريون الآن ، ولأول مرة ، في تصريح عام لهم ، منذ انتهى الحكم الفرنسي يعلنون أن الاستقلال والتنمية المادية للاقتصاد ليسا كافيين كي يكوناهما غايةالثورة الجزائرية ، وذكر بيانهم : « أن لكل أمة مستقلة شخصية ، وإلا تشابهت الأمم كالسمك في الماء ، الجزائريون والفرنسيون والإسبانيون و ... ومعنى ذلك أن نصبح دولة مفتوحة للعالمية الواسعة ، نحن نعارض كل هذا ... نحن جزائريون ولنا شخصيتنا الوطنية المستقلة يقضي بذلك ديننا الإسلامي ولغتنا وتقاليدنا وتاريخنا »، ووصف بيان العلماء محاولة البعض في فصل الإسلام عن الدولة بأنه « تنكر لمبادىء ثورتنا ، وهجوم على الإسلام في هذه الأمة المسلمة ، وانتهاك لحرمة هذا الشعب كله [١] » .

إن هذه الدول العربية المستقلة وزعماءها القوميين لا يزالون يبدون رغبتهم في الإسلام وصلتهم به بين حين وآخر ، إنهم لا يجهلون أن الإسلام لا يزال رابطة وحيدة قوية بينهم وبين الشعب ، وإنهم لا يستطيعون أن يحكموا الملايين إلا

---

(١) المسلمون ، العدد التاسع جمادى الأولى ١٣٨٢ اكتوبر ١٩٦٢ م .

باسمه ولافتته ، ولكن مفهوم الإسلام عندهم يختلف كلياً عن ذلك المفهوم الذي يحمله المسلمون المتمسكون بدينهم ، إنهم يريدون بالاسلام ديناً مر بمرحلة الإصلاح والتطوير (Reformed) يتلاءم مع الحضارة الغربية وقيمها وأقدارها، ويصلح لقومياتهم ووطنياتهم ، ويحصر في إطار العقائد والأخلاق، فلايتدخل في وضع الدستور وشؤون الدولة ومصالحها .

وأعتقد أن رأي كاتب لبناني الدكتور سالم ليس من المبالغة وتهويل الواقع في شيء إذ كتب في صحيفة أمريكية مشهورة (Muslim World) تحت عنوان : (Nationalism and Islam)

« إن القومية قد توافقت مع الإسلام لتحقيق هذا الهدف ، ولكن الإسلام الذي تعنيه القومية هو ليس الإسلام القديم الجاف ، بل إنه إسلام عصري جديد مرّ بمرحلة التطوير والإصلاح ، موضة عصرية تزيّت بزيّ الإسلام فقط ، لاشك أن اسم محمد ﷺ والقرآن تتردد على الألسن ، ولكن ليكون ذلك مبرراً لكل ما يعمله القوميون ، إن القومية العربية حقـّقت كل هذه الانتصارات بتمسكها بالإسلام ، ونستطيع أن نقول إلى حد كبير إن القومية العربية لا تدخر وسعاً في استغلال الإسلام استغلالاً كاملاً لتكوين أمة عربية جديدة ، إن الزعماء القوميين يحققون انتصاراً باهراً بهذا المزج بين القومية والإسلامية [١] » .

عملية هدم وإزالة أنقاض :

وهكذا تنقل شجرة الحضارة الغربية والفلسفة الغربية ، التي ساهم في نشأتها وسموقها مناخ خاص ، وسقي خاص ، وغذاء خاص ، وقد توفرت هذه العوامل كلها في الأراضي الأوروبية ... تنقل هذه الشجرة – بعدما كبرت وترعرعت –

---

(١) مقالة (Nationalism and Islam) في مجلة (Muslim world) عدد اكتوبر ١٩٦٢ م .

إلى الأرض الإسلامية ، فتغرس فيها وتنصب بقوة ، ويهيأ لها الجو ، وتحفر لها الأرض حفراً عميقاً ، ويقوم الحريصون على نصبها في البـــلد الإسلامي بعملية الهدم الواسعة وإزالة الانقاض الفكرية والاجتماعية – كما يسمونها – من حولها ، وتستغرق هذه العملية الهدامة جهوداً وطاقات وأوقات كانت تعود على الأمة وعلى البلاد بنفع كبير ، لو وجهت إلى عملية إيجابية بنّاءة ، وإلى إثارة القوى الـكامنة في نفوس رجال هذا الشعب الإسلامي عن طريق الإيمـــان والدعوة الدينية ، والإصلاح الخلقي .

رجعية التقدميين :

وقد يلجأ هؤلاء المتجددون في سبيل التجديد إلى بعض الفلسفات والنظم والروابط ، التي فقدت قيمتها ومكانتها في المجتمع الأوروبي من زمان،وأصبحت تعتبر من الشعارات الرجعية ومن التجارب القديمة التي لجأ إليها القادة في أوروبا في ظروف خاصة ، وفي وقت محدود ، ثم استغنوا عنها بما رأوا من أضرارها وجناياتها وتركوها إلى فلسفة أو فكرة أفضل منها وأوسع ، وخير مثال لذلك « القومية » التي تخلت عنها أوروبا تقريباً ويعض عليها بعض القيادات في الشرق الإسلامي بالنواجذ ، وترى فيها الأسلوب الأخير من التفكير ، وآخر ما وصل إليه العقل البشري من وسائل التنظيم والتخطيط ، مع أنها من بقايا عصر البداوة والحياة القبلية المحدودة في صورة موسعة ، وطمرٌ بالٍ خلعه الأوروبيون ، ومن العوامل الهدامة التي فرّقت المجتمع البشري ووزعت الجيل الإنساني على نفسه .

قد بدأ مفكرو الشرق والغرب الأحرار ينظرون إلى القومية نظرة احتقار وازدراء ، ويعتبرونها موضة قديمة ، ودليلاً على الرجعيّة والتزمّت ، وعنصراً هداماً للإنسانية والسلام العالمي ، ويدعون إلى الوحدة الإنسانية وفكرة الأسرة

العالمية ، ونقدم هنا – كدرس وعبرة – رأي مفكرين عظيمين ، أحدهما ينتمي إلى الغرب والآخر ينتمي إلى الشرق ، الأول هو المؤرخ الشهير أرنولد توئنبي (Arnold Toynbee) والثاني الدكتور رادها كرشنان رئيس الجمهورية الهندية سابقاً .

إن أرنولد توئنبي يكتب في إحدى مقالاته :

« إن مستقبل الإنسانية يتوقف على أخوة روحية لا يمنحها غير الدين ، وهو الشيء الذي يحتاج إليه النوع الإنساني في هذا الوقت ، الشيوعية تزعم أنها تستطيع أن توحد النوع البشري ، كما أن الإسلام يثبت صلاحيته كقوة موحدة للإنسان في إفريقيا ، المسيحية أيضاً تستطيع أن تلعب هذا الدور إذا عملت بمبادئها ، ولكن القومية لا تستطيع أبداً أن توحد الإنسانية ، بل إنها توزعها وتشتت شملها ، ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل ، وإنها لا تستطيع إلا أن تدفن الإنسانية في ركامها .

إنه يجب علينا أن نختار إحدى النتيجتين في عصر الذرة ، وإننا إذا أردنا أن ننقذ أنفسنا من الهلاك والدمار فينبغي لنا أن نحتضن الإنسانية كلها من غير استثناء ، ونتعلم كيف نعيش كأسرة واحدة[1] » .

ونادى الدكتور رادها كرشنان بتبني فكرة « الأسرة الواحدة على وجه الأرض » حتى يسلم العالم من عواقب « القومية العسكرية » ، وقد قال في خطبته التي ألقاها في ١٠ يونيو ١٩٦٣ م ، في مؤسسة الأمم المتحدة :[2]

« إن تقاصر الإنسان عن إلغاء التجارب النووية لا يدل إلا على نظرة خاطئة كبيرة ، التاريخ يشهد أن الاستيلاء السياسي ، والتمييز العنصري والاستغلال

---

(١) Islamic Review March 1961

(٢) وكان رئيس الجمهورية الهندية يومئذ .

الاقتصادي دفع الإنسان إلى نار الحرب ، فإذا قضي على هذا الاستيلاء السياسي والاستغلال الاقتصادي بإدخال الرخاء ، والقضاء على النّعرة الجنسية يكون ذلك خدمة كبيرة للسلام العالمي .

إن الوطنية ليست المثل الأعلى للإنسان ، بل إن مثله هو فكرة الأسرة العالمية الواحدة ، إننا نعيش في عالم حديث ، ولكن أفكارنا قديمة عتيقة(١) ».

تقليد دعاة التجديد :

إن هذه المحاولة المخلصة الملحفة لتطبيق تجارب الحياة الأوروبية في بلد إسلامي يبرهن على أن قادة هذه البلاد - وإن دوت أسماؤهم في العالم وقادوا الجماهير الكثيرة - لا يزالون - رغم ثقافتهم العصرية الواسعة - في دور الطفولة العقلية التي يكثر فيها التقليد والمحاكاة والتلمذة المتواضعة لأساتذتهم الغربيين ، وأن شخصياتهم مجردة عن كل ابتكار ، وعن القدرة على الإنتاج الأصيل والإبداع ، وعن التفكير الحر ، وإنهم فضلاً عن جهلهم أو تجاهلهم لطبيعة الشعوب التي يحكمونها ، ولمواهبها وطاقاتها لا يسايرون الفكر الأوروبي في تقدمه وأطواره ، ولا يعرفون ما يجيش به المجتمع الأوروبي من قلق وتذمر ، وبحث عن الإيمان والروحانية .

إسراف الدول الاسلامية المتخلفة :

الحالة الاقتصادية في الدول المسلمة سيئة بوجه عام ، إنها مفتقرة إلى الدول الأخرى وعالة عليها ، حتى في حاجات الحياة ، وإن مستوى حياة شعوبها منحط خافض بوجه خاص ، أما البلاد التي عدد سكانها هائل فإن مستوى

---

(١) « National Herald » Lucknow (India)

معيشتها وحالتها الاقتصادية أحط بكثير مما عليه البلاد الأخرى ، ولكن حكومات هذه البلاد تحاول تقليد الدول الغربية المتحضرة الغنية ولا تدخر في ذلك وسعاً ، وتعتبر إنشاء القنصليات والسفارات في جميع البلاد فريضة لازمة ، وتتخذ هذه السفارات كل الأساليب التي تتخذها السفارات الغربية التي لا دين لها ولا حشمة ، ولا حدود خلقية ، إن هذه السفارات المسلمة والعربية تقيم مآدب فاخرة وحفلات الكوكتيل Cocktail Parties وتصب فيها أموال الفقراء والطبقة الوسطى كالماء الجاري ، وتقدم الخمر في عامة الأحوال ، ولحم الخنزير أيضاً في بعض الأحيان وبعض المناسبات ، إن هذه السفارات لا تتحمس مطلقاً لدعوة الإسلام ، والتمسك بمبادئه الخلقية التي تنتمي إليها ، ولا تكون لها صلة بالمسلمين في تلك البلاد وعناية بتوجيههم وتشجيعهم والاطلاع على أحوالهم وأوضاعهم ، ولا تفيدهم ثقافياً وأدبياً إلا نادراً .

إن كثيراً من زعماء الدول المسلمة (ومنهم من آمنوا بالديمقراطية والاشتراكية كمبدأ ودستور) يعيشون عيشة باذخة مبذرة ، نفقاتهم ملوكية وجولاتهم تذكر بعهد كسرى وقيصر وامبراطور روسيا في العهد الأخير ، وحياتهم المنزلية ومناهج عيشهم تشبه قصص ألف ليلة وليلة ، والإنسان يكاد لا يصدق أن هؤلاء هم زعماء البلاد الإسلامية المتخلفة ، والشعوب المتأخرة الفقيرة ، والدعاة إلى الاشتراكية والديمقراطية والشعبية .

نقدم بهذه المناسبة الدكتور سوكارنو رئيس جمهورية إندونيسيا سابقاً [1] كنموذج لهذا النوع من القادة والزعماء ، ونضرب مثالاً لأسلوب حياته ، ومستوى معيشته ، تقول جريدة « الصندي تلغراف » الصادرة من لندن في

---

(١) إندونيسيا بلد متخلف فقير بعدد سكانه الهائل ، وقد صرح نائب الحاكم العام بجاوا أن مليون نسمة تقريباً في جاوا الوسطى تعاني الفقر والجدب والفاقة ، وقال إن هناك ١٢ ألفاً من الناس يأخذون التلقيحات الغذائية في المستشفيات الحكومية .

أحد أعدادها :

« الرئيس الإندونيسي سوكارنو أنفق خلال إقامته في طوكيو خمسة آلاف جنيه يومياً ، وكان يرافقه ستة ضباط ، وكانت المومسات والبغايا والفتيات الأخريات يجلبن إلى فندقه الذي كان يكلفه ٥٥ جنيهاً يومياً ، وكان ٥٠ من الحراس منزعجين لكثرة تردد المومسات والبغايا الزائرات في هذا الفندق » .

كما أن مكتب وزارة الخارجية باليابان لا ينظر بعين الرضا إلى هذه الجولات التي يقوم بها الرئيس سوكارنو بين حين وآخر لطوكيو ، ولكن بما أن اليابان تريد استغلال الوسائل الطبيعية في إندونيسيا فإنها لا تبدي استنكارها لهذه الجولات بطريق علنية (١) . »

صراع بين الحكومات والشعوب :

إنهم في بلاء وشقاء من هذه الشعوب التي لا يسهل عليها التخلي من المبادىء الدينية ، ومن ثروتها الإيمانية ومن تراثها الغني ، والانقطاع عن منابع الحياة والقوة التي تكمن في مصادرها الدينية ، وأدبها الإسلامي ، وتاريخ الإصلاح والتجديد ، فهم في عملية هدم واسعة الأكناف ، طويلة المدى ، محاربة من جهات كثيرة ، والشعوب الإسلامية – التي وقعت تحت حكمهم وقيادتهم – في بلاء وشقاء من هؤلاء القادة ، فهم يحاربون طبيعتها ويقودونها بهتافات وشعارات لا تسيغها هذه الشعوب ولا تنشط لها ، ولا تستطيع أن تحبب إليها الموت والفداء ، وتهون عليها بذل النفوس والأموال والهجرة من الأوطان ، وتتغلب على الشهوات الأنانية الفردية ، وقد عرف هؤلاء القادة ضعف هذه الهتافات والشعارات في إثارة الحمية ، وإشعال الحماسة في نفوس الجماهير ، فهم يلجأون

---

(١) Sunday Telegraph 21 , January 1964

دائماً أيام الجد والمعارك الدموية الحاسمة إلى الهتافات الدينية والشعارات القديمة من الجهاد في سبيل الإسلام والشهادة في سبيل الله حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، وتسلموا مفاتيح البلاد، عادوا إلى هتافاتهم، وشعاراتهم القومية والزمنية، ويفترضون أنهم يحكمون شعوباً ليست لها ديانة تحبها وتقدسها وتستميت في سبيلها، وليست لها عاطفة دينية تحتاج إلى التربية والاستثمار.

إهمال طاقات وكنوز مخبوءة :

وهكذا تضيع طاقات هذه الشعوب ومواهبها، وإمكانياتها التي لو استثمرت وقدرت حق التقدير، وكان القادة «واقعيين» أكثر منهم «خياليين» لفعلت الأعاجيب، وكانت قوة يحسب لها الحساب الكبير في ميزان القوى وفي ميزان «المعسكرات»، ولا سبب في ذلك إلا ضيق تفكير هؤلاء القادة، وتقليد هذه الحضارة، والتصميم على تطبيقها في بلدهم بحذافيرها، وهذا بتأثير الثقافة الأجنبية التي تلقوها في الخارج، أو خضعوا لها وهضموها في داخل بلادهم.

تقليد الحضارة الغربية ونتائجه :

إن اتباع أساليب الحضارة الغربية في الحياة الاجتماعية والإيمان بمبادىء حياتها ومنهج اجتماعها يحمل نتائج بعيدة المدى، إن أوروبا اليوم مصابة بالجذام الخلقي، ولا يزال جسمها يتقطع ويتعفن حتى أصبح الجو كله موبوءاً، وسبب هذا الجذام هو الإباحية الجنسية والخلقية التي تسود أوروبا اليوم، وتتخطى حدود الحيوانية والبهيمية[١]، والسبب الحقيقي لهذه البهيمية والحيوانية هي

---

(١) وقد رأينا بعض ملامحها في فضيحة بروفومو Profumo المشهورة في لندن التي رفع الستار عنها لأسباب سياسية.

حرية المرأة المطلقة ، والتبرج المطلق ، والاختلاط الذي لا حد له ولا نهاية ، وإدمان الخمر ، فأي بلد إسلامي سار على هذا الدرب وطرح الحشمة وسمح بالاختلاط بجميع أنواعه ، وشجع التعليم المختلط كانت نتيجة ذلك التفسخ الخلقي والجنسي ، والثورة على سائر الحدود ، الخلقية ، والدينية ، وفي عبارة وجيزة ، الجذام الخلقي الذي أشرنا إليه آنفاً ، والذي أصيب به الغرب ، إننا نرى معالم هذا الجذام واضحة في البلاد الإسلامية التي تحمست في تقليد الحضارة الأوروبية ورفع الحجاب ، وشاع فيها الاختلاط ، وظلت الصحافة والسينما والتلفزيون والعلوم والآداب ، وحياة الطبقة الحاكمة تشجعها ، بل تقودها وتوجهها .

سنة الله في الأرض « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

أسباب «التجدّد» والتغريب
وَعلاجها

وبعد ما ذكرنا في الفصول السابقة تاريخاً مجملاً لحركة التجديد والتغريب في العالم الإسلامي التي قادهـا كمال أتاتورك (١٩٢٤ – ١٩٣٨ م) ، وعرف القراء أن قادة الدول المسلمة التي نالت استقلالها حديثاً ومؤسسي الحكومات المسلمة الوليدة ، إما موافقون عليها تماماً ، أو خاضعون لها في قليل أو كثير ، كما أن الطبقة المثقفة بالثقافة العالية في كل بلاد العالم الإسلامي تتجه نحو الأساليب التي اتخذها كمال في النهضة والإصلاح ، ونحو « التجدد » والتغريب .

يجب أن نفكر في أسباب هـذا التأثير العميق الذي تركه مصطفى كمال في قلوب هـذه الطبقة ، هل هي مصادفة من مصادفات التاريخ ، أو هي نتيجة شخصية « كمال » القوية ؟ ، أو أن هناك أسباباً أخرى أكثر قوة وأشد نفوذاً تجعل كل من ينهض للإصلاح والتشكيل الجديد للمجتمع يقتفي آثاره في ذلك ويقلده في النهضة بالبـلاد وتقويتها ، ويعتقد أن سر النهضة إنما هو التجدد والتغريب ، ليس غير .

إننا نرى لذلك أسباباً هي في نفوذها عميقة الجذور ، وهي تـكاد تكون شائعة منتشرة في الأقطار الإسلامية ، نستعرضها واحداً واحداً بالإجمـال ، ونبحث فيها باختصار

نظام التعليم الغربي :

لا يخفى على المطّلع الخبير أن لنظام التعليم روحاً وضميراً كالـكائن الحي ، له روح وضمير ، إن روح نظام التعليم وضميره إنما هو ظل لعقائد واضعيه ونفسيتهم ، وغايتهم من العلم ودراسة الكون ، ووجهة النظر إلى الحياة ، ومظهر لأخلاقهم ، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة ، وروحاً وضميراً بذاتها ، إن هـذه

الروح هي التي تسري في هيكله تماماً ، إنها تسري في جميع العلوم ، في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية ، حتى في علمي الاقتصاد والسياسة بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح ، وليس في وسع كل شخص أن يميز بين الصحيح والسقيم منها ، وإنما يتيسّر ذلك لرجل أوتي من قوة الاجتهاد وملكة النقد القوية ما يستطيع به أن يميز الجزء النافع من الجزء الضار ، فيكون عاملاً بمبدأ « خذ ما صفا ودع ما كدر » ، ويفرق بين الأصل والزائد حتى يتمكن من أخذ جوهرها وروحها .

وهذا العمل سهل في العلوم الطبيعية التطبيقية ، بينما هو صعب ودقيق في نفس الوقت في الأدب والفلسفة والعلوم العمرانية ، ولا سيما إذا كانت أمة تؤمن بعقائد معينة وتتبنى فلسفة مستقلة وأسلوباً خاصاً للحياة ، وتاريخاً مستقلاً — لا يعد من أنقاض الماضي وإنما هو منارة نور للأجيال القادمة — وتعتبر شخصية الرسول وعهده الأسوة الحسنة التي تفوق جميع القيم والمثل العليا للحياة الإنسانية . إذا كانت أمة هذه صفتها تتبنى نظام تعليم لأمة تختلف في الأساس والقيمة والمعيار يحدث هنالك صراع مستمر لا يفارق هذه الأمة في أي مرحلة من مراحل حياتها يجر إلى بناء واحد وهدم آخر ، إلى تصديق واحد وتكذيب آخر ، إلى إجلال واحد وازدراء آخر ، وفي مثل هذه الحال يجب أن يحدث هناك نزاع عقلي ، وتزعزع في العقيدة وانحراف عن الدين ، وأخيراً قبول القيم والأفكار الحديثة مكان القيم والأفكار السابقة ، وذلك أمر طبيعي يجب أن يحدث كأمور طبعية ، لا يحول دون حدوثه حسن النية أو القلق ، ورغبة الآباء والجدود والاحتياطات الفرعية والخارجية ، وإنما يمكن تأجيل موعده أو إبطاء سيره على أكثر تقدير ، دون تعويقه أو القضاء عليه ، كما أن الشجرة إذا نشأت وتربّت وفق نظامها الطبيعي تؤتي أكلها وتثمر في موعدها ، أما الإنسان فبإمكانه أن لا يغرس شجرة ، ولا يسهر عليها بالتعاهد والسقي ، أو يعضدها إذا اكتملت وشبت ، ولكن ليس بإمكانه أن يقوم في

وجه شجرة مثمرة خضراء أو يفرض عليها أن تثمر ثمر شجر آخر .

تلك هي قصة نظام التعليم الغربي ، فإنه يحمل روحاً مستقلة وضميراً منفرداً تتجلى فيه عقيدة مؤلفيه وعقلية واضعيه ، وهو نتيجة التقدم الطبعي لآلاف السنين ، وتعبير عن أفكار أهل الغرب ومجموع أقدارهم وقيمهم ، فإذا ما طبق هذا النظام التعليمي في بلاد مسلمة ، أو مجتمع إسلامي يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي ثم يتدرج ذلك إلى تزعزع العقيدة والردة الفكرية ، وأخيراً إلى الردة الدينية ، وذلك طبعي لكل من يستهدف لذلك (إلا من عصم ربك) ، وما أحسن ما كتبه أحد علماء الغرب الناقدين[١] الذي رزق قلباً سليماً وله خبرة واسعة لنتائج نظام التعليم الغربي في الشرق :

« لقد بسطنا في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأي القائل بأن الإسلام والمدنية الغربية — وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً — لا يمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوروبية وعلى مقتضياتها ، خالصة من شوائب النفوذ المعادي للإسلام ؟ .

ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك ، وإننا إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة التي يتاح فيها لعقل نيّر للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين « المتنورين »

---

(١) هو محمد اسد (Leopold Weiss) سابقاً .

الذين نشأوا على أُسس غربية ![1]» .

ثم يقول ، وهو يتحدث عن أجزاء برامج التعليم الغربية المختلفة فيتحدث عن تدريس الآداب الغربية وتأثيرها في عقلية النشء الإسلامي :

« إن تعليم الأدب الأوروبي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود إلى جعل الإسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ، ومثل هـذا – ولكن إلى حد أبعد – يصدق على التعليل الأوروبي للتاريخ العام ، إذ لا يزال الموقف القديم فيه : « رومانيون وبرابرة » يظهر بجلاء ؛ ثم ان لمثل هذا العرض في التاريخ هدفاً خفياً ، ذلك أنه يدلل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيء جاء أو يمكن أن يجيء إلى هذا العالم ، وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبي لسعي الأوروبيين إلى السيطرة والى القوة المادية [2]» .

ويتكلم عن تأثير تدريس مادة التاريخ على النمط الغربي فيقول :

« .. أما التأثير الوحيد الذي يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحداث من غير الشعوب الأوروبية ، فإنما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة ، وبماضيهم التاريخي الخاص وبالفرص السانحة لهم في المستقبل ، وهكذا يتربون تربية منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم ، اللهم إلاّ إذا كان مستقبلاً مستسلماً للمثل العليا الغربية » .

وأخيراً يقول بكل حماس وصراحة :

« .. وإذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم الغربي من غير وازع ما ، إن كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحـــدثه

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٧٣ .

(٢) أيضاً ص ٧٢ .

تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة ، إذا أردنا أن نحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصر ثقافي فيجب علينا أن نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربيــــة ، ذلك الجو الذي أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا ، وبتقليد عادات الغرب وزيّه في الحياة يصبح المسلمون تدريجاً مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية . ان تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً إلى تقبل الميل العقلي المصاقب لذلك (١) » .

وقد تكهن بهــــذه النتيجة بعض مفكري الغرب الذين كانوا مسئولين عن تطبيق هذا النظام التعليمي في بلدان الشرق ، وقد كتب الكاتب الانجليزي المعروف اللورد ميكالي (Lord Macaulay) في تقريره ، وقد كان رئيس اللجنة التعليمية (عام ١٨٣٥ م) التي قررت جعل اللغة الانجليزية أداة التعليم لأهل الهند بدلاً من اللغات الشرقية الأخرى ، إنه يقول :

« يجب أن ننشيء جمـــاعة تكون ترجماناً بيننا وبين ملايين من رعيتنا ، وستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم ، وانجليزية في الذوق والرأي واللغة والتفكير (٢) » .

ويقرر المستشرق الكبير « جب » (Gibb) في كتابه : « وجهة الإسلام » (Wither Islam) أن التجدد والتفرنج في الشرق إنما هما خاضعان لمقيـــاس نظام التعليم الغربي ، ومدى سيطرته وتغلغله في المجتمع الإسلامي الشرقي، يقول:

« .. والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبيّن إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي ، وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير الغربي ، والأساس الأول في كل ذلك هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي ، وعلى المبادىء الغربية ، وعلى التفكير الغربي .. هــــذا هو

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٧٣ .
(٢) تاريخ التعليم لمؤلفه ميجر باسو ص ٨٠ .

السبيل الوحيد ، ولا سبيل غيره ، وقد رأينا المراحل التي مرّ بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي ، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين ، وقليل من الزعماء الدينيين [١] » .

يلاحظ «جب» ان النشاط التعليمي والثقافي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين — من غير وعي منهم — أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ، ثم يعقب على ذلك بقوله .. « وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار [٢] » .

لقد كان نظام التعليم الغربي محاولة عميقة وخفية لإبادة العنصر الإسلامي والقضاء عليه ، وانتقل مفكرو الغرب من طريقتهم المقوتة القديمة التي كانوا يؤثرونها في إبادة الأجيال والفتك بها إلى هـذه الطريقة الجديدة التي قرروا صوغها في قالبهم ، فأسسوا لهذا الغرض مراكز كثيرة باسم الكليات والجامعات؛ وقد عبّر عن هذه الحقيقة التاريخية أحسن تعبير الشاعر الإسلامي « أكبر » (الإله آبادي) في أسلوبه الطريف الخاص ، إنه يقول في بيته السائر :

« يا لبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات ، وقد كان ذلك أسهل طريق لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ » .

كما أوضح الفرق بين ساسة الشرق والغرب في بيت آخر يقول :
« إن أهل الشرق يقضون على العدو بشدخ رأسه ، ولكن الغربي يغيّر طبيعته وقلبه » ، وجاء إقبال بعده بعدة سنوات وقد اكتوى بنار نظام التعليم

---

(١) الجزء الثاني من الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ٢٠٢ .
(٢) أيضاً ص ٢٠٤ .

الغربي شخصياً وخاض في دراسته ، فأبدى حقيقته في أسلوب أكثر عمقاً وأبعد عن التنكيت والدعابة ، يقول :

« إياك وأن تكون آمناً من العلم الذي تدرسه ، فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها [١] ».

إنه يعبر عن ذلك الانقلاب الهائل والتحويل الجذري الذي يحدثه نظام المعارف الحديث بقوله :

« إن التعليم هو « الحامض » الذي يذيب شخصية الكائن الحي ، ثم يكوّنها كما يشاء ، إن هذا « الحامض » هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية ، هو الذي يستطيع أن يحوّل جبلاً شامخاً إلى كومة تراب[٢] ».

إنه يرى نظام التعليم الغربي مؤامرة على الدين والخلق ، كما يقول :

« إن نظام التعليم الغربي ، إنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة [٣] ».

إن إقبال من أولئك الرجال المعدودين الذين خاضوا بحر نظام التعليم الغربي فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل وقد جاؤوا معهم بدرر كثيرة ، وازدادوا إيماناً بخلود الإسلام ومضمراته الواسعة ، وازدادوا ثقة بنفسهم ، ولو كان من الصعب أن نحكم على إقبال أنه لم يخضع للتعليم الغربي والفلسفة الغربية في قليل أو كثير ، وأن فهمه للدين يطابق الكتاب والسنّة وفهم السلف تماماً [٤] ، ولكن الذي لامرية فيه أنه لم ينصهر في بوتقة الغرب ، كما انصهر آلاف من

---

(١) أرمغان حجاز .
(٢) ضرب كليم .
(٣) أيضاً ص ٨٥ .
(٤) وفي محاضراته التي ألقاها في مدراس بعنوان : «تجديد الفكر الإسلامي» نماذج من التفكير أو التعبير الذي تأثر بثقافته الغربية .

معاصريه ، وحق له أن ينشد في هذه المناسبة شعره الذي معناه :

« كسرت طلسم العصر الحاضر وأبطلت مكره ، التقطت الحبّة وأفلتُّ من شبكة الصياد ، يشهد الله أني كنت في ذلك مقلداً لإبراهيم فقد خضت في هذه النار واثقاً بنفسي وخرجت منها سليماً محتفظاً بشخصيتي [١] » .

أما شهادة الزعيم الإسلامي الهندي مولانا محمد علي عن التعليم الحديث وأثره فتحمل قيمةً لا تنكر ، وقد تربى في بيئة مؤمنة دينية ثم بدأ دراسته في أكبر مراكز التعليم الغربي « الجامعة الإسلامية في عليكره » في الهند ، إنه يقول في ترجمة حياته :

« لقد كانت الحكومة البريطانية تحمل لواء الحياد الديني الكامل ، فقد أقصت دراسة مادة الدين حتى دراسة الأخلاق تماماً من الكليات ، وطبقت هذه السياسة التعليمية عملياً في ذلك ، ولم يبق من المعلومات الدينية والخلقية إلاّ ما يتلقفه الطلاب بأنفسهم من الكتب الانجليزية أو الكتب الدراسية المؤلفة بلغات الشرق .

كما أن نظرية التعليم التي وضعتها الحكومة للشباب الهندي كانت « حديثة » وكانت تهـدف بجميع ما فيها من عوامل هدّامة ، إلى أن يتربى في الطالب شعور خاطىء بعلمه وكبريائه ، يقضي على قداسة الرواية والحجة والإسناد بأوهامه التي يرجع تاريخها إلى ما قبل قرون ، ومما لا شك فيه أن هذا التعليم سبب إثارة دافع التحقيق والبحث عن الحقيقة مع مسايرته للزمان ، غير أنه كان هداماً في حملته على الديانة والأخلاق ، أما ما أعطاه بدلاً مما قضى عليه من « الأوهام الدينية » — كما يقول الغربيّون — فلا يقوم أيضاً إلاّ على أساس من الأوهام

(١) أرمغان حجاز ص ٧٠ .

والعقائد الخرافية ، ولكن هذه الثقافة التي يتزوّد بها الطالب كانت حديثة لا شك [١] ».

إن مؤلف « الإسلام في التاريخ الحديث » (W. C. Smith) الذي يحمل معلومات جديدة حول نزعات العالم الإسلامي وطبقاته المختلفة يعترف بالتأثير العقلي العميق الذي يتركه التعليم الغربي الحديث ومراكزه في العالم الإسلامي ، إنه يقول ، وهو يتحدث عن حركة التنور والتسامح في العالم الإسلامي (Liberalism) :

« إن من أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود اليوم في العالم الإسلامي ومن أكبر عواملها نفوذ الغرب ، فقد بلغت هذه الحركة أوجها في أوروبا من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى ، وهكذا شأن نهضة أوروبا وتقدمها ، وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب واطلعوا على روح أوروبا وقيمها وأعجبوا بها إلى حد ، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوروبا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام ، وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامي ، وقد حازت قصب السبق في هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث ، وكان مما صدّره الغرب إلى العالم الإسلامي تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع من الأهمية والدقة بمكان ، والاتجاهات العقلية الدقيقة الفجة ، والميول الحديثة التي كان في نشرهـا أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث ، ويفوقها في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد ، ومنها ما يسلط إجباراً ، وما يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر ، إن بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً ، وبعضهم قد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم ، وأنتج ذلك أن كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة ،

---

(١) My life , A. Fragment , P. 23-24 .

وخضعوا لها بالتدريج ، وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالغتين[١]».

لقد جرف تيار نظام التعليم الغربي الشباب الإسلامي في البـــلاد العربية والعجمية (الذين كانوا زبدة أمتهم وزهرة بلادهم) وغيّر عقليتهم إلى حد أن عقولهم أصبحت لا تستطيع أن تسيغ الإسلام الصحيح ، وأصبحوا لا يندمجون في المجتمع الإسلامي أيضاً ويصبحون جزءاً منـه ، ويشير إلى ذلك « إقبال » بقوله :

« إن سحر الإفرنج ، أو فنـّه أذاب الصخور وأسالها ماءاً » .

إن الإلحاح على كون الدين قضية شخصية لا علاقة لهـــا بالدولة والحكم ، والمعاملة مع الإسلام كمعاملة الكنائس المسيحية ، ونظرية فصل الدين عن الدولة ، والاعتقاد بأن الدين عائق في سبيل النهضة والاكتشافات والتحقيق ، وإقامة علماء الإسلام في صف ممثلي الكنيسة المسيحية الذين كانوا يملكون السلطة المطلقة في العصور المتوسطة ، وإعطاء المرأة حق الإسهام في جميع أمور الحياة في كفاحها والخروج مع الرجل متكافئة متساوية ، وجعل الحجاب – في أي شكل كان – تذكاراً لنظام الحرم القديم في الشرق ، وعلامة استبداد الرجل بالمرأة ، والقضاء عليه خطوة أولى نحو الإصلاح والتقدم ، والاعتقاد بأن قانون الوراثة والنكاح والطلاق اجتهاد فقهاء المسلمين في العصور المتوسطة ونتيجة طبيعيـة للمجتمع البدائي المحدود الذي وجد في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، وإدخال التغيير والإصلاحات في ذلك المجتمع ، وصوغه في قالب المجتمع الغربي بتطبيق المبادىء الغربية ومعاييرها عليه ، فريضة الساعة وواجب الوقت ، وصرف النظر عن الربا والخمر والميسر ، وعن العلاقات الجنسية المنطلقة ، والإيمان بالقومية والاندفاع نحو إحياء الحضارات القديمة واللغات العتيقة ، والايمان بأهمية الخط اللاتيني وفوائده ، كل هذه النزعات والاتجـــاهات وما أشبهها التي تحتل محل

(١) المصدر المذكور ص ٦٤ .

الحقائق الثابتة لدى الجيل المثقف ، وتعد من أمارات التنور والنهضة والتقدم ، كل ذلك نتيجة نظام التعليم الغربي وبيئته الفكرية وجوّه العلمي والعقلي وتراثه التاريخي ليس غير .

إن القادة وولاة الحكم في البلاد المسلمة ، كلهم إنتـــاج نظام التعليم الغربي ووليد حضارته ، أمـــا الذين لم يتح لهم أن يتثقفوا في بلد أوروبي وينشأوا في بيئته فإنهم تعلموا في مراكز هذا التعليم في بلادهم ، وتثقفوا بها تحت إشراف ممثليه الكبار ورقابتهم ، إن بعضهم تخرجوا من الكليات الحربية التي يعنى فيها بالتعليم الغربي والتربية الغربية عناية فائقة .

وذلك هو السرّ في أن العـالم الاسلامي اليوم يتأرجح بين عقليتين وفلسفتين ووجهتين مختلفتين تتصارعان دائماً ، وهـذا الصراع ينتهي في أغلب الأحوال بانتصار فئة هي أكثر قوة وأكثر تسلحاً ، إنه صراع طبيعي ، وهو إن استحق الأسف فلا يستحق الاستغراب أبداً ، بل كان موضع الدهشة والاستغراب إذا لم ينشأ الصراع ولم توجد هذه النزعة إلى التجدد و « التغريب » .

حل المشكلة :

وحل هذه المشكلة — مهما تعقد وطال واحتاج إلى الصبر والمثابرة — ليس إلاّ أن يصاغ هذا النظام التعليمي صوغاً جديداً يلائم عقـائد الأمة المسلمة ومقومات حياتها وأهدافها وحاجاتها ، ويخرج من جميع مواده روح المادية والتمرد على الله ، والثورة على القيم الخلقية والروحية وتعبد الجسم والمادة، وينفخ فيه روح التقوى والانابة إلى الله ، وتقدير الآخرة ، والعطف على الانسانية كلها، فمن اللغة والأدب إلى الفلسفة وعلم النفس ، ومن العلوم العمرانيـة إلى علوم الاقتصاد والسياسة لا تسيطر إلاّ روح واحدة ، ويقضي الغرب العقلي ويكفر

بإمامته وسيادته ، وتجعل علومه ونظرياته موضوع الفحص والدراسة الجريئة[١] ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الانسانية والمدنية ،وتدرس علومه بشجاعة وحرية ، وتعتبر كمواد خام (Raw material) نصنع منه ما يوافق حاجاتنا ورغباتنا ، وعقيدتنا وثقافتنا .

إن هذا العمل ، ولو كانت في طريقه عقبات وعراقيل ، ولو تأخرت نتائجه ، ولكنه حلّ وحيد للموجة الطاغية التي قد اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدد والتغرب التي تتحدى الكيان الفكري للإسلام وجهازه الاجتماعي ، وظلت تهدد حياته وبقاءه ، ونتيجة لذلك أصبحت عاطفة الشعوب المسلمة وتضحياتها وجهودها وإخلاصها ووفاؤها (التي هي السبب المباشر الأساسي في إنشاء الحكومات الإسلامية وتحرير البلاد المستعمرة) وقوداً حقيراً في نار التجدد والتغرب ، وأصبحت الجماهير المسلمة السليمة المخلصة المتحمسة الصامتة قطعاناً من الغنم يحكم في رقابها هؤلاء القادة والولاة وتساق إلى أي هدف في صمت وهدوء .

لقد كان السرّ في نجاح الحكم الأجنبي في الشرق الإسلامي واستمراره طبقة الضباط والموظفين الكبار والحكام الذين ربوا تربية غربية خالصة ونشأوا على الطاعة والنظام ، إنهم وضعوا نظام هذه البلاد ، ومارسوه مائة سنة حسب رغبة ولاتهم الأجانب وفكرتهم وثقافتهم ، فالطريق إلى تغيير اتجاه البلاد الاسلامية والعودة بها إلى الحياة الاسلامية أن يهتم بتعليم هذه الطبقة الاسلامية وتربيتها على أسس الاسلام ، فإنها الطبقة التي تتحكم في البلاد ، وأن نصلح

---

(١) إن كتاب « القرآن والعلم الحديث » للدكتور رفيع الدين نموذج لهذا الأسلوب ، كما توجد هذه الدراسة الجريئة والنقد الحر في كتاب : « الإسلام على مفترق الطرق » للأستاذ محمد أسد ، وكتاب « تنقيحات » بالأردية و « الحجاب » للأستاذ أبي الأعلى المودودي ، و« العدالة الاجتماعية في الإسلام » لسيد قطب .

نظام التعليم الذي يخرج هؤلاء الأشخاص ! .

لقد أصبح من المقرر في كل بلد واعٍ حريص على سلامته وشخصيته أن المعارف ليست إلا جهازاً يغرز المعاني والأسس التي يؤمن بها هذا الشعب ودرجت عليها أجياله ويعيش بها وفيها في التاريخ الماضي وفي العالم المعاصر ، فمن أول واجبات نظام التربية في جميع البلاد المتمدنة الواعية أن يغرز هذه العقائد والحقائق في قلوب الناشئة ويغذيها حتى يؤمن بها كحقائق علمية ويتحمس في سبيل الدعوة إليها والمثابرة عليها ، وقد أصبح من المقرر عند أساطين التعليم الحديث في الغرب أن كل شعب من شعوب العالم إنما يصوغ نظامه التعليمي وفق نظرية الحياة التي يؤمن بها ، فيقول Sir Percy Neinn الذي يحتل الصدارة في خبراء التعليم في بريطانيا في مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية :

« لقد سلك النـــاس مسالك مختلفة في التعريف بالتعليم ، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً أن التعليم هو الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها .

« إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ،القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمديدها إلى الأمام » .

إن جون ديوي John Dewey الذي كان تأثيره في نظام التربية الأمريكي أكبر من تأثير كل رجل في هذا العصر ، يقول في كتابه « الديمقراطية والمعارف» (Democracy and Education) إن الأمة إنما تعيش بالتجديد وإن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار ، إن هذه الأمة بطرق متنوعة تكوّن من الأفراد الأميين ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها وتصوغهم في قوالب عقائدها ، ومناهج حياتها ».

ويقول البروفسور كلارك (Prof Clark) : « مهما قيل في تفسير المعارف فمما لا محيص عنه أنه سعي للاحتفاظ بنظرية سبّق الإيمان بها ، وعليها تقوم حياة الأمة وجهادها في سبيل تخليدها ، ونقلها إلى الأجيال القادمة » .

لذلك ليس من المعقول ولا من الجائز أن تستورد أمة لها شخصيتها ورسالتها، ولها عقائدها ومناهج حياتها ، ولها طبيعتها ونفسيتها ، ولها تاريخها وماضيها ، ولها محيطها الخاص وظروفها الخاصة ، نظاماً تعليمياً من الخارج ، ولا أن تكل وظيفة التعليم والتربية وتنشئة الأجيال وصياغة العقول إلى أناس – مهما بلغوا من البراعة في تدريس مواد تعليمية ، وإتقان اللغات والفنون – لا يؤمنون بهذه الأسس والعقائد ، ولا يتحمسون لشرحها وتعضيدها ، يقول الاستاذ الأمريكي الدكتور (Dr. J.B. Conant) في كتابه التعليم والحرية (Education and Liberty) :

« إن عملية التعليم ليست عملية تعاطٍ وبيع وشراء ، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل ، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانجليزية أو الأوروبية إلى بلادنا » .

وعلى هذا الإساس يتفق المعسكران الشرقي والغربي ، وقد سبق من أقوال خبراء التربية وقادة الفكر في أوروبا وأمريكا ما دل على وجهة نظرهم إلى المعارف، وانها ليست إلا أداة مؤثرة وفية لترسيخ العقيدة ونظر الأمة إلى الحياة والكون وتعميق جذورها في قلوب الناشئة ونفوسها ، ونقل التراث العقلي والعقائدي والاجتماعي إلى الأجيال القادمة ، وإقناعها بضرورة الاحتفاظ بها ، والمثابرة عليها ، والجهاد في سبيلها ، فأمّا المعسكر الشرقي الذي اشتهر بالثورة على جميع الأسس والقيم ، ونقض القديم ، وبلبلة الأفكار ، فإنه ليس أقل تمسكاً بهذه النظرية نظرية التطبيق بين التعليم والعقيدة التي يختارها والفلسفة التي آمن بها . وإخضاع نظام التربية كله لهذا الغرض ، وصوغه في قالبه صياغة دقيقة متقنة ،

من المعسكر الرأسمالي المنافس؛ فيقول عالم طبيعي من كبار علماء البلاد السوفيتية (Mc Govern) :

« إن العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العـــالمي ، يشغل في البلاد السوفيتية ، إنه قسم منفصل قائم بذاته ، يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف، فإن سمة العلم السوفيتي الأساسية ، أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال في حاجة إلى أساس ، وإن أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التي قدمها ماركس وانجلز ولينين وستالين ، إنا نريد أن نخوض (وفي أيدينا هذه الفلسفة) في معترك العلم الطبيعي العالمي ونصارع جميـــع التصورات الأجنبية ، التي تناهض فلسفتنا المادية الماركسية بكل عزم وقوة[١] .

ومن المآسي التي تحير العقل وتجرح القلب أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها في فوضى تعليمية ، وغموض والتباس ، بل في تناقض ومصارعة بين العقـــائد والحقائق ، التي تؤمن بها ، والغايات والأهداف التي خلقت لأجلها ، والرسالة والدعوة التي تحتضنها ، وبين نظام التربية الذي تطبقه والنظريات التي تستوردها، والأساتذة الذين لا يؤمنون بها ، وعلى الأقل لا ينشطون في تدعيمها وتنميتها ، ولا تفكر في التطبيق بين العقيدة التي تتمسك بها ، وبين التعليم الذي تنفق عليه أكبر جزء من امكانياتها ، ووسائلها ، مع أنها كانت بحملها الرسالة الأخيرة والأمل الأخير للإنسانية أجدر بهذا التطبيق وأحرص على إزالة جميع العناصر التي تجني على شخصيتها ، ومقومات حياتها ، ومستقبل أجيالها ، وأغـير على على عقيدتها ودينها ، من الشعوب الغربية بما فيها من الشيوعية والرأسمالية ، والتي تتناولها دائماً بالتغيير والتحوير ، وتعيش هذه الأقطار متطفلة على مائدة الأمم الأجنبية والنظم الدخيلة ، تقتبس منها وقد تطبقها بحذافيرها ، ولم تفكر إلى الآن في إخضاع جهاز التربية لرسالتها السماوية ، وعقائدها الثابتة ، وعلومها المعصومة عن الخطأ والضلال ، وإزالة جميع العقبات في سبيل هـــذا الوئام ،

---

(١) (From Hitler to Britber)

والتعاون بين العلم والدين ، وتتصارعه القوى المضادة ، والموجهون المتنافرون ، ويسيطر عليها الفصام النكد بين العلم والدين ، والصراع المستميت بين الحقائق الغيبية والمحسوبات المادية ، وبين الإيمان والشك ، وبين الإسلام والنفاق ، وبين الخلق والثبات ، والاستغلال والانتهازية ، وقد شعر بضرورة ذلك بعض علماء الغرب المنصفين ، فقال أحد كبار أساتذة الإسلاميات في أمريكا (Charles L. Gedder) في كلمته التي ألقاها في ١٣ مايو عام ١٩٦٦ م في كراتشي :

« إن الإسلام يملك جميع الخصائص التي تستطيع أن تنشر السلام والانسجام في العالم ، إن الغرب يؤمل من المسلمين الذين يحملون الدين الذي أنزله الله ، وكان لهم ماض مجيد مشرق أن يقدموا مبادىء الحياة وفلسفتها إلى الغرب — وبذلك يستطيعون أن يحملوا راية السلام التي عينت لهم في عالم الغد » .

وذلك لايكون إلا بإنشاء الجيل المؤمن المثقف الذي يجمع بين العقيدة والعلم ، ويؤمن بخلود رسالته وصلاحيتها لكل جيل وعصر ، وإنها هي المنقذة للعالم من النهاية الأليمة التي ترتقبه ، ومن المستنقع الذي يتردى فيه ، وذلك لا يمكن كما لا يخفى إلا بوجود نظام للتربية يقوم على تطبيق بين العقيدة والثقافة ، وبين قوة العاطفة ، وإشراق الروح ، والتهاب جذوة الإيمان ، وبين العلم الواسع ، والفكر النيّر ، ومعرفة أحدث ما وصلت إليه الأجيال البشرية من تجربة واكتشاف .

المستشرقون ونفوذهم في ميدان التفكير :

المستشرقون وعلماء الغرب الذين كرسوا حياتهم على دراسة العلوم الإسلامية ، ويملكون إعجاب الأوساط العلمية في الشرق والغرب وإجلالها وتقديرها ، ويقام لآرائهم ونظرياتهم في البحوث الإسلامية في الشرق وزن كبير أثاروا في قلوب قادة العالم الإسلامي اليوم وزعمائه — ممن تثقفوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى أو درسوا الإسلام بلغات الغرب — شبهات حول الإسلام والمصادر

الإسلامية ، وأحدثوا في نفوسهم يأساً عن مستقبل الإسلام ، ومقتاً على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما أن لهم سهواً كبيراً في الحث على نعرة « إصلاح الديانة » و « إصلاح القانون الإسلامي » .

إن تأريخ هـــذا الاستشراق قديم يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادي بالوضوح ، والعوامل التي كوّنت هذا التاريخ إنما هي دينية وسياسية واقتصادية ، أما العامل الديني فواضح لا غموض فيه ، وهو يهدف إلى نشر الديانة المسيحية وتبليغ دعوتها ، وتصوير الإسلام تصويراً يثبت فضل المسيحية ورجحانها على الإسلام ، ويبعث في الطبقة المثقفة إعجاباً بالمسيحية وحرصاً عليهـــا ، ولذلك ترى أن الاستشراق و « التبشير » يسيران معاً في أغلب الأحوال ، وأن عدد المستشرقين الأكبر أساقفة ، وعدد كبير منهم يهود ديانة وجنساً .

والعامل السياسي هو أن المستشرقين بصفة عامة كانوا رواد الدول الغربية في الشرق ، ومن واجبهم أن يمدوها بمددهم العلمي ، وكانوا مصـــادر وثيقة للغرب يطلع بها على تفاصيل ومعلومات عن تقاليد الشعوب الشرقية وبلدان الشرق ، وعن طبيعتها ومعيشتها ، ولغاتها وآدابها ، حتى عواطفها ونفسياتها ، وذلك ليتسنى للغرب أن يبسط نفوذه وسلطته في الشرق .

وزد إلى ذلك ما يقوم به هؤلاء المستشرقون من الرد على الأفـكار والعقائد وقمع الحركات والأوضاع التي تسبب للدول الغربية صداعاً وعرقلة ، وتحدث لها مشكلات وعقبات ، ويحاولون خلق جو لا تكاد تخطر فيه معارضة ، بل تحدث هالة من التقديس والإجلال حول حضارتهم ، حتى يعترفوا بمآثرهم وجلائل أعمالهم ينبعث فيهم دافع الاقتداء والتقليد الذي يحملهم على الاقتفاء بآثارهم في سبيل إصلاح البلاد وترقيتها ، وتظل سلطة حضـــارتهم وعقليتهم مضمونة على النفوس ، رغم ذهاب دولهم ونهاية حكمهم .

ولذلك فقد شعرت الدول الغربية بقيمة المستشرقين ومكانتهم شعوراً كاملاً وساعدهم زعماؤها عن كل طريق ممكن ، ولتحقيق هذا الغرض يصدر المستشرقون من مختلف أقطار الغرب عدة مجلات ورسائل حول العالم الإسلامي ، ينشرون فيها مقالات تحليلية ومواد تحقيقية تبحث عن مشكلات العالم الإسلامي وميوله ونزعاته ، ولا تزال تصدر مجلة « الشرق الأوسط » (Journal of Near East) ومجلة « العالم الإسلامي » (The Muslim World) من أمريكا ، ومجلة (Lemond Musalmans) من فرنسا .

كما أن هناك عاملاً اقتصادياً للإستشراق يتخذه كثير من المثقفين كمهنة ناجحة ، وكثير من أصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها ، يشجعون نشر المؤلفات والكتب التي تدور حول الإسلاميات والشرقيات ويشرفون على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة في أوروبا وآسيا ، وتنال هذه المؤلفات من القبول والإعجاب ما يجعلها عظيمة الانتشار ، كثيرة الذيوع ، وهي لا شك وسيلة لتجارة رابحة ، وكسب أموال خطيرة .

غير أن عدداً من المثقفين يتبنون موضوع الشرقيات والاسلاميات دون تأثير هذه العوامل ، وبمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم ، ويبذلون فيه جهوداً ضخمة ، ويكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها ، وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعارف التي لم ترَ الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة ، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين وعاهة الأرضة ، وكم من مصادر علمية ووثائق تاريخية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وهمتهم ، وقرّت بها عيون العلماء في الشرق .

ورغم هذا الاعتراف بفضلهم وعلمهم لا يمنع الكاتب شيء من أن يصرح أن طائفة المستشرقين هي التي لم يرافقها التوفيق الإلهي في غالب الأحيان على ما درسته من علوم القرآن والسنة والسيرة النبوية والفقه الاسلامي والأخلاق

والتصوف ، وغاصت في أحشائها ، ولكنها خرجت صفرة اليد لا حظ لها من الايمان واليقين ، بل وزادت الفجوة بينها وبين هذه العلوم لما أضمرته في قلبها من عداوة للإسلام ، وبُعدٍ عن الحق ، وأكبر سببلذلك هو أن ثمرة الأعمال تابعة لغايتها وهدفها ، والمعلوم أن غاية هؤلاء المستشرقين بوجه عام إنما هي البحث عن مواضع الضعف وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية ، فلا يرون في مدينة ذات بهجة إلا المزابل والمراحيض ، كما هو دأب مفتشي النظافة في كل مكان.

وليس حرمان هؤلاء المستشرقين محدوداً إلى ذواتهم فحسب ، ولو كان ذلك وحده لم ينل منا هذا الاهتمام ، ولكن الناحية المهمة ذات التأثير العميق لهـذه القضية هي أن المستشرقين يركزون كل جهودهم ومساعيهم على تعريف مواضع الضعف وتمثيلها في صورة مروعة مضخمة ، إنهم ينظرون إليها عن طريق الآلة المكبرة ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلاً ، والنقطة بحراً ، وقد ظهرت حذاقتهم وذكاؤهم في تشويه صورة الاسلام .

ومن دأبهم أن يعينوا لهم غاية ويقرروا في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقوموا لها بجمع معلومات — من كل رطب ويابس — ليس لهـا أي علاقة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة والتاريخ أو الأدب والشعر أو الرواية والقصص ، أو المجون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لهـا ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة ؛ ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلاّ في نفوسهم وأذهانهم .

إنهم في أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً ويجودون لتمكينه في النفوس بذكر عشرة محاسن ، وذلك كي يخشع القـارىء أمام سعة قلبهم وسماحتهم ، ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن ، إنهم يصورون بيئة دعوة أو شخصية ، وتاريخها ، وعواملها الطبيعية بلباقة وبلاغة تصوران أن هذه الدعوة والشخصية لم تكن إلا نتاج هذه البيئة أو العوامل وردّ فعلها

الطبيعي ، فينكر القارىء أي اتصال بمصدر غير مادي ولا يعترف لها بقدس وعظمة ، وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسّون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من « السم » ويحترسون في ذلك فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم حتى لا يستوحش القارىء ولا يثير ذلك فيه الحذر ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف ، إن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها أو ينتهي من قراءتها دون الخضوع لها .

لقد قام المستشرقون بعملية التحقيق في كل موضوع من مواضع الكتاب والسنة والسيرة النبوية ، والفقه والكلام ، كما تحدثوا عن الصحابة الكرام والتابعين والأئمة المجتهدين ، والمحدثين والفقهاء ، والمشائخ والصوفية ، ورواة الحديث ، وعن فن الجرح والتعديل ، وأسماء الرجال ، وحُجيّة السنة ، وتدوينها ، ومصادر الفقه الاسلامي ، وتطوره في أسلوب لا يخلو عن التشكيك وإثارة الشبهات ، ويكفي لزعزعة العقيدة والترغيب عن الاسلام لرجل ذكي ليس له نظر عميق في هذا الموضوع ، ولسنا الآن بصدد استعراض علمي وإيضاح تحريفاتهم وأخطائهم الفنية ودجلهم وتلبيسهم ، فإنه لا شك موضوع علمي مهم ، وخدمة دينية عظيمة ، تحتاج إلى مجمع علمي منظم .

ويكفي أن نقدم الآن ملخصاً لدعوتهم وتربيتهم — بغاية إيجاز — التي يعرضونها على قرائهم المثقفين والشباب الناهض مراراً وتكراراً بعناوين مختلفة ، وتسيغها عقول هؤلاء الشباب كحقيقة بديهية معقولة ، ولما أن هذه الدعوة والتربية لها صلة قريبة بحركات الاصلاح والتجديد في الأقطار الاسلامية ، ولا يمكن فهمها والاطلاع على حقيقتها بدون ذلك نقدم في هذه المناسبة ذلك الملخص مقتطفاً من كتاب العالم المصري الدكتور محمد البهي الذي جمعه في كتابه « الفكر الاسلامي الحديث » ، يقول :

١ – إن المجتمع الاسلامي ، في صلته بالاسلام لم يكن على نحو قوي إلا في فترة قصيرة ، هي الفترة الأولى على عهد بدائية المجتمع الاسلامي ، وبدائية هذا المجتمع هي التي أوجدت نوعاً من التلاؤم بين الحياة فيه وتعاليم الاسلام ، ثم بعد مضي هـــذه الفترة القصيرة البدائية اتسعت الفجوة بين الطرفين بين المجتمع والاسلام ، كمصدر توجيه في الحياة ، وكلما تطورت الحياة للمجتمع الاسلامي بفعل العوامل الخارجية ، الثقافية والسياسية والاقتصادية ، كلما تخلف الاسلام عن أن يجاري تطور الحياة لهذا المجتمع ، وما زالت الفجوة تتسع حتى أعلنت تركيا الحديثة – مقر آخر خلافة إسلامية – إبعاد الاسلام عن مجال الحيـــاة العامة ، وتركه في ضمير الفرد مستوراً ، لا يعبر عنه الفرد إلا لنفسه فقط ، وفي غير إعلان أو حماس .

٢ – إن التخلف عن تنفيذ تعاليم الاسلام ، تمليه الضرورة الاجتماعية تحت ضغط ظروف الحياة المتجددة التي لم يستطع الاسلام أن يكيفها في ضوء تعاليمه ، ولم يستطع أن يلائم بين تعاليمه وبينها ، والتشدد في تطبيق تعاليم الاسلام معناه إذن : العزلة في الحياة ، والتخلف في استخـــدام وسائل الحضارة ، والترحيب بالفقر والمرض والجهل ، للسكان المسلمين على نحو ما هو الحال ببلاد المملكة العربية السعودية ، إذ هي البلد الوحيد بين بلاد الاسلام التي جعلت الحكومة الرسمية تعبيراً عملياً عن الاسلام ، وإذن هي النموذج في تطبيق الاسلام .

٣ – إن التطور ، وهو قانون الحياة العام الذي لا مفر من الخضوع له ، يجب أن يستخدمه المسلمون في إسلامهم ، ليسايروا العالم الغربي الحديث ، ولينجوا من أسباب الضعف والفساد ، ويجب لهذا أن يتطوروا بالاسلام نفسه كدين .

الجماعة الاسلامية – كي تتطور – يجب أن تسير وفق المثل الغربية وتتفاعل معها في بيئتها الشرقية ، إذ أن اتجاهات الغربيين في الفكر ، وفي الحياة ، قامت على مجموعة من التجارب الانسانية ، واستخدموا في تكوينها الطريقة « العلمية »

وهي الطريقة التي لا تتأثر بخرافة أو عقيدة خاصة ، مستهدفة خير الانسانية وحدها .

وقد شعر المستشرقون بعد تجربة طويلة امتدت نحو قرنين أن الطريقة التي مارسوها في تطوير عقلية المسلمين وتسييرها وفق المثل الغربية والاتجاهات المادية لم تنجح حق النجاح ، وعثروا من الخطأ الأساسي الذي سبب لهم بعض الاخفاق وجعل جهودهم لم تثمر كل الاثمار ، بل قد واجهت بعض الأحيان رد فعل عنيف من الأوساط الاسلامية كان خطراً كبيراً من وجهة نظر الدعوة التبشيرية ، فما زالوا يستعرضون جهودهم ونتائجها وتأثيرها في ضوء التجربة والواقع حتى توصلوا إلى أن يحدثوا في طريقتهم وأساليب دعوتهم تغييراً أساسياً ، وذلك بأن يقدموا للإسلام تعبيرات جديدة ويدعوا إلى حركة إصلاح الديانة بدلاً من أن يغيروا عقلية المسلمين ويقوموا بتطويرها ، وأن تنال جميع حركات التجديد وإصلاح الديانة حيثما وجدت تشجيعاً وتأييداً منهم .

ويدلُّ على هذا التغيير في العقلية ، والطريقة الجديدة التي ابتكروها العبارة التالية التي نقتطفها من كتاب (Towards Understanding Islam) للكاتب (Harry Gaylord Dorman) ، يقول :

« يتوقع من المبشرين في الأقطار الاسلامية في ظرف عدة أعوام أن تثمر جهودهم في تجديد الاسلام وتطويره أكثر من تطوير عقلية المسلمين وتغييرهم ، ومما لا شك فيه أن هذا مجال واسع مفتوح للعمل ، لا يغفل عنه في أي حال » .

ولو تأملنا قليلا ظهر أن حملة لواء الاصلاح والتقدم (قادة التجديد والتغريب) الذين نشأوا في العالم الاسلامي في ظرف نصف قرن مضى ، تتجلى في أفكارهم وآرائهم وأساليب حياتهم روح هؤلاء المستشرقين ودعوتهم وتربيتهم ، حتى اننا نستطيع القول بأن أفكار المستشرقين إنما هي أساس تفكير

هؤلاء القادة ومبدأ عملهم .

إن هؤلاء المستشرقين إنما أضعفوا مثل الاسلام وقيمه العليـــا في جانب ، وأثبتوا تفوق المثل الغربية وعظمتها في جانب آخر ، إنهم فسروا تعاليم الاسلام تفسيراً يضعف قيمة القيم الاسلامية ، ويُضعف علاقة المسلم المثقف بالدين ويقع فريسة الارتياب والشك بالاسلام ، أو يضطر إلى الاعتراف بأن الاسلام لا يتفق وطبيعة الحياة الحاضرة ، وإنما هو عاجز عن مسايرة حاجات العصر ومقتضياته ، وبينما يقول هؤلاء المستشرقون : إن من التشبث بالتقاليد والعض عليها بالنواجذ والرجعية أن يعمل الانسان بالاسلام — الذي هو دين الله المختار الخالد — في هذا العصر الراقي المتقدم المتطور بسرعة وفي استمرار ، إذا هم يدعون الناس إلى إحياء الحضارات العتيقة الغارقة في التاريخ القديم ، وإحياء اللغات البالية التي فقدت كل صلاحيتها للبقاء ، ودفنت تحت أنقاض الماضي السحيق منـذ آلاف السنين ، ولم يكن الغرض بمثل هـــذه البرامج إلا أن يضطرب حبل المجتمع الاسلامي وتتمزق وحدة الاسلام ، وتواجه الحضارة الاسلامية واللغة العربية ضرراً ، وتنال الجاهلية القديمة حياة من جديد ، وقد نجحت كتاباتهم وجهودهم في إنشاء طائفة من تلاميذهم الذين قاموا بحركة إحياء الحضارة الفرعونية ولغتها في مصر ، والحضارة الآشورية ولغتها في العراق ، والبربرية في إفريقيا الشمالية والفينيقية في سواحل فلسطين ولبنان ، ووجد لها دعاة وأتباع .

يقول « جب » في كتابه : (وجهة الاسلام) :

« .. وقد كان من أهم مظاهر فرنجة العالم الاسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن ، فمثل هذا الاهتمام موجود في تركيـــا وفي مصر وفي إندونيسيا وفي العراق وفي إيران ، وقد تكون أهميته محصورة الآن في تقوية شعور العداء لأوروبا ، ولكن من الممكن أن يلعب في المستقبل دوراً مهماً في تقوية الوطنية الشعوبية وتدعيم

مقوماتها » – (ص ٣٤٢) .

ويقول الأستاذ محمد محمد حسين في كتابه (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعـــاصر) معلقاً على دعوة الفرعونية في مصر التي نشطت في مصر في أوائل هذا القرن :

« .. واجتاحت مصر موجة من الفرعونية تحاول أن تغزو سائر النواحي الثقافية ، وتدعو إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية ، وتزعمت صحيفة « السياسة الأسبوعية » هذا الاتجاه الجديد ، فأفسحت صدرها لدعايته ، وأعان عليه رئيس تحريرها محمد حسين هيكل في شطر كبير من حياته [١] :

« أولئك هم المستشرقون وتلاميذهم الذين بدأوا يقولون بكل قوة :

« إن لغة القرآن العربية الفصحى إنما هي لا تساير حاجات العصر ، فيجب أن تعم اللغة العامية حتى تصبح لغة الجرائد والمؤلفات ، وقد تكررت منهم هذه الدعوة بصورة شائقة جـــذابة كسبت تأييد المثقفين في مصر وأوقفتهم بجانبها ، وقد عنيت حكومات الاحتلال وبعيدوا النظر من الولاة المستعمرين والمفكرين الغربيين بهذا الموضوع عناية فائقة ، ونشطوا في تحبيب هذه الفكرة وترويجها ، وقد كان لهذه الدعوة دوي في مصر في فجر هذا القرن أفزع كثيراً من المحبين للإسلام والغيارى في اللغة العربية ، يقول الأستاذ محمد محمد حسين في كتابه : « الاتجاهات الوطنية » :

« .. ثم هاجت المسألة مرة أخرى في أوائل سنة ١٩٠٢ حين ألف أحـــد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية في مصر من الانجليز – وهو القاضي ولمُور – كتاباً سمّاه لغة القاهرة ، وضع لها فيه قواعد ، واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب ،

---

(١) الجزء الثاني من الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص١٣٥ .

كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ، وتنبه النّاس للكتاب حين أشادت به « المقتطف » في « باب التقريظ والانتقاد » ، فحملت عليه الصحف ، مشيرة إلى موضع الخطر من هذه الدعوة التي لا تقصد إلا إلى محاربة الإسلام في لغته ، وفي ذلك الوقت كتب حافظ قصيدته المشهورة ، التي يقول فيها ، متحدثاً بلسان اللغة العربية [١] :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي
وناديت قومي فاحتسبت حياتي الخ ..

ويقول في موضع آخر :

« .. وثارت المسألة من جديد ، حين دعا إنجليزي آخر ، كان مهندساً للري في مصر — وهو السير وليم ولكوكس — سنة ١٩٢٦ إلى هجر اللغة العربية ، وخطا بهذا الاقتراح خطوة عملية ، فترجم الانجيل إلى ما سماه «اللغة المصرية » ونوه سلامه موسى بالسير ولكوكس وأيّده ، فثارت لذلك ثائرة الناس من جديد ، وعادوا لمهاجمة الفكرة؛ والتنديدبها يكمن وراءها من الدوافع السياسية، ولكن الدعوة استطاعت أن تجتذب نفراً من دعاة الجديد في هذه المرة ، فاتخذوا القومية والشعبية ستاراً لدعوتهم ، حين كان لمثل هذه الكلمات رواج ، وكان لها بريق خداع يعشي الأبصار ، وحين كان الناس مفتونين بكل ما يحمل هذا العنوان في أعقاب ثورة شعبية تمخضت عن « الفرعونية »، وحين كانوا يتحدثون بما صنع الكماليون من استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وترجمة القرآن للغة التركية وإلزام الناس بالتعبد به ، وتحريم تدريس العربية في غير معاهد دينية محدودة وضعت تحت الرقابة الشديدة ، وقد مضوا من بعد في مطاردة الكلمات العربية الأصل ينفونها من اللغة التركية كلمة بعد كلمة[٢].

(١) ديوان حافظ ابراهيم ١ : ٢٥٣ .

(٢) الجزء الثاني من الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ٣٣٦ .

ولو نجحت هذه الدعوة لأنتجت توزع اللغة العربية بين لغـــات شتى ، وانقطاع صلة العرب عن القرآن والأدب الإسلامي ، وسبَّب للغة العربية أن تصبح لغة غريبة لهم ، وتفقد مكانتها الدولية ، ويحرم العرب كلهم تراثهم الديني وروحه ، فيقعوا فريسة الإلحاد والردة والخلافات والاضطرابات بكل سهولة .

كما أنهم دعوا إلى اتخاذ الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية ، وأثبت تلاميذهم ضرورته من حين لآخر ، وجهروا بذكر فوائده وفضـــله ، ووقع ذلك فعلاً في مصر كنانة الإسلام ، وحصن العربية . يقول الأستـــاذ محمد محمد حسين :

« تقدم عضو من أبرز أعضاء المجمع العلمي المصري ، وهو عبد العزيز فهمي — ثالث الثلاثة الذين بني عليهم الوفد المصري — في سنة ١٩٤٣ باقتراح الكتابة العربية بالحروف اللاتينية ، وشغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات ، امتدت خلال ثلاث سنوات ، ونشر في الصحف ، وأرسل إلى الهيئات العلمية المختلفة ، وخصصت الحكومة جائزة مقدارها ألف جنيـــه لأحسن اقتراح في تيسير الكتابة العربية [١] » .

والمعلوم أن ذلك لا ينتج إلاّ حرمان الأمة العربية وجهلها بقراءة القرآن على وجه صحيح ، وفقدان التراث العلمي — الذي لا يوجد له نظير في سعته — قيمته وأهميته .

ونستطيـع أن نعرف هدف المستشرقين ومدى أفكارهم ودقة نظرهم في تحقيق غرضهم وعدائهم السافر للإسلام بهذه الاقتراحات والتوصيات الآنفة

---

(١) أيضاً ص ٣٣٨ .

الذكر ، وإن مؤلفات أغلبية هؤلاء المستشرقين تستأصل أسس الإسلام وتشكك في مصادره بما فيها الفقه والحديث ، وتحدث جو الاضطراب الفكري والارتياب في المجتمع الإسلامي ، وتبذر في القلوب بذور الشك والريبة في تفقه حملة الإسلام وذكائهم (الفقهاء والمحدثين) وقد تحمل مؤلفاتهم من الأخطاء العلمية الفاحشة وسوء الفهم ، وعدم الرسوخ في اللغة وقواعدها ، ومن التحريف والتزوير ما يدعو إلى الضحك والعجب ، ولكن أكثر مؤلفاتهم نالت قبولاً عاماً في الشرق والغرب ، وأثارت إعجاباً في الطبقة المثقفة الحديثة (وفيها عدد من المثقفين الناضجين) بحسن ترتيبها ، والاستنباط الدقيق للنتائج ، وطريقة عرضها العلميّة ، وهي طبقة لا تشفي غليلها مؤلفات علماء الشرق الأقحاح .

ولكي نعرف المكانة التي يحتلها علماء الغرب ، والثقة التي ينالونها في الشرق يجب أن نعلم أن المجامع العلمية الثلاثة في الشرق الأوسط ، أعني المجمع اللغوي في مصر ، مجمع اللغة العربية في دمشق ، والمجمع اللغوي العراقي في بغداد ، لكل واحد منها عدد وجيه من الأعضاء المستشرقين الذين يستفاد من آرائهم ودراستهم .

وممّا يدل على ضعف العالم الإسلامي والعربي وفقر وسائلها العلمية أن هذين العالمين كليهما يعتمدان على مؤلفات المستشرقين في المواضيع الإسلامية الخالصة منذ زمن بعيد ، وهي مؤلفات تحتل مكانة « الكتاب المقدس » (Gospel) في موضوعها ، فإن كتاب ر. أ. نكلسن ، (R. A. Nicholson) في موضوع تاريخ آداب العرب (A.Literary History) وكتاب الدكتور حتي (Dr H.P. Hitti) عن تاريخ العرب والإسلام (History of Arabs) وكتاب كارل بروكلمان (Carl Brocklemann) في تاريخ الآداب العربية (Geschtirder Arabichen Literature) باللغة الألمانية وترجمتها إلى الانجليزية باسم (The History of Ard Literature) وكتاب شاخت (Schacht) في مصادر الفقه الإسلامي باسم : (The Hregins of Mohammadans Jurisprudence)

كل ذلك مما ينفرد في موضوعه ، ويعد مصدراً علمياً له أهميته وقيمته بجامعات الشرق في قسمها العربي والإسلامي ، وعليه أكبر اعتماد المؤلفين في الأقسام الإسلامية في الجامعات .

إن « دائرة المعارف الإسلامية » التي ألفها المستشرقون (ولو كان فيها لبعض المسلمين إسهام ضئيل) ، وصدرت منها طبعات متعددة في أوروبا وأمريكا ، تعد أكبر مصدر للمعلومات والحقائق الإسلامية ، وأثمن ذخيرة لها ، وتعتبرها بعض البلاد الإسلامية اليوم (كمصر وباكستان) أساساً للمعلومات الإسلامية وتقوم بترجمتها إلى العربية والأردو .

ولسد تأثير المستشرقين الهدام ، وإصلاح هذا الفساد يجب أن يقوم علماء الإسلام من رجال البحث والتفكير بالكتابة حول الموضوعات العلمية ، ويقدموا للعالم الإسلامي المعلومات الإسلامية المؤكدة ، ووجهة نظر الإسلام الصحيحة ، مع مراعاة الجوانب المحمودة التي يمتاز بها المستشرقون ، بل والزيادة فيها ، كما يجب أن تكون كتاباتهم ومؤلفاتهم ممتازة من حيث اصالة التحقيق ، وسعة الدراسة ، وعمق النظر وتأكد المصادر وصحتها ، واستدلالها القوي بالنسبة لكتابات المستشرقين ومؤلفاتهم ، وأن تكون حاملة لجميع نواحي الاستحسان ، بعيدة عن الأخطاء والنقائص العلمية .

ومما يجب أيضاً هو أن يقوم هؤلاء العلماء المفكرون باستعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ومحاسبتها في ضوء الحقيقة والواقع ، حتى ينكشف الغطاء عن تلبيساتهم ، وأخطاءهم في فهم النصوص وبيان المعنى ، ويبدو للنّاس ضعف مصادرهم التي يعتمدون عليها وأخطاء النتائج التي يستنبطونها منها ، ويطلعوا على ما يضمرون في نفوسهم من عداء للإسلام ، وما يكنونه من أغراض سياسية ودينية في خفايا دعوتهم وتربيتهم ، وكل ذلك مؤامرة على الاسلام والأمة الاسلامية يجب إحباطها .

أما بدون الجمع بين هـذا العمل الايجابي الذي يقتضي تأليف كتب تحليلية وأبحاث عميقة حول المواضيع الاسلامية ، وبين العمل السلبي (بالمحاسبة العلمية) فلا تتحرر الطبقة المثقفة في العالم الاسلامي من تأثير أفـكار المستشرقين المسمومة ، تلك الطبقة التي تعد من أذكى الطبقات في العالم الاسلامي وأكثرها طموحاً ، والتي تدرس في جامعات أوروبا وأمريكا الكبرى ، أو في جامعات بلادهـا ، وتحب دراسة الاسلام بلغات الغرب التي تتقنها ، وما لم تتحرر هـذه الطبقة المثقفة التي ترزح تحت تأثير أفكار الغرب وعلماءه من تأثيرهم لا تزال تواجه الأقطار الاسلامية عاصفة الاضطرابات العقلية ، والردة الفكرية ، ويتبنى حملة التجديد والتغريب ، أفكارهم وآراءهم ، حتى إذا تمت لهم سلطة سيـاسية حاولوا تطبيق كل ما ينافي روح الاسلام على المجتمع وتنفيذه في الحكم ، ويشكلون بذلك مجتمعاً يشبه المجتمع الاسلامي القديم في الجنس والقوم فحسب ، ولكنه يتجه نحو الغرب والمادية في الحقيقة والواقع ، ويصح عند ذاك أن يخاطب قادة العالم الاسلامي وعلماؤه بهذا البيت الفارسي الذي معناه ! :

مهلاً أيها الأعرابي فإن الطريق الذي اخترته يذهب بك إلى تركستان ، وأنت تريد الكعبة ! .

تخلف العلوم الاسلامية وركود الفكر الاسلامي:

ومن العوامل التي أثرت في انسياق الطبقة المثقفة في العالم الاسلامي وقادته – الذين بيدهم أزمة الحـكم – مع الحضارة الغربية وبُعدهم عن الدين وانصرافهم عنه ، ذلك الجمود العقلي والركود الفكري الذي يطرأ على مراكز العلوم الاسلامية وعلى علمائها من مدة طويلة ، ومن أجل ذلك عجزت هذه العلوم الحافلة بالحياة والروح ، الصالحة للنمو والازدهار عن إقامة برهان على صلاحيتها التي تتدفق بها ومسايرتها مع الحياة المتطورة ، وذلك في عصر كانت حاجتهـا إلى ذلك أشد وأعظم من حاجة كل عصر .

وقد كان المنهج القديم للدراسات الاسلامية في العصر الماضي يتطور بين حين وآخر يساير الحياة ومطالبها ، ولم تكن هناك ثورات ولا انقلابات إلاّ نادراً ، ولم يكن في وضعها فرق جوهري ، وإنمّا كانت تلك الثورات عبارة عن تبادل الشخصيات والأسر الحاكمة ، ولكن واضعي المنهج التعليمي في ذلك العصر وزعماء الحركات العلمية في العالم الاسلامي آنذاك كانوا يقومون بتعديلات مستمرة في المناهج تشهد بذكائهم واعترافهم بالواقع .

ولما جاء القرن التاسع عشر الميلادي الذي لم تكن فيه انقلابات الأسر والشخصيات الحاكمة ، وإنما كانت ثورة حضارية وانقلاباً شاملاً ،فزالت حضارة وجاءت حضارة أخرى ،وذهبت قيم وحلت محلها قيم أخرى ، وأصاب المنهج الدراسي جمود لم يسمح له التجاوز عن خطه المرسوم ، وأبى كل تعديل أن يقبله، وظهر إلحاح شديد على البقاء على الخط القديم والأسلوب الذي اختاره المتقدمون في وضع المنهج الدراسي في عصورهم ، ومن بينهم الشيخ نظام الدين اللكهنؤي مؤسس « الدرس النظامي » (م ١١٦١ هـ) في الهند ، وعلماء الأزهر في القرن الثامن عشر في الشرق الأوسط ، فقد أغلق باب الاجتهاد ، ووقف توسيع نطاق الفقه الإسلامي في القضايا والمشكلات الجديدة التي خلقتها الحضارة الحديثة والاكتشافات الجديدة ، وبالرغم من أن الاجتهاد بشروطه الضرورية كان فريضة علماء الإسلام ووسيلة لتبليغ رسالة الإسلام إلى العصر المتطور أصبح مقفل الباب مسدود الطريق ، كما صور ذلك أحد[1] علماء العرب المعاصرين ببلاغة إذ قال : « فباب الاجتهاد ليس ممنوع الفتح في نظرهم ، بل هو مفقود المفتاح » .

إن أساليب البيان وطرق التعبير الآسرة للقلوب التي كانت خاصة العلوم الإسلامية ومعارف القرآن وشريعته كانت مفقودة أو كادت ، وذلك في عصر

---

(١) الأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء أستاذ الفقه الإسلامي بجامعة دمشق سابقاً .

تجدد فيه التعبير وأساليب البيان ، كما ندر وجود العلماء النوابغ الذين يستطيعون إقناع الجيل الجديد بخلود الحقائق الدينية وصلاحية الحيـــاة وتفوق الإسلام ، ويزيحون الستار عن وجه الحضارة الحديثة بنقدهم العلمي المتزن وتحليلهم الدقيق.

الحاجة إلى تدوين الفقه الاسلامي :

ومما لا شك فيه أن العالم الإسلامي في أجزائه المختلفة أنجب شخصيات دينية ممتازة أثارت الإعجاب في بعض أوساط العلم الواسعة بنبوغها وفضلها ، وأنقذت طبقة كبيرة من الردة الفكرية ، كما قام بعض العلماء في بعض الأقطار بخدمة الفقه الإسلامي ومشكلاته في إطارهم الشخصي ، وعرضوا الفقه الإسلامي في ثوب قشيب ، ولكن العالم الإسلامي تعوزه حركة علمية قوية دولية ، تعرّف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيـد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن أن الفقه الإسلامي وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادىء الخالدة ، التي لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها في يوم من الأيام ، وهي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدي الناس .

إنه عمل ضخم يقتضيه الوقت الحاضر ، وهو نداء الوقت ، وصوت الساعة ، وبذلك نستطيع أن ننقذ العالم الاسلامي والمجتمع الاسلامي المعاصر من الردة الفكرية والاجتماعية ، ونسد تيار التغريب والتجدد الجارف ، الذي يجرف العالم الاسلامي اليوم بكل قوة وشدة وطغيان ، ولقد صدق محمد إقبال ، إذ أبدى أهمية هذا العمل ونتائجه البعيدة المدى ، يقول :

« إنني أومن وأعتقد أن من درس أصول قانون العصر الحاضر ، وأثبت خلود تعاليم القرآن وبقاءها في ضوء دراسته إنما هو مجـــدد الاسلام في عصره

وأكبر خادم للنوع البشري ، والمسلمون في كل قطر إمّا مشغولون بحرب الاستقلال والتحرير ، أو عاكفون على دراسة القانون الاسلامي ، وبالجملة فإن هذا وقت العمل ، لأن الاسلام كما اعتقد ينقد اليوم على محك العصر الحديث ، ولعل التاريخ الاسلامي لم يشهد فترة مثل ما يشهدها اليوم [1] . »

والتدوين الجديد للفقه الاسلامي لا يعني ابتكار قانون جديد يحتاج إلى وضع مبادىء جديدة ، أو ظهور شيء لا وجود له إلى حيز الوجود ، إن الفقه الاسلامي ثروة غالية للقانون ونموذج عال للذكاء الانساني وجهوده ، يثير الاستغراب ، ولا يوجد له نظير في ذخائر العالم القانونية ، إنه يحتوي على جزء كبير للحياة ومعظم أحوال العصر القديم وظروفه ، وليست حاجة اليوم إلاّ أن تستنبط المسائل الفرعية من أصول الفقه الاسلامي وكلياته التي تنبع من القرآن والسنة ، وذلك لتحقيق مطالب الحياة المتطورة الحاضرة ، وتقديم حلول لمشكلاتها الحديثة .

ولتقدير قيمة الفقه الاسلامي وذخيرته التشريعية نقدم مقتطفاً من مقدمة كتاب « المدخل الفقهي العام إلى الحقوق المدنية » للأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء ، أستاذ الحقوق المدنية والشريعة الاسلامية في كلية الحقوق بدمشق ، وهو يتحدث حول انطباعات رجال القانون الغربيين نحو التشريع الإسلامي ، في الندوة التي عقدتها شعبة الحقوق الشرقية للبحث في الفقه الاسلامي في كلية الحقوق من جامعة باريس ، باسم : « أسبوع الفقه الاسلامي » .

إنه يقول :

« عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولي للحقوق المقارنة مؤتمراً

(١) إقبال نامه ج١ص ٥٠ – ٥١ .

للبحث في الفقه الإسلامي في كلية الحقوق من جامعة باريس تحت اسم « أسبوع الفقه الإسلامي » برئاسة المسيو (Milliot) أستاذ التشريع الإسلامي في كلية الحقوق بجامعة باريس ، ودعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كليات الحقوق العربية وغير العربية وكليات الأزهر ، ومن المحامين الفرنسيين والعرب وغيرهما ، ومن المستشرقين ، واشترك فيه من مصر أربعة أعضاء : إثنان من جامعة فؤاد ، وعميد كلية الحقوق في جامعة إبراهيم ، وأحد أعضاء هيئة كبار العلماء عن الأزهر ، واشتركت فيه أنا مع الأستاذ الدكتور معروف الدواليبي عن كلية الحقوق السورية .

وقد حاضر الأعضاء في خمسة موضوعات فقهية من الحقوق العامة والخاصة (المدنية والجنائية والاقتصادية) ومن تاريخ التشريع ، عيّنها مكتب المجمع الدولي للحقوق المقارنة قبل عام ووجهت الدعوة للمحاضرة فيها ، وهي :

(١) إثبات الملكية . (٢) الاستملاك للمصلحة العامة . (٣) المسئولية الجنائية . (٤) تأثير المذاهب الاجتهادية بعضها في بعض . (٥) نظرية الربا في الإسلام ، وكانت المحاضرات كلها باللغة الفرنسية ، وخصص لكل موضوع يوم ، وعقب كل محاضرة كانت تفتح مناقشات مهمة مع المحاضر ، وبين المؤتمرين تطول وتقصر بحسب الحاجة ، وتسجل خلاصتها .

وفي خلال بعض المناقشات وقف أحد الأعضاء ، وهو نقيب محاماة سابق في باريس فقال :

« أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامي ، وعدم صلوحه أساساً تشريعياً يفي بحاجات المجتمع العصري المتطور ، وبين ما نسمعه الآن في المحاضرات ومناقشاتها مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادىء » .

وفي الختام وضع المؤتمرون بالاجماع هذا التقرير الذي نترجمه فيما يلي :

« بناء على الفائدة المتحققة من المباحثات التي عرضت أثناء « أسبوع الفقه الاسلامي » وما جرى حولها من المناقشات التي تخلص منها بوضوح :

١ – ان مبادىء الفقه الاسلامي لها قيمة (حقوقية تشريعية) لايمارى فيها.

٢ – وان اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الأصول الحقوقية ، هي مناط الاعجاب، وبها يتمكن الفقه الاسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها .

يعلنون رغبتهم في أن يظل أسبوع الفقه الإسلامي يتابع أعماله سنة فسنة ، ويكلفون مكتب المؤتمر وضع قائمة للموضوعات التي أظهرت المناقشات ضرورة جعلها أساساً للبحث في الدورة القادمة .

ويأمل المؤتمرون أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامي يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه ، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيه المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقاً للأساليب الحديثة » .

بارقة الأمل :

ولكن الطبقة المثقفة الجديدة التي تحتل اليوم مركز القيادة ، لثقافته العصرية وكفاءاته الحديثة تحمل من سلامة التفكير وصلاحية قبول الحق نصيباً غير منقوص ، بالرغم من علاتها وطبيعتها الخاصة ، بل قد تفوق هذه الطبقة في عزمها وقوة إرادتها واعترافها بالحقيقة بعض الطبقات الأخرى وتمتاز عنها . إن أفراد هذه الطبقة عندما يؤمنون بمبدأ يرون من الواجب عليهم أن يستنفدوا كل طاقتهم في تبليغه ونشره ، ويستفرغوا فيه جهودهم وقوتهم إلى آخر مدى، فيها كثير ممن يحبون الإسلام ويؤمنون به كمبدأ وعقيدة ، وقد منحت هذه

الطبقة جماعة المسلمين رجالاً غيارى، صائبي الفكرة، بعيدي النظر، متفانين في خدمة الإسلام، مجاهدين في سبيله، وكم من حركات إسلامية قامت على أكتاف الأبطال والقادة الذين ينتمون إلى هذه الطبقة.

وفي الشرق الأوسط لم يظفر السيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده والشيخ حسن البنا بخيرة رجالهم إلاّ من هذه الطبقة، كما أن الهند منذ بدء حركة الخلافة إلى الحركات الدينية المعاصرة نالت أفضل رجالها وأقوامهم إرادة من هذه الطبقة نفسها، فإذا قام اليوم دعاة الدين بتبليغ رسالة الاسلام إلى هذه الطبقة بكل إخلاص ونزاهة، ونجحوا في تثقيف عقليتهم بثقافة الاسلام وإقصاء بذرة الفساد التي بذرتها الثقافة الغربية في عقولهم ونجحوا في إشعال شرارة الايمان التي لا تزال كامنة تحت الرماد، نشأ فيها رجال أفذاذ متفانون في حب الاسلام أمثال الشاعر محمد إقبال والزعيم محمد علي، وسيكون ذلك اكتشافاً مدهشاً، وبالتالي ساراً لدعاة الاسلام.

ولتغيير الوضع العالمي وإحداث ثورة على الأوضاع السائدة في العالم الاسلامي، يجب على دعاة الدين أن يوجهوا عنايتهم وجهودهم إلى هذه الطبقة، فلم يبل العا الاسلامي بالردّة الفكرية إلاّ بسوء تفكير هذه الطبقة وانحرافها، وبذلك اتجه العالم الاسلامي اليوم من الفكر الاسلامي الخالص إلى التفكير الغربي الخالص، وصار الجمهور بيد القيادة اللادينية كالقطعان من الضأن والغنم، وعلى إصلاح هذه الطبقة المثقفة يتوقف انصراف الأقطار الإسلامية من التفكير الغربي إلى الفكر الاسلامي الصحيح.

ولا داعي إلى اليأس والتشاؤم، فإن هذه الطبقة كما وصفها محمد إقبال:

« إن إقبال ليس يائساً من مزرعته الخَرِبة، إنها إذا تندّت وابتلّت قليلاً[1] أتت بحاصل كبير ».

---

(١) يشير إلى أن هذه الطبقة المثقفة – الثقافة الجديدة التي كان أحد أفرادها – إذا رزقت حظاً من الإيمان والحنان، وقوة العاطفة، ورقة الشعور، مع ثقافتها العصرية وقوة الإرادة، وحب الواقع، لكان لها شأن عظيم، ومثلت دوراً رائعاً في خدمة الإسلام، وإنهاض الأمة.

الموقف الثالث

إذن فما هو الموقف الثالث ، وما هو الموقف العـــادل الذي يجب أن يقفه العالم الإسلامي تجاه هذه الحضارة الغربية ؟ .

إنه لا يمكن تحديد موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية حتى نعرف طبيعة الأمة الإسلامية ، ومركزها في هذا العالم ، ثم نعرف موقفها من هـــذه الحياة التي تصوغ الحضارات ، وتشكل المجتمعات والمدنيات .

مركز الأمة الاسلامية ورسالتها :

إن الأمة الإسلامية هي صاحبة الرسالة الدينية الأخيرة ، وهذه الرسالة هي التي تسيطر – ويجب أن تسيطر – على جميـع مواقفها ، وتصرفاتها ، مركزها مركز القيـادة والتوجيه ، والحسبة على العالم ، والقرآن يعلن بقوة وصراحة : « كنتم خير أُمة أُخرِجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهَوْن عن المُنكَر ، وتُؤمِنون بالله » ، فلا يجوز أن يكون مكان هذه الأمة في مؤخر الركب وفي صف التلاميذ والحاشية ، وأن تعيش على هامش الأمم وترضى – من القيـادة والتوجيه ، والأمر والنهي ، والخلق والإبداع – بالتقليد والتطبيق ، والخضوع والإطاعة ، فلا يكون موقفهـا الصحيح إلاّ موقف الحر الكريم ، القوي الارادة ، المستقل التفكير ، الذي يأخذ – إذا اضطر واحتـاج – من حوله بإرادة واختيار ما يطابقه ويلائمه ، وما لا يرزؤه في شخصيته وتفوّقه وامتيازه ، وثقته بنفسه ومركزه ، وينبذ ما لا يلائمه ويضعف شخصيته ومركزه ويفقده امتيازه ويدمجه في غيره ، ولذلك نهيت هذه الأمة عن التشبه بقوم في شعارهم وشاراتهم (١) .

---

(١) قال العلامة الحسين بن محمد عبد الله الطيبي (م ٧٤٣ هـ) في كتابه الكاشف عن حقائق السنن المحمدية « شرح مشكاة المصابيح » في شرح حديث « من تشبه بقوم فهو منهم » الذي أخرجه أحمد وأبو داوود « هذا عام في الخَلق والخلق والشعار ، ولما كان الشعار أظهر في التشبه ذكر في هذا الباب . قال العلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المعروف بملاّ علي القاري (م ١٠١٤) في المرقاة : « قلت بل الشعار هو المراد بالتشبـه لا غير ، فإن الخلق الصوري لا يتصور فيه التشبه ، والخلق المعنوي لا يقال فيه التشبه بل هو التخلق (ص ٤٣١ ج٤) .

وهي أمة ذات هدف معين في الحياة ، ورسالة كاملة في العالم ، وحضارتها وثقافتها ، وكفاحها ، وإنتاجها ، وكل ما يتصل بها من حركة ونشاط خاضع لعقيدتهاوغاياتهاورسالتها ، فلا قيمة عندها لفلسفة تقول : « العلم للعلم » و«القوة للقوة » و « الاكتشاف للاكتشاف » ، وكذلك ليس من مهمتها بسط السيطرة على الانسان أو على الأكوان ، وتسخير الطاقات البشرية ، أو القوى الطبيعية والفلكية لإثبات قوتها أو تقرير فتوحها المادية والعلمية ، فإن ذلك عندهاضرب من العبث ، ونوع من الأنانية المتضخمة ، والقرآن يتلو عليها ويضبط اتجاهاتها وطموحها بقوله : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يُريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتّقين[1] ».

المؤمن القوي العليم الصالح المصلح :

إنما يسمح لها الاسلام بالكفاح في سبيل الحياة والطبيعة والعلم – وقد يحث عليه – لصالح البشرية وللغايات الكريمة إلى حدّ الضرورة ، وقد ضرب الله لها مثلاً في القرآن : « بالإنسان القوي العليم الصالح المصلح الذي يسخّر القوى الكونية والمادية ، ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل ويوسع فتوحه ومغامراته وهو في كل ذلك ،وفي أوج قوته وسلطته وسيادته ،وتسخيره للقوى والأسباب مؤمن بربه ، خاضع له ،مؤمن بالآخرة ، ساعٍ لها، مقر بضعفه ، رحيم بالانسانية وبالأمم الضعيفة ، حامٍ للحق ، يستخدم كل قوته وجهوده ومواهبه ، وجميع وسائله وذخائره لخدمة الانسانية ، وتكوين المجتمعالصالح ، وإعلاء كلمة الله ، وإخراج النّاس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة النّاس والمادة إلىعبادةالله ، سيرة مثّلها سليمان بن داود فيعصره ، ومثّلها ذوالقرنين في عصره ،ومثّلها الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون في عصورهم[2] ».

---

(١) القصص ٨٣ .

(٢) تفسير سورة الكهف للمؤلف « المسلمون » المجلد السادسعدد ٤ .

الحياة كمرحلة عابرة ووسيلة للآخرة :

أما موقفها من هذه الحياة ، فهو موقف من لا يراها الغاية الأسمى والمثل الأعلى ، وسدرة المنتهى في السعادة والتقدم ، إنما ينظر إليها كمرحلة « عابرة » لا بد من اجتيازها ؛ وكوسيلة للوصول إلى الفوز الأكبر ، والحياة الدائمة ، والعيشة الراضية ، إن القرآن يقرر – بكل وضوح وقوة – قصر هذه الحياة الدنيا ، وتفاهتها وتضاؤلها في جنب الآخرة ، فيقول مثلاً : « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل[1] » ويقول : « وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون[2] » ويقول : « اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور [3] ».

ويقرر كذلك – في وضوح وقوة – أنها قنطرة إلى الآخرة ، وفرصة للعمل ، فيقول : « إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوَهم أيُّهم أحسن عملاً[4] » . ويقول : « الذي خلقَ الموتَ والحياة ليَبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور[5] ». ويقرر أن الآخرة خير وأبقى ، فيقول : « وما الحياة الدنيا إلاّ لعبٌ ولهوٌ وللدّار الآخرة خيرٌ للذين يتقون أفلا تعقلون [6] » ، ويقول : « وما أُوتيتم من شيء فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها وما عندالله خير وأبقى أفلاتعقلون[7] » ويذم ويشنع على من يؤثر الدنيا – هذه الفانية العارضة السقيمة الناقصة – على الآخرة – الباقية الخالدة ، الواسعة الصافية من الأكدار ، الخالية من الأخطار ، فيقول : « إنّ الذين لا يَرجون لقاءنا ورَضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النّار بما كانوا يكسبون [8] » ،

---

(١) براءة ٣٨ . (٢) العنكبوت ٦٤ . (٣) الحديد ٢٠ . (٤) الكهف ٧ .
(٥) الملك ٢ . (٦) الأنعام ٣٢ . (٧) القصص ٦١. (٨) يونس ٧ – ٨ .

ويقول : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون[١] » ، ويقول : « وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد[٢] » ، ويقول : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون[٣] » ، ويقول : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى[٤] » ويقول : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا[٥] » ويقول : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى[٦] » .

ويمدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيثار جانب الآخرة على جانب الدنيا ، ومعرفة قيمتها وفضلها والحرص عليها ، فيقول : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار[٧] » ، ويقول على لسان نبي الله موسى : « واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك[٨] » ، ويمدح خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول : « وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين[٩] » .

وخير ما يمثل موقف المؤمن من هذه الحياة ، ويحدده بدقة ومقدرة ليست فوقها دقة ومقدرة ، هو الجملة الحكيمة المأثورة عن رسول الله ﷺ : « إن الدنيا خلقت لكم وإنكم خلقتم للآخرة[١٠] » ، فالمسلم يجمع بين الانتفاع

---

(١) هود ١٦ . (٢) إبراهيم ٣ . (٣) الروم ٧ . (٤) النجم ٢٩ — ٣٠ .
(٥) الانسان ٢٧ . (٦) النازعات ٣٧—٣٨—٣٩ . (٧) البقرة ٢٠٠-٢٠١ .
(٨) الاعراف ١٥٦ . (٩) النحل ١٢٢ . (١٠) رواه الطبراني في الأوسط .

بمرافق الحياة وأسباب الدنيا واستخدامها كشيء خُلِقَ لأجله وسُخّر له ، وبين السعي للآخرة والكفاح لها كغاية خُلِقَ لأجلها ، فهو ينظر إلى الدنيا وقواتها ووسائلها كمطية ومركب لا كراكب ومتصرف ، وكمملوك ورقيق لا كمالك وسيّد ، ووسيلة لا كغاية ، وينظر إلى الآخرة كغاية ينتهي إليها ووطن يلجأ إليه ، فيجمع عليه همته ويرهق له قواه ويحث إليها مطيته ، وذلك مثل النبوة الذي مثله الرسول ﷺ إذ قال : « مالي وللدنيا وما أنا والدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها [١] » .

وقد تجلت هذه النفسية القرآنية ، أو النظرة القرآنية إلى الحياة في حياة النبي ﷺ وتعاليمه وسلوكه ، وكلامه وعواطفه ، وأمانيه ودعائه ، وسره وعلنه ، وتجلت كذلك في حياة الصحابة الذين تربّوا وتكوّنت سيرتهم وعقليتهم في حضانته وتحت إشرافه ، ومن كان على نهجهم وعلى غرارهم من التابعين والمؤمنين من هذه الأمة ، بحيث قد صار ذلك طابعاً لحياتهم ، ومزاجاً لا ينفك عنهم ، وأصبح من الحقائق التاريخية التي لا يمارى فيها .

وهنا تتعارض الأديان السماوية ، وتعاليم النبوة ، أو مدرسة النبوة — إن صح التعبير — مع الفلسفات المادية ، والتفكير المادي الذي يلح على أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء ، وهي المنتهى ، ويبالغ في تمجيدها وتقديسها والاحتفاء بها ، والحرص على ترفيهها وتحسينها وتزيينها .

ـ حضارة ثائرة على القيم الدينية والروحية :

وقد كان من المصادفات الأليمة المحزنة ، والمآسي الفاجعة للبشرية أن الحضارة الغربية قد ولدت وترعرعت في عصر قد ثار على الدين وأسسه من

---

(١) رواه أحمد والترمذي .

الإيمان بالغيب وغير ذلك ، وفي أمة قد ثارت على الذين تزعموا الدين واستغلوه لشهواتهم وأنانياتهم ، واشتد غضبها عليهم لسوء سيرتهم وهمجيتهم ووقوفهم في سبيل التقدم وحرية العقل والعلم ، فترافق نشوء الحضارة والصناعة والاتجاه المادي العنيف ، الاتجاه إلى تنظيم الحياة على أسس مادية خالصة ، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها ومصرف هذا الكون ، وكل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب وطبائع الأشياء ، ووضع أوروبا الخاص ، فشبت هذه الحضارة واختمرت وهي المسيطرة على القوى والأسباب ، قد بلغت الغاية في التقدم والصناعة وعلوم الطبيعة حتى استطاعت أخيراً أن تعدم المساحات والأبعاد ، وتتجاوز الكرة الهوائية ، إلى غير ذلك من الفتوح في دائرة العلوم الطبيعية والفلكية[1]» .

سيطرة « المادية » على قادة التجديد في الشرق الاسلامي :

وقد انتقلت هذه النفسية المادية إلى قادة حركات التجديد ، وبالأصح التغريب في الشرق الإسلامي وتواضعوا — من عهد «كمال» إلى عهد «جمال» — على الافتتان بالتقدم المادي ، واتخذوا القوة والرفاهية إلهاً يقدس ويعبد ويكفر بغيره ، ويضحى على أنصابه بكل القيم الخلقية والروحية ، وما ليست له قيمة مادية ، وحسب القارىء أن يقرأ خطب هؤلاء الزعماء القوميين والقادة السياسيين ، وما يكتبونه بين آونة وأخرى ، وما يدلون به من تصريحات ، وما يتخذونه من إجراءات رسمية وخطوات عملية ، وما يعاملون به الأحزاب التي تفكر غير هذا التفكير ، وتسير غير هذه السيرة ، وتنتقد هذه الاتجاهات ، وحسبه أن يقرأ مشاريع الحكومة والخطط المستهدفة ومجالات النشاط والحركة والحماسة في الدوائر

---

(١) منقول من تفسير سورة الكهف للمؤلف المنشور في « المسلمون » المجلد السادس « ١٣٧٧ هـ » عدد ١ — ٢ — ٣ — ٤ .

الرسمية ، يراها مقتصرة على ترفيه البلاد وتقويتها مادياً ، ورفع مستوى الحياة، ومجاراة الشعوب التي لا تعرف غير المادة والمحسوسات حقيقة ، ولا تعرف غير القوة إلهاً ، ولا تعرف غير التقدم المادي والرفاهية الدنيوية هدفاً وغرضاً ، ولا تعرف غير مجموعة الأفراد الذين تربط بينهم – رابطة قومية أومعاهدةسياسية– مجموعة بشرية ، تستحق الاحترام والاهتمام ، إن هذه هي النفسية التي جرّت على العالم الشقاء والبلاء في كل زمان ، وهي العقلية الضيقة السقيمة التي حاربتها الأديان ، وجاء يمحوها الإسلام ، وإن احتضان قادة بلد إسلامي لهذه الفكرة والعقيدة المادية الضيقة نكسة عظيمة في التفكير لا تدل إلاّ على ضعف الإيمان وسوء التربية ، وسقوط الهمة ، وقصر النظر ، وشقاء هذه البلاد أولاً ، وشقاء العالم الإنساني ثانياً .

إن الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية ومركز هذه الأمة في العالم ،ومعرفة رسالتها والإيمان بقيمتها ، والضغط على قيمة الآخرة وما بعد هذه الحياة – من سعادة وشقاء وجنة ونار – والتركيز على الجانب الخلقي والروحي من الحياة ، هو الخط الفاصل الذي يشكل الحد الفاصل الرسمي بين الحضارتين، حضارة يوافق عليها الإسلام ، ويتحمل مسئوليتها ، ويباركها ، وتتجلى فيها الشخصية والأصالة والاتباع ، وحضارة يتبرأ منها الإسلام ، ويخسر فيها المسلمون ، وتتجلى فيها العبودية والرضوخ والاستسلام ، والعبادة التي لا تعرف إلاّ تقليد الببغاوات ، ومحاكاة القرود .

محنة ذكاء وقوة إرادة :

إن التصميم الحضاري محنة ذكاء ، وعصامية وعبقرية ، وقوة إرادة ، وفقه دين ، ليس مجرد عملية نقل وتطبيق ، وتعديل وتحسين ، إن الإسلام قد حدّ حدود الحلال والحرام ، وحرّم تخطّي هذه الحدود ، وأفسح المجال بينها للتمتع الكريم النزيه ، في غير إسراف وإجحاف ، ومسّ بحقوق الآخرين وحظوظهم ،

ومن غير تعرض لخطر الوقوع في الإثم والفحشاء والتبذير ، والحياة التي لا تليق بالذكور الرجال ، والكرام الأقوياء ، وهذه هي الروح التي تسيطر على أحكام اللباس والطعام والعشرة والاجتماع والمتعة واللذة ، وحث على مراعاة المصالح، والتجنب من المضار والمفاسد ، وإعـــداد الممكن المستطاع من وسائل القوة والدفاع ، واقتباس الصالح النافع من العلوم والحكمة ، بشرط أن لا يكون ذلك على حساب مقومات الشخصية والكرامة القومية – الإسلامية – وبشرط أن لا ينشيء ذلك في الأمة شعوراً بالنقص ، وقصوراً في الثقة ، وروح اندفاع سريـع متهور إلى تقليد الآخرين ، والتشبـع بروحهم ، وإجلال حياتهم وتقديسها .

نعومة حرير وصلابة حديد :

إنها أساس حضارة تلك نعومة الحرير وصلابة الحديد ، نعومة الحرير في مسايرة المقتضيات والحاجات والحقائق ، غير مفترضة ولا مختلقة ، وغير متخيلة ولا مبالغاً فيها ، وصلابة الحديد ، وثبات الجبال على حدود العقيدة والأخلاق، إنها مفتوحة العقل والضمير ، منشرحة الصدر ، متهيئة لاقتباس العلوم النافعة التي نشأت وتكوّنت في جانب بعيد في هذا العالم ، واقتباس النظم والأساليب التي لا تمس جوهر الدين ولا تغير وضع الأخلاق .

ـ الافادة من الغرب ومجالها :

وأحلّي هذا الفصل الذي يحدد موقف العالم الإسلامي من حضارة الغرب وثقافته بقطعة جميلة من كتاب : « الطريق إلى مكة » للأستاذ محمد أسد ، فقد بدا فيها الاتزان والحصافة الفكرية ، وهي تحدد – بلباقة فائقة ومقدرة كبيرة – الخط العادل المتزن الذي يجب أن يسير عليه العالم الإسلامي في الإفادة من الغرب، وتبني الوسائل الحديثة . يقول محمد أسد :

« إن عالمي الإسلام والغرب لم يكونا يوماً أقرب أحدهما من الآخر ، كما هو اليوم ، وهـــذا القرب هو صراع ظاهر وخفي ، ذلك أن أرواح الكثيرين من المسلمين والمسلمات لتتغضن رويداً رويداً تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية ، إنهم يتركون أنفسهم ، يبتعدون عن اعتقادهم السابق بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب أن لا يكون سوى واسطة لتحسين أحاسيس الإنسان الروحيـــة ، إنهم يسقطون في وثنية « التقدم » نفسها التي تردى فيها العالم الغربي بعد أن صغروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة في مكان ما من مؤخرة الأحداث ، ولذلك تراهم يصغرون مقاماً ولا يكبرون ، ذلك أن كل تقليد ثقافي ، بخلاف الخلق والإبداع لا بد أن يحقر الأمة ويقلل من شأنها .

أنا لا أعني أن المسلمين لا يستطيعون أن يفيدوا كثيراً من الغرب ، وبخاصة في مجال العلوم والفنون الصناعية ، ذلك أن اكتساب الأفكار والأساليب العلمية ليس في الحق « تقليداً »، وبالتأكيد ليس في حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن أن يوجد ، إن العلم لا غربي ولا شرقي ، ذلك أن الاكتشافات العلمية ليست إلاّ حلقات في سلسلة لا نهاية لها من الجهد العقلي الذي يضم الجنس البشري بكامله ، إن كل عالم يبني على الأسس التي يقدمها له أسلافه ، سواء كانوا من بني أمته أو من أبناء أمة غيرها ، وعملية البناء والإصلاح والتحسين هـــذه تستمر وتستمر ، من إنسان إلى انسان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن مدنية إلى مدنية بحيث أن ما يحققه عصر معين أو مدنية معينة من أعمال علمية جليلة لا يمكن مطلقاً أن يقال إنها « تخص » و « تعود إلى » ذلك العصر أو إلى تلك المدنية ، فقد يحدث في مختلف الأزمنة والعهود أن تسهم أمة ما ، أمضى عزيمة وأشد همة من غيرهـــا ، بنصيب أكبر في صندوق المعرفة ، ولكن الجميـع مع الزمن يشتركون ، وبصورة شرعية صحيحة في هـــذه العملية ، لقد جاء حينٌ كانت مدنية المسلمين أقوى وأمضى من مدنية أوروبا ، فنقلت إلى أوروبا كثيراً من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية ، وأكثر من هذا : مبادىء

« تلك الطريقة العلمية » نفسها التي يرتكز إليها العلم الحديث ، والمدنية الحديثة ، ومع ذلك فإن اكتشافات جابر بن حيان الكيمياوية لم تجعل من الكيمياء علماً « عربياً » كذلك لا يمكن أن يقال إن الجبر وعلم المثلثات هما علمان « إسلاميان » مع أن الأول منهما بسطه الخوارزمي ، والثاني البتّاني ، وكلاهما كانا مسلمين تماماً ، كما لا يستطيع أحد أن يتكلم عن نظرية الجاذبية « الانكليزية » مع أن صاحبها كان إنكليزياً ، كل هذه الأعمال العلمية العظيمة هي ملك مشترك بين الجنس البشري كله ، وإذن فإن المسلمين إذا تبنوا ، كما هو من واجبهم أن يفعلوا ، الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية ، فإنهم لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم ؛ ولكنهم إذا تبنوا — وهم في غير حاجة إلى أن يفعلوا ذلك — أشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئاً ، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها ، ومما يدلهم عليه دينهم نفسه .

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنية فحسب ، بل ربما استطاعوا أيضاً أن يعطوا إنسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع [١] » .

الفراغ الأكبر والعبقري المطلوب :

إن الفراغ الهائل الأكبر في العالم الإسلامي هو وجود ذلك العبقري العصامي الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء ، ويشق له طريقاً خاصاً بين مناهجها ومذاهبها ، وبين فضائلها ورذائلها ، طريقاً يترفع فيها عن التقليد والمحاكاة وعن التطرف والمغالاة ، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر ، والمفاهيم

---

(١) الطريق إلى مكة للأستاذ محمد أسد « ليوبولد سابقاً » ص ٣٧٤ — ٣٧٦ .

السطحية ، متمسكاً بالحقائق وأسباب القوة ، وباللباب دون القشور .

العبقري العصامي الذي يشق له ولبلاده وأمته طريقاً مبتكراً ، يجمع فيها بين الإيمان الذي اختص به الأنبياء والرسل ، والدين الذي أكرمه الله وأمته به عن طريق محمد ﷺ ، وبين العلم الذي ليس ملك أمة ولا بلد ولا عصر ، يأخذ من الدين الدوافع الخيّرة التي هي أعظم قوة وأغنى ثروة في خدمة الإنسانية وبناء صرح المدنية ، والغايات الرشيدة الصالحة التي لا يوحيها إلاّ الدين السماوي والتربية الدينية السليمة ، ويأخذ من الحضارة الغربية الآلات والوسائل القوية الكثيرة التي أنتجتها وتوصلت إليها في سيرها العلمي الطويل وفي جهادها المتواصل الشاق ، ولم ينتفع بها الغرب لإفلاسه في هذا الإيمان وفقره في هذه الدوافع الخيرة ، وفي هذه الغايات الصالحة ، بل أصبحت تستخدم في شقاء الإنسانية وتقويض أركان المدنية أو لغايات تافهة لا قيمة لها .

العبقري العصامي الذي يعامل الحضارة الغربية - بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها - كمواد خام ، يصوغ منها حضارة قوية عصرية مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل في جانب ، وعلى القوة والإنتاج والرفاهة وحب الابتكار في جانب آخر ، ولا يعامل الحضارة الغربية كشيء قد تم تكوينه وتركيبه وختم عليه فلا يؤخذ إلاّ برمته ولا يقبل إلاّ على علاته ، إنما يأخذها كأجزاء ، يختار منها ما يشاء ، ويركب منها جهازاً يخضع لغاياته وعقيدته ومبادئه ونظام خلقه وما يكلفه بدينه من منهج خاص للحياة ، ونظرة خاصة إلى الدنيا ، وسلوك خاص لبني النوع ، وسعي خاص للآخرة ، وجهاد دائم « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » جهازاً مؤسساً على الإيمان بنبوة محمد ﷺ وأنه المثل الكامل ، والإمام الدائم ، والقائد المطاع ، والنموذج المتبع والسيد المحبوب ، والخضوع لشريعته كدستور للحياة ، وأساس للتقنين ، والدين الوحيد الذي تنال به سعادة الدنيا والآخرة ولا يقبل الله سواه .

العبقري العصامي الذي يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمته وبلاده ، وما ينفع عملياً وما ليس عليه طابع غرب أو شرق ، إنما هي علوم تجريبية تطبيقية ، وينفض عن كل ما يأخذه من الغرب غباراً لصق به في القرون المظلمة وفي عصر الثورة على الدين ، وفي حالة توتر أعصاب وقلق نفوس ، يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الإلحاد والعداء للدين ومن النتائج الخاطئة ، ويطعّمها بالإيمان بفاطر الكون ومدبّره ، ويستنتج منها نتائج أعظم وأوسع وأعمق وأكثر سعادة للإنسانية مما توصل إليه أساتذتها الغربيون .

العبقري العصامي الذي لا ينظر إلى الغرب كإمام وزعيم خالد ، وإلى نفسه كمقلد وتلميذ دائم ، إنما ينظر إلى الغرب كزميل سبق ، وكقرين تفوّق في بعض العلوم المادية والمعاشية ، فيأخذ منه مافاته من التجارب ويفيض عليه بدوره ما سعد به من تراث النبوة ، ويعتقد أنه إن كان في حاجة إلى أن يتعلم من الغرب كثيراً ، فالغرب في حاجة إلى أن يتعلم منه كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منه أفضل مما يتعلمه هو من الغرب ، ويحاول أن ينهج – بذكائه وجمعه بين حسنات الغرب والشرق وقوى الروحانية والمادية – منهجاً جديداً يجدر بالغرب تقليده وتقديره ، ويضيف إلى المدارس الفكرية والمناهج الحضارية مدرسة جديدة تستحق كل عناية ودراسة وتقليد واتباع .

هـذا هو العبقري العصامي الذي لا يزال مفقوداً في صفوف القادة والزعماء في العالم الإسلامي على كثرتهم وتنوعهم ، وهذا هو العملاق حقاً الذي يبدو في جانبه القادة المقلدون المطبقون صغاراً متواضعين كالأقزام .

وإنها أعظم تجربة وأبعدها أثراً ، ليس في محيط شعب أو بلد ، وليس في محيط العالم الإسلامي فحسب ، بل في محيط العالم ، وفي محيط الإنسانية كلها ، وإن التاريخ شاخص ببصره إلى من يقوم بها في الأقطار الإسلامية والعربية ، ممسك قلمه ليسطر له سطور الثناء والإجلال ، ويقلده الزعامة الحقيقية ، ومركز التجديد في العالم الإسلامي ، والعبقرية والعصامية في التاريخ الإنساني ؟ .

خاتمة البحث

إنها حقيقة – مهما كانت مُرّة وأليمة – أن العالم الاسلامي فقدالثقة بنفسه، وجهل ذاته ومعنوياته بصورة عامة، حتى ان الأقطار الحرة المستقلة في هـذا العالم الاسلامي الواسع – بما فيها الدول التي كانت مستقلة منذ قرون وأجيال وما تأخرت في الاستقلال – ظلت عالة على الغرب علمياً وعقلياً، كبلاد متأخرة أخرى نشأت في العبودية والخضوع، وشبّت على العبودية والخنوع، قد يقوم رؤساء هذه الدول وزعماؤها أحياناً بمواقف تستحق الاعجاب فيالمجالالسياسي، ويجازفون بعض الأحيان بمستقبل البلاد، ويغامرون– أو يقـامرون – بحياة الشعوب،ولكن لا يبدو منهم – في نفس الوقت – أيّ ثقة بالنفس وحرية في الاختيار، وملكة نقد حر وحكمعادل علىالأشياء يرجى من أيّ فرد بلغرشده، وعرف يمينه عن شماله، مع أنه من المقرر المعلوم في فلسفة التاريخ أن العبودية الفكرية والحضارية والتربوية أدهى وأمرّ وأعمق وأرسخ من العبوديةالسياسية، وأن الشعب الظافر المنتصر المحب للواقع يبقى في غنى عن الاستعباد السياسي واستعمال القوة، إذا نجح في الاستعباد الفكري والعقلي والحضاري .

في هذه العقود الأخيرة من القرن العشرين التي اكتوت فيها الانسانية بنار حربين عالميتين، وهي على أبواب حرب كونية ثالثة ساحقـة ماحقة، والتي أصبح فيها إخضاع دولة سياسياً وعسكرياً، والتحكـم في رقابهامن غيرإذن أهلها شاقاً وعسيراً بل شبه المستحيل، بدأت الدول الكبرى تميل إلى النفوذ

الفكري والحضاري أكثر من النفوذ العسكري والسياسي ، ولم تكن في هـــذا المجال قوة أو دعوة تتحدى سيطرة الغرب الفكرية والحضاريّة ، وتواجه وحدته الأساسية والنظرية ، وتعرقل سيره الحثيث إلا شخصية العالم الاسلامي المستقلة الأصيلة ، ودعوته الدينية والخلقية ، وفلسفته في الحياة ، ولكن العالم الاسلامي – لأسباب وعوامل تاريخية قدمناها في كتابنا : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » – لم يتشجع على مواجهة طاقات الغرب الفائضة المتدفقة ، مواجهة الند للند ، فإن الطبقة التي تربعت على عرشه وملكت زمام أمره كانت تعيش – كما كتبنا في الباب السابق – على هامش الغرب ، بل كانت – في تعبير أصح – طفلاً رضيعاً حملته مرضع الغرب ، وغذته بلبانها ، وتكوّن لحمه ودمه – معنوياً وعقلياً – من لحم أمه (الغرب) ودمها ، أضف إلى ذلك محاولة الغرب لإضعاف وازع العقيدة والايمان في شعوب هذه الدول ، وتدمير الأخلاق الفاضلة ، ولنسف تقاليد المجتمع الكريمة ، والقوة الباقية للتغلب على الشهوات والاغراءات – التي تجرّد عنها الغرب منذ أمد بعيد – استخدم فيها أساليب ووسائل تبدو بريئة سخية أحياناً ، آثمة مجرمة بعض الأحيان ، فحاول البلوغ إلى أهدافه البعيدة عن طريق إعانة اليونسكو ورعايته ، والاستعانة بالخبراء الأجانب في التربية والتثقيف والإعـــلام ، وبالمدرسين الأوروبيين ، وعلى التربيـــة والتعلم الغربيين ، وعن طريق تلك الموجة العارمة الصارمة من كتب وصحف ومطبوعات ، التي تبذر بذور الشبهات ، وتثير الشهوات ، والتي امتدت وطغت كالسيل الجارف العاتي ، في جميع أنحاء العالم الاسلامي ، وأراد أخيراً أن يشل جميع قواه ، ويخدر طاقاته بتعميم التلفزيون في كل منزل وأسرة ، بل في كل شقة وغرفة ، باسم رفع مستوى المعيشة وإفاضة النور والبهجة ، والمتعـــة على الحياة ، إنه يقيد – بعض الأحيان – مساعداته السخيّة لهذه الدول المتأخرة الصغيرة بشروط ، ويطالب هذه الحكومات بتغييرات وتحسينات تتكفل بتطوير المجتمع وطبيعة الجماهير المؤمنة بسهولة وبراعة .

وموجز القول : إن الغرب أحاط بهذه الدول – رغم بعده عنها – إحاطة

السوار بالمعصم أو الهالة للقمر ، واقتعلت حولها أوضاعاً جعلت هـــذه الدول المستقلة تحت رحمةهذه الدول الغربية الكبرى ، من غير أن تستعمل تلك الأساليب القديمة البالية للإخضاع والاحتلال .

لقد أبدى قادة هذه الدول – وفيهم من يلهج لسانه بالإسلام ، وفيهم من يتزعم إنشاء كتلة إسلامية ، وجبهة إسلامية عالمية – إيماناً وتسليماً بهـــذه التغييرات ، أو « التحسينات » ، ونشاطاً وتحمساً في تنفيذها ، وتطبيقها على المجتمع والحياة ، لا يسبقهم فيه الغربيون أنفسهم ، وأن أساليبهم في قبول المخططات الأمريكية أو السوفيتية للتربية والتعليم والسماح لخبرائها وعلمائها بوضع خطة دقيقة مدروسة لتطوير عقلية هذه الشعوب وطبيعتها ، والأخـــذ بكافة الأسباب لتعميم التلفزيون وتسهيل سبله ، واستيراده برمته وعلى علاته ،وإدخاله في كل أسرة مسلمة ، وتوفير جميع الفرص والوسائل لبعض تلاميذ المستشرقين « النجباء الأوفياء » لإثارة الشبهات والفوضى الفكرية في المجتمع الإسلامي ، وتقوية الاتجاه الخطر إلى الرفاهية وأسباب الترفيه والتسلية ، ومباهج الحيـــاة وزخارفهـــا ، وتشجيع التبرج والسفور ، والتعليم المختلط ، وصناعة الأفلام والإشراف عليها ، كل ذلك يثير الشبهات في نفوس كثير من النـــاس ، انهم أصبحوا عملاء ، – لا قدر الله ذلك – بشعور أو من غير شعور لهذه الدول الكبرى ، وانساقوا معها في أهدافها الهدّامة ، أو لعلهم يريدون أن يجردوا شعوبهم المسلمة وجماهيرهم المؤمنة عن هـــذه الغيرة الدينية ، والشعور الخلقي ، وعن التمييز بين الخير والشر ، والحياء والخلاعة ، الذي يحول –أكثر الأحيان– بينهم وبين إباحيتهم الفردية وعبوديتهم للغرب ، والذي يمكنه أن يتحول في وقت ما ، في صورة انتفاضة دينية ، وحركة إسلامية ، ويمثل خطراً لسلطة هؤلاء القادة والحكام . ويبدو أن هذه العملية – عملية التغيير والتطوير – إذا استمرت عدة سنوات أخرى ، وأُتيحت الفرصة للعناصر الهـــدّامة ووسائل التدمير أن تعمل عملها بحرية وانطلاق ، فإنها تؤثر في هذا الجيل الجديد ، الذي

ُيقبل على كل طريف لذيذ تأثيراً بالغاً لا يترك له أي مجال لمواجهة تيار التغريب والتجدد ، أما النشء الذي ينشأ في هذه البيئة والذي يخلف الجيل المعاصر فإنه سيشب على السمع والطاعة ، ولا يعرف معنى المعارضة ، بل إننا نخاف — وقد بدت طلائعه وظهرت بوادره — أن تقع الطبقة الأرستقراطية والفئة الحاكمة في هذه البلاد فريسة ذلك الجذام الخلقي الذي مسخ الغرب وشوه صورته، ثم لا ترى على وجه الأرض مجتمعاً سليماً كريماً تناط به الآمال في تطهير العالم الروحي والخلقي ، ويعتمد عليه في إنعاش الإنسانية مرة ثانية .

أما الغرب فإنه لا تصح نيته ولا تصلح طويته ـ أبداً ـ إزاء العالم الإسلامي، إنها نتيجة طبعية ورد فعل طبعي لتاريخه الطويل الذي امتدت عليه ظلال الحروب الصليبية الكثيفة ، وطبع بطابع الصراع الطويل العنيف الدامي بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية .

إن حب الواقعية والعقل العملي يحكمان بأن العالم الاسلامي وحده يستطيع أن يتحدى سيطرة الغرب ويبرز على وجه الأرض كقوة أو كتلة مستقلة تقوم على أساس فلسفة خاصة أصيلة للحياة ، ودعوة عالميـــة للبشرية ، إنها نتيجة الشعور بقيمة تلك الذخائر والوسائل الطبيعية والمواد الخامة التي تفيض بها أرض العالم الاسلامي ، والتي تملك أهمية كبيرة حساسة للسيطرة الصناعية والتجارية والسياسية للغرب ، وقد يقتضي ذلك ضعف الطبيعة البشرية أيضاً، فإن الانسان إذا أصابه داء أو لحقه عار يتمنى ـ بعض الأحيان ـ أن يصاب به الآخرون ، ُيبتلون بذلك ، ويحب أن يستوي هذا وذاك ، ولو على الداء والعار، ولا يتغلب على هذا الضعف والعيب إلا الذين استقر ـ بفضل النبوة وتأثيرهـــا ـ حب الانسانية في سويداء قلوبهم ، وتغلغل الإيمان وخشية الله في أحشائهم ، وذلك ما فقده الغرب ـ مع الأسف ـ منذ زمن طويل . إن تاريخ عهد الاستيلاء الغربي وانتصاراته يدل بكل وضوح على أن جميع هذه الدول التي وقعت تحت نير الاستعمار الأوروبي التصق بها ذلك الداء الخلقي الذي رافق الغرب حيثما حل

وسار ، وقد حاولت القوى الاستعمارية الغربية — على حد تعبير بعض المؤلفين الغربيين — إثارة الفوضى الخلقية والشبهات العقلية في البـــلاد الشرقية ، تحت خطة مدبرة مرسومة محكمة ، فإن الغرب المسيحي مهما كان متشككاً في المسيحية ، ومهما وصل بتنوّره الفكري وتحرره العقلي عن العقائد المسيحية إلى حـــدود الزندقة والإلحاد ، ولكنه مسيحي متصلب متزمت بالنسبة للعالم الإسلامي ، والشعوب الإسلامية ، إنه يسالم اليهود ويتفاهم معهم في هذه الناحية مع أنهم من ألدّ أعداء المسيحيين ، وعريقون في العداوة والبغضاء ، ويؤثرهم على المسلمين بكل صراحة وجلاء ، وفضلاً عن هذا التعصب الديني الذي نشأ في حضانته ورُضع بلبانه ، وأصبح من طبيعته وشيمته انه أحرص على مصالحه وأغراضه قبل كل شيء ، وقد جربنا مراراً وتكراراً أنه كلما وقع صدام بين دولة إسلامية ودولة غير إسلامية ، وقف — دائماً — مع الجانب الآخر ، وساعـــده من وراء حجاب حيناً ومن غير حجاب حيناً آخر ، وقد أزاح نكبة ٥ حزيران ١٩٦٧م الستار عن هذه الحقيقة ، وتقرر أنه لا يجوز لأي شعب إسلامي أو دولة إسلامية أو هيئة إسلامية أن يثق بصداقة كتلة غربية أو شرقية ، بل ينبغي له — في مثل هذه المراحل الحاسمة — أن يثق بقوته ، ويعتمد على سواعده ووسائله بعد الثقة بالله ، والاعتماد عليه .

أما بخصوص قادة العالم الإسلامي وزعمائه فيجب عليهم أن يعرفوا أنهم مهما جنوا من منافع شخصية لهم ، ولمن يأتي بعدهم وراء هذه السياسة ، سياسة التجدد والتغريب ، والتقليـــد الأعمى ، وإثارة الفوضى والتبلبل الفكري في الشعوب المسلمة ، فإنها تلحق الأمة بخسارة فادحة في المجموع وبصورة دائمة ، وتُهزّ أركانها وجذورها ومقوماتها هزّاً عنيفاً تبقى آثاره ونتائجه لعدة قرون وأجيـــال .

إن هذه الشعوب — رغم جميـع معائبها وجوانب الضعف فيها — لا تزال تحمل تلك العاطفة الفياضة الجياشة من الإيمان والحنان ، والتضحية والإيثار ،

والطاعة والإنقياد ، والحب والإخلاص ، التي لا توجد في أي أمة مادية على ظهر الأرض ، إن جماهير هذه البلاد الاسلامية رغم جهلها المؤسف وتأخرها المؤلم خامات بشرية ممتازة يصنع منها نماذج إنسانية جميلة ، وطراز رفيع من البشر، إن أكبر قوتها الإيمان والإخلاص ، والبساطة والحماس ، وهذه القوة لعبت دوراً خطيراً في التاريخ ، وصنعت العجائب ، وأتت ببطولات ، وخوارق تدهش لها العقول ، وهي التي أنقذت هذه الدول الإسلامية وأمسكت بيدها في كل وقت عصيب ، ولحظة حاسمة ، فيجب علينا ـ بناءً على مجرد حب الواقعية والحقيقة ـ أن نقدر هـــذه القوة الكبرى حقَّ قدرها ، ونعتبرها أضخم رصيد ، وأمضى سلاح ، وأقوى وسيلة ، للمحافظة على سلامة البـــلاد ، وأداء أي واجب كبير ودور خطير على مسرح العالم ، ولكن هذه القوة الشعبية الإيمانية نفسها بدأت تتغضن تحت تأثير التجدد والتغريب ، وبدأ في هـــذه الشعوب سرطان خلقي لا ينفع فيه الدواء والعلاج .

وبالنظر إلى تفوق الغرب في مجال الصناعة والعلم الذي لا ينكر ، ولا يسمح بإنكاره وغض البصر عنه العقل والدين ، ولا هو بالمتيسر الممكن ، يقف العالم الاسلامي بين طريقين : فإما أن يقبل ـ مسحوراً ،مسلوب الارادة والتفكير ـ فلسفته عن الحياة ، ونظرته إلى الكون ، وعقائده وأفكاره المابعد الطبعية ، ونظرياته الاجتماعية والعمرانية ، وفكرته عن الأخلاق ، وأسلوبه ومنهجه في الحياة برمته ، وبما فيه من غث وسمين ، ويصهر وجوده وشخصيته في بوتقته صهراً كاملاً ، ويندمج في تياره الحضاري اندماجاً كلياً ، إن هـــذا الطريق ـ فضلاً عن أنه يعني ردة عامة شاملة ، وانتحـــاراً روحياً ومعنوياً، وخيانة بالانسانية التي ارتبط مصيرها بهذه الأمة ـ جهاد لا طائل تحته ، وسعي لا مبرر له ، وهو لا يؤدي إلاّ إلى صراع عقلي ، وقلق روحي ، وضيـــاع المواهب الانسانية ، والطاقات البشرية ، إنه تدمير صرح مشيد مكتمل البناء ، وإزالته من الأساس ليقام على أنقاضه وركامه بناء جديد ليس له مواد خام ، ومواهب

بناءة ، ولا يسمح به الجو والبيئة والمجتمع ، ولا صلة له بالماضي ، وكلما بدت محاولة في هذا المضمار في أي دولة إسلامية أخفقت ، وكلما خفّ هذا الضغط الصناعي وغير الطبيعي من الشعوب ، ووجد الناس فرصة لإبداء رأيهم وما يحبون وما يكرهون ، خلعوا هذا اللباس الفضفاض الذي لم يفصّل على قامتهم ، ولم يتلاءم مع طبيعتهم ، وذلك ما نراه الآن في تركيا ، وسنراه عما قليل في مصر وسوريا .

هذا هو الطريق الأول ، أما الطريق الثاني فهو أن نستفيد من الغرب في مضمار العلوم والصناعة والأبحاث العلمية والفنية التي لا تقوم إلاّ على التجارب العملية ، والحقائق العلمية ، وعلى الجهد الانساني فحسب بكل حرية وسعة صدر ، ثم نضع هذه العلوم والوسائل - بفهم واجتهاد وذكاء - في خدمة تلك الأهداف السامية التي منحتها لنا النبوة الأخيرة والكتاب الأخير ، ودعانا بخير أمة وخير أمة على وجه الأرض ، إن هذا الجمع بين الوسائل والغايات الذي حُرمه الغرب والشرق على السواء ، فأصبح الغرب محتكراً للوسائل الجبارة القاهرة ، مفلساً كل الإفلاس في الغايات النبيلة الصالحة ، وأصبح الشرق (الاسلامي) مقتنعاً بالغايات الرشيدة الصالحة ، مفلساً في الوسائل الجبارة القاهرة ، الغرب يستطيع أن يفعل كل شيء ، ولكنه لا يريد ذلك ، أو في تعبير أدّق لا يعرف الطريق إليه ، والشرق يحب أن يفعل الكثير ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً - هذا الجمع الصالح المتزن العادل يستطيع أن يغير وجه الأرض ، ويأخذ بيد الانسانية من طريق الانتحار والهلاك إلى طريق السعادة الخالدة ، والفوز المبين في الدنيا والآخرة ، إنها تكون مأثرة عظيمة خالدة تحوّل تيار التاريخ ، واتجاه الانسانية ، وإنها لا تتم إلاّ بيد هذا الأمة التي حملت تراث النبوة الأخيرة ، وحافظت على رسالتها وأمانتها ، فيجب أن يكون هتافنا في الوقت الحاضر والعالم المعاصر ، هتاف ترتج له الجبال ، وتهتز به أوكار الفساد ، هو - كما يقول إقبال - : « إن العالم أصبح خراباً يباباً بقسوة الغرب وفظائعه ،

فيا أيها الرجل الذي بنيت الحرم قم وابن هذا العالم » .

لقد تقدمت دولة فتية طامحة في الشرق ، اليابان ، وقامت بهـذه الخطوة والإقدام في إطار ضيق محدود ، وعلى مستوى منحط من وجهة النظر الاسلامية ، إنها استفادت من الغرب في مجال العلم والصناعة استفادةً وصل بها التلميذ إلى درجة المعلم والأستاذ ، وأصبح من العسير التمييز بينهما وحافظت ـ في جانب آخر ـ على معتقداتها وخصائصها الحضاريّة وتقاليدها ، ولكن معتقداتها الدينية ـ من سوء الحظ ـ لم تكن تتلاءم مع العصر الحديث ، ولم تكن فيهـا ناحية لخدمة الانسانية ، ولم تكن تحمل رسالة عالمية ، إنها كانت مجموعة تقاليد بالية عتيقة حرصت عليها هذه البلاد وتمسكت بأذيالها ، ولا تزال متمسكة بهـا بقوة إرادتها وصلتها العميقة الراسخة بالماضي ، ولكن الوضع في العالم الاسلامي يختلف عن وضع هذا البلد كل الاختلاف ، فعنده دين وشريعة ودستور ، لا اعتبار فيه للقديم والجديد ، وعنده حضارة قامت على الحقائق الخالدة ، إنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ولذلك فإن هذه البلاد الاسلامية سوف لا تواجه صعوبة في إيجاد التفاهم والتعاون بين تلك العلوم والصناعات ، وهذه الحقائق والغايات ، وتستطيع أن تحصل بهذه العملية على نتائج مدهشة تحيط بالعالم كله ، وتشمل البشرية بأسرها ، وتتقدم بها على اليابان التي مارست هذه العملية في نطاقها الضيق المحـدود فلم تأت بالنتائج السارة المرجوّة ، إن هذه المحاولة والعملية في اليابان وفي إي بلد تقليدي يشبه اللعب بالزجاج والحديد ، والنار والبترول ، ولكن لا تناقض بينهما عند المسلم ، فإنه يرى أن الصراع أو الاصطدام بين الدين الصحيح والعلم الصحيح مستحيـل ، وضرب من المحال ، وأن الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها ، العبرة في الوسائل ـ عنده ـ بالغايات التي سخّرت لأجلها واستخدمت في سبيلها ، إنه يرى أن كل قوة وكل علم ، وكل أداة فعالة ووسيلة ناجعـة خلقت لخدمة الدين وصلاح الإنسانية ، وإن من واجبه أن يمنح تلك العلوم والوسائل والآلات محلها

اللائق ومكانها الصحيح ، ويجعلها أداة للبناء بدلاً من التدمير ،ولكن هذا العمل الكبير يحتاج إلى ذكاء متوقد وشجاعة في التفكير ، ونصيب وافر من إيمان وإخلاص يقاوم كل نزعة تقليدية ، وكل شعار مزوّر ، وكل هتاف فارغ ، وكل مصلحة شخصية أو حزبية ، ويتغلب عليها ، ويقدم له قادة العالم الإسلامي كل نصيحةٍ وإيثار تتطلبه هـــذه التجربة ، وبذلك ينالون ـ كنتيجة أو كمنحة ـ مكانة فريدة من الحب والولاء في بلادهم لا ينالونها من أي طريق آخر ، وبالتالي يصلون — وتصل بلادهم — إلى درجة الهداية والإمامة ، وقيادة النوع الإنساني التي لم يحلموا بها .

إن الحضارة الغربية أشرفت على الانهيار ، وآذنت بالأفول والزوال ، إنها لا تعيش ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية ، وجدارتها للحياة والبقاء ، بل لأنه ليست في هذا المجال — من تعاسة الحظ — حضارة تحل محلها وتسد فراغها، إن جميع الحضارات المعاصرة والقيادات الحديثة اليوم لا تعدو نوعين ، إما هي مقلدة جامدة وصور باهتة للحضارة الغربية ، وإما هي ضعيفة هزيلة ، مريضة سقيمة ، منسحبة منهزمة ، لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة أو تقف معهـا جنباً إلى جنب ، فإذا قامت هذه الدول الإسلامية ، والعالم الإسلامي بصورة عامة لسدّ هذا الفراغ الذي سيحدث بعد نهاية هذه الحضارة وانسحابهـــا عن مسرح القيادة رُدّ إليه منصب قيادة الجنس البشري ، وتوجيه الشعوب المعاصرة مرة ثانية ، المنصب الذي لا يفوّض إلاّ إلى أمة فتيّة قوية أبية تحمل كل عناصر البقاء والاستمرار والتقدم والإزدهار : سُنة الله في الأرض ، « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

فلينظر هؤلاء القادة والحكام ما هو أولى لهم وأجـــدر بشأنهم ، التمسك بأذيال الغرب والوقوف على بابه كالشحاذين ، أم منصب قيادة الانسانية وهداية الشعوب الضالة التي لا كرامة ـ بعد النبوة ـ مثل هذه الكرامة ؟ ذلك المنصب العالي السامي الذي تتلاشى عنده جميع هذه الألقاب والشارات ، والشعارات

والهتافات والمناصب الرفيعة ، والحياة الناعمة المريحة ، والإغراءات المــادية والجنسية ، إنها سلعة غالية لا يخسر بها المشتري ، ولو ضحى بنفسه مائة مرة .

فهل هنا ـ في مساحة العالم الإسلامي الكبير ـ بلد إسلامي يقوم لهذا العمل الضخم ، العمل الحاسم الفاصل الذي لا يساويه عمل في هـــذا العهد الحديث في الاتساع والعمق ، والشمول ، وفي النتائج والآثار ، والثمرات والخـيرات ، وفي تغيير التيارات وتقويم الاتجاهات ، وإصلاح الحضارات والمدنيات ، العمل الذي لا تجدر أمامه نهضة الغرب ، وثورة فرنسا ، والشيوعية والماركسية بالذكر فضلاً عن الإشادة والتنويه ، إن هذه الثورات القديمة تبـدو كعبث الأولاد أو طفرة من طفرات الشباب بالنسبة إلى جراءة هذا العمل وذكائه وسحره وتأثيره ، إن هذه التجربة تعطي هذه الدول التي تقوم بها ، والعالم الانساني كله مجالاً بكراً جديداً فسيحاً للتفكير والعمل ، وطريقاً مأموناً مستقيماً إلى السلامة والأمن ، هذا العمل لا تستحقه ولا تجدر به ، ولا تنجح فيه إلا الشعوب التي عاشت في حوزة الملة الإبراهيمية ، واعتزّت ببشارة تكميل الدين وختم النبوة ، إن رسالة السماء تهتف بهؤلاء القادة والزعماء قائلة مجلجلة :

« وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتبا كم ، وما جعل عليكم في الدّين من حرج ، ملّة أبيكم إبراهيم هو سما كم المسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على النـاس ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله ، هو مولا كم ، فنعم المولى ونعم النصير » .

الفهرس

الصحيفة	الموضوع

الصحيفة	الموضوع

طبع على مطابع

دار لبنان

للطباعة والنشر

هاتف ٢٥٧٤١١-٢٩٤٢٠٤-٢٩٣٠٤٣

بيروت - لبنان - ص.ب ٥٦٢٠

١٦٦٥/ ٣٢٠٠/ ٦٨

الناشر
الدار الكويتية
للطباعة والنشر والتوزيع
سوق الاقمشة بلوك رقم ١ مكتب ٤٥
ص. ب. ٢٠١٤٦ الكويت

الثمن : ٥٠٠ فلس